أبو الأسود الدؤلي

ونشأة النحو العربي

تأليف

الدكتور فتحي عبد الفتاح الدجني

الناشر

وكالة المطبوعات

٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

٤١٥,٢
د ج ن

145810

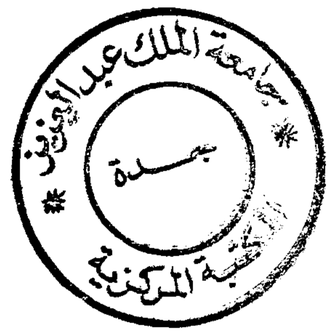

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، محمدٍ صلى الله عليه وسلم وبعد .

أتحدث في هذا البحث عن أبي الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي ، وحين بدأت قراءة المراجع لأجمعَ معلومات عن هذا الرجل ، وجدت الدراسة حوله تحتاج الى جهد وصبر وعناء ، لأنها دراسةٌ طويلةٌ ، فسيحةٌ الأرجاء ، واسعةُ الاطراف ، متعددةُ الجوانب ، قد يكون أكثرَ سهولةً على الباحث أن يدرس شاعرا معينا في عصر محدد كما يكون سهلا ان يترجمَ حياة محدثٍ أو قارىء أو راوٍ . والحقيقةُ انني قابلت صعوبات شتى عند كتابة هذا البحث ، لأن الدراسة حولَ أبي الأسود ، شملت جميعَ الجوانب العلمية في عصره ، فقد كان نحويا ومحدثا ، وراويا ، وقارئا وشاعرا ، وعلى هذا الاساس كان لزاماً عليَّ أن أقفَ مع هذه المواضيع وقفة الدارس الأمين ، لأعطيَ صورةً صادقةً عن حياته ، وقد قابلت جانبا آخر صعبا ، وهو الجانب الزمني ، حيث عاش ابو الأسود الدؤلي٨٥ عاما بدأت قبل الهجرة بـ١٦سنة ، وانتهت بعام٦٩ هـ ، حيث بدأت حياتهُ في الجاهلية وانتهت مع استقرار الاسلام ، وكانت هذه

الفترةُ خصبةً مليئةً بالتغيرات السياسية والاجتماعية التي طرأت على المجتمع الاسلامي حينذاك . وكنت ملزماً أن أسير مع هذه الفترة الطويلة ، سيراً بطيئاً تارةً ، ومسرعا تارةً أخرى . طبقا لما تتطلبه ظروفُ الدراسة العلمية . أما الجانب الاخير ، فكان أكثرَ الجوانبِ دقةً واضطرابا لأنه كان جانبا علميا متباينا ، حيث هب كثيرٌ من علماء القرن الحديث ونفوا ما قام به أبو الاسود الدؤلي من جهد في هذا المضمار ، بالاضافة الى ذلك كثرة المراجع وتعـــدد الروايات ، حيث كان يصادفني في المرجع الواحد أكثرُ من عشرين رأيا عن نشأة النحوالعربي ، ومن المؤسف حقاً ان الحديثَ في هذه المراجع كلها غير مبوب ولا مرتب . وانما هو مبعثر مشتت الى أبعد حدود ، وعاهدت الله عزوجل أن أتمم هذا الموضوع بقدر استطاعتي ، مهما كلفني ذلك عناء وتعبا ، لأن العناءَ والتعبَ في سبيل العلم والمعرفة لذةٌ وسعادةٌ . وقد حاولت جاهدا مخلصا أن أجمع صورة صادقة كاملة لعالم عربي عاش في الظل ، فترةً من الزمن ، وفي خِضمٍ من المتاهات والنسيان واسأل الله أن أكون قد وفقت الى ما أصبو اليه ....

ابو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي

يحتوي هذا البحث على أربعة فصول ، يعتبر كلُ واحدٍ متمماً للآخر ، وحاولت جاهدا أن أعطي صورة وافية لنشأة النحو العربي وتاريخه ..

(الفصل الأول)

قدمت تمهيدا لبحثي تحدثت فيه عن معنى كلمة نحو وكلمة لَحْنوقد بينت المصطلحات العربية التي اطلقها العلماء الاوائل على علم النحو وكان أول هذه المصطلحات « العربية » ثم أطلقوا بعد ذلك مصطلح الكلام ، وتلا ذلك كلمة الاعراب وبقيت هذه المصطلحاتُ هي السائدةُ ، حتى استقر اصطلاح

النحو وحل محلَ العربية وغيرها من المصطلحات . وذلك عند علماء القرن الثاني . ثم بينت المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة نحوْ وتطور الكلمة التاريخي ، والمراحل الزمنية التي مرت بها ، كما بينت أن علماء القرن الثاني ، هم الذين أطلقوا اصطلاح النحو على علم النحو ، ووصلت الى أن الخليلَ بن أحمد الفراهيدي البصري ، هو العالمُ الاولُ الذي أطلقَ هذا الاصطلاحَ أو أحياه على الاقل . ثم بينت الاصلَ التاريخيَّ لكلمة نحو وأثبت يقينا أنها كلمةٌ عربيةٌ أصيلةٌ ، ليست دخيلةً كما زعم بعضُ المستشرقين ومن سار في دربهم ، بأنها سريانيةٌ أو يونانيةٌ ، وتعرضت لكلمة لحن فوجدتُها كلمةً عربيةً أصيلةَ العروبةِ ، جاءت في القرآنِ الكريمِ ، وحديثِ الرسولِ عليه السلام . ولكن المعنى اللغوي لكلمة لحن يختلف حسب تركيبها في الكلام ، فقد حاول بعض العلماء اللغويين بتشكيلها ان يستخرجوا لها عدةَ معانٍ ، وقد جمعوها في ستةِ معان أولها « الخطأ في الاعراب واللغة والغناء والفطنة والتعريض والمعنى ، ثم انتقلت الى موضوع بحثي . وقد أوضحت أن النحو العربي علمٌ جاء مع الاسلام ونتيجة لظهوره وتكلمت بايجاز عن علوم أوجدها الاسلام ، حيث شارك الرجل الذي هو موضوع بحثنا ، في هذه العلوم ، وهي القرآن الكريم ، قراءتُه ، ثم الحديث الشريف وروايته وحفظه . ثم تكلمت عن النحو العربي ، وأسباب نشأته وبينت تفصيلا دقيقا للاسباب التي أدت الى نشأته .. وكانت أربعة أسباب هامة :

أولها : العامل الديني حيث هب العرب بعمل النحو خدمةً لدينهم وخوفا على قرآنهم من الضياع وبخاصة عندما انتشر الاسلام ، ودخل فيه أفواجٌ غير الناطقين بالعربية من شتى الاجناس ، ومختلف الامم ، وبدأ اللحن يظهر واضحا في قراءة القرآن ، ويُقرأُ خطأً على مسمع العلماء . . .

أما العامل الثاني فكان عاملا اجتماعيا بحتا لأن دولةَ الاسلامِ الناشئة سيطرت على من حولها من المدنِ والاماراتِ والتخومِ واحتلت أماكنَ جديدةً

خارجَ جزيرتنا العربية حتى غدا عددُ السكانِ الاجانبِ في البلاد المفتوحة أكثرَ من نصفها كالفرس والسريان والهنود والروم وغيرهم . وأصبحت لغة التفاهم بين المواطنين العرب وغيرهم من أصحاب البلاد المفتوحة صعبةَ المنالِ مضافا الى ذلك . ان اللحن أخذ يدخل الى بيوت العلماء وعلى لسان بنيهم وقد استفحل أمر اللحن وأصبح هما ثقيلا شعر به الصحابةُ والخلفاءُ على السواء ، حتى وصلت الدرجةُ بأن يعاقباللاحن ، أو ينفى . فقام علماؤنا الاوائل ، وغرسوا البذرةَ الاولى في التأليف النحوي وكان على رأسهم أبو الأسودِ الدؤلي. ثم تحدثت عن **العامل الثالث** وهوالعامل القومي وقد وقفت معه وقفةً طويلةً وبينت أن العربَ – وهم أصحابُ الجاه والسلطان – غاروا على لغتهم من الضياع والاضمحلال ، ورأوا انها لا تستطيع ان تقفَ امامَ اللغات ، والحضاراتِ السابقة ، الا اذ صينت من الخلل ، ولا بُدَّ من الحفاظ عليها مهما كلفَ ذلك ، لانهَا جزء كبيرٌ واساسٌ من تراثهم كما تحدثنا عن العامل الرابع تفصيلاً ثم انتقلتُ بعد ذلك لمناقشة الاراء التي قيلت بسريانية النحو أو يونانيته وقد درست هذا الموضوعَ دراسةً جادة ، بعيداً عن الهوى غيرَ متعصب لعروبتي ، وأثبت باليقين أن العرب لم يأخذوا عن السريانية نحوا وكلَّ ماً فعلوه في هذا الشأن انهم قلدوهم بحيث رأى أبو الاسود الدؤلي لغة السريان . والنقاط التي حفظتها من الخطأ ، هب مقلدا وعمل نقاطا على غرارها – اما القائلون بيونانية النحو فلم نجدْ أثراً واحداً يدل على ذلك ثم وقفنا مع القائلين بعروبة النحو وأيدناهم ..

ووقفت مع القائلين بقدم النحو وفندتُ مزاعمَهم ثم انتقلتُ في آخر الفصل لاثارة سؤال هام طالما ناقشه كثير من المحدثين والقدماء على السواء . والسؤال هو : متى بدأ التأليفُ النحوي ؟ .. واستطعتُ أن أصلَ الى نتيجة هامة وهي معرفة التاريخ الحقيقي الذي بدأ فيه التأليف النحوي . وكان ذلك ماً بين ٢٢ من جمادي الاخره وأوائل رجب لسنة ٣٦ هـ ..

(الفصل الثاني)

تحدثت في هذا الفصل عن الرجل الذي هو موضوع بحثي ، وتعرضتُ

لشتى الجوانبِ الخاصةِ في حياته ، عن اسمه الحقيقي ، وكنيته وسببها ، ومولده ووفاته والمكان الذي ولدَ فيه ، وأسرته ، واسلامه وقسمتُ حياته الى فترتين متباينتين . كانت الاولى غامضةً شديدةَ الظلام . أما الفترةُ الثانيةُ ، فكانت أكثرَ وضوحا وشمولا من الاولى ، وقد بينت الوقتَ الذي هاجر فيه أبوالأسود الى البصرة ، وأسبابَ هجرته ، ثم تعرضتُ لحياته الخاصة ، وعلاقته الانسانية ، اذ بدأت هذه العلاقة مع الخليفة عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان الى أن وصلت الامامَ علي بن أبي طالب ووقفت معه وقفةً طويلةً شاملة ، جمعتُ كلَّ ما دار بينهما من حديث وأعمال في شتى المجالات . وبينتُ اخلاصَ أبي الاسود الدؤلي وتشيعه لآل البيت عامةً والامامِ عليّ خاصةً . وكيف شارك الامامَ في المشاكل السياسية والاجتماعية التي واجهها أثناء حكمه ..

وقد حارب مع الامام في الجمل وصفين . وأظهرت الروحَ المعنويةَ والنفسيةَ التي تمتع بها أبو الاسود في عهد الامامِ عليٍّ وحكمه . وبقي أبو الاسود الدؤلي في رخاء وهناء حتى جاءه نعيُّ الامام علي وكان حينذاك في المسجد حيث هب خاطبا حزينا على ما أصاب الامام من مأساة ناعيا لهم فقيد آل البيت العزيز ..

ثم انتقلت بعد ذلك الى عهد الامويين وبينتُ العلاقةَ التي قامتْ بينَ أبي الأسود والحكام الامويين ، وعُمَّالِهمْ . وما وصلَ اليه أبو الأسود الدؤلي في عهدهم من ظلم واحتكار . ثم انتقلت بعد ذلك لدراسة أبي الاسود الدؤلي وحياته الخاصة ودخلت في منزله ، وبينت نساءَه وعددَهُنَّ ، وكيف تم الزواج منهُنَّ . ثم النساء اللائي مَرَرْنَ في حياته . وبينتُ الجانبَ الاخلاقيَّ عندَه ، ثم ذكرتُ صفاته الحسية والمعنوية . ووقفت معها وقفة غير قليلة ، وبينت كل ما قيل عنه في هذا الشأن ، ومن صلع وعرج وبخل ، ثم بينت صفة البخل عنده ودرستُها دراسة صادقة لم أتحيز فيها قطعا لابي الأسود وقد فندت مزاعم كثير ممن رووا قصصا عن بخله . ولن أبالغ اذ أقرر بأنه لا يخلو كتاب فيه ذكر أبي الأسود الا وذكر انه بخيل ودرست هذه الروايات دراسة وافية .

وثبت لنا أنها روايات قصد بها النكتة والفكاهة ، كما بينت شجاعتَه وذكاءَه ثم ختمتُ حديثي عن المهن التي عمل بها ، فعين في أول الامر قاضيا ثم نراه وصل أخيرا الى امارة البصرة وبقي عليها قاضيا وأميرا حتى وفاة الامام علي وانتقال الحكم الى بني أمية ..

(الفصل الثالث)

تحدثت في هذا الفصل عن أبي الأسود العالم . اذ كان يُحبُ العلمَ ويقدسه الى أبعد حد . كما بينتُ شيوخَه والعلماءَ الذين عاصرهم ثم تكلمتُ عـــن جهوده في النحو العربي ونشأته وذكرت جميع الروايات التي قيلت في هذا الشأن وقسمت الاراء التي قيلت في نشأة النحو العربي الى ثلاثة أقسام :

القسم الاول : وهو الذي يُسند أصولَ النحو لأبي الأسود ..

أما القسم الثاني فهو الذي يسنده الى الامام علي ويجعل أبا الاسود منفذا لما ذكره الامام ..

والقسم الثالث يسند نشأة النحو الى أشخاص غير أبي الاسود والامام . ثم ذكرت روايات القسم الاول وجمعت كل ما قيل في هذا الخصوص ووصلت الى نتيجة وهي أن أبا الاسود الدؤلي هو الذي أسس النحو العربي بدافع ديني واجتماعي وقومي وسياسي .

ثم ذكرت روايات القسم الثاني وهي التي تسند أصوله الى الامام علي ووجدت أن هذه الروايات يمكنُ أن تفسرَ تفسيراً آخر لا يخصُ النشأة ، وبينت دورَ الامام في هذه المسألة والاسبابَ التي أشركت الامامَ في النحو ، ووجدت ان الامام عليا لم يعمل في النحو شيئا وكل ما عمله في هذا الموضوع أنه أيد أبا الأسود وشجعه على السير قدما في هذا المضمار . وقام مؤرخو الشيعة ونسبوا النحو للامام علي كرم الله وجهه ..

ثم تحدثت عن روايات القسم الثالث وهي الروايات التي تسند أصول النحو الى تلاميذ أبي الاسود الدؤلي كنصر بن عاصم الليثي وعبد الرحمن بن هرمز وعنبسة الفيل وغيرهم ووجدت ان هؤلاء الذين ذكرهم الرواة واسندوا اليهم دور النحو ونشأته ما هم الاتلاميذ أبي الاسود الدؤلي وظهروا متأخرين عن عصر النشأة ثم تتبعنا تلاميذ أبي الاسود الدؤلي ووصلنا الى ان تأليف النحو مر في عدة مراحل زمنية :

المرحلة الأولى : وهي التي تبدأ بأوراق أبي الاسود الدؤلي الاربعة ثم يأتي نصر بن عاصم وهو احد تلاميذ ابو الأسود الدؤلي محاولا ان يُكْمل ماغرسه أستاذه ولكنه يتوقف لأنه وجد استقراره ناقصا ..

المرحلة الثانية : وهي المحاولة التي اتفق فيها عطاء بن ابي الأسود مع يحيى بن يعمر على بسط النحو وتعيين أبوابه وتصحيح مقاييسه .

ثم تأتي **المرحلة الثالثة** : وهي مرحلةُ التأليف الكاملة في النحو العربي .وهي المرحلة التي قام بها عيسى بن عمر الثقفي الذي ألف كتابين هما المُكْمَل والجامعُ ثم أشرت الى آراء المحدثين في النحو العربي بايجاز ، كما رددت على الناكرين جهودَ أبي الاسود الدؤلي في النحو ونشأته وكنت معتمدا في آرائي على آراء الكتاب القدماء الذين أناروا لنا طريقَ المعرفة وأمسوا لنا نبراساً شامخاً حيث نقلوا لنا حضارةَ الامةِ العربية وتراثا اسلاميا عربيا واسعَ الافاق ،خصيبَ الجوانب تذخر صحائفُه بمختلف ألوان الانتاج ويَحفل تاريخُه بفنون العبقريات والالهام .

ثم بينت جهودَ أبي الاسود الدؤلي في قراءة القرآنِ وكتابته وذكرت ما شاهدته من ملاحظات في هذا الشأن . ولن أغالي اذ أقرر إن في استطاعة كلِّ شخصٍ أن يرى جهدَ أبي الاسود الدؤلي بعينه عندما يزور دارَ الكتبِ المصرية بالقاهرة ويشاهد المصاحف الكوفية القديمة التي كتبت بالطريقة التي كتب بها أبو الاسود الدؤلي أول مصحف في العالم الاسلامي . وأوضحت أن عملية النقاط ما هي الا عملية نحوية هدفها حفظ اللسان العربي من اللحن والخطأ .

ثم بينت دور أبي الاسود الدؤلي في رواية الحديث الشريف ، وبينت شيوخه. ودونت جميع ما رواه من حديث ، كما أضفتُ بعضَ الاحاديثِ التي أُسندتْ لابنه أبي حرب الدؤلي ..

(الفصل الرابع)

تحدثت في هذا الفصل عن أبي الاسود الشاعر . وذكرت في بداية الفصل آراء القدماء في شعره وبينت كيف وصفوه بالشاعر الجيد . ثم تحدثت عن ديوانه وقد وجدت ديوانه تحققَ مرتين ، كانت الاولى في بغداد عام ١٩٥٤ وقام بتحقيقه الاستاذ عبد الكريم الدجيلي وهو من القطر العراقي الشقيق . وفي عام ١٩٦٤ حققَ الديوانَ مرة أخرى باحثٌ عراقي وهو الشيخ محمد حسن آل ياسين وقرأت الديوانين وعقدت مقارنة بينهما وبينت الائتلافَ والاختلافَ بين المحققين وطريقةً كلٍ منهما في التحقيق ثم تحدثت بعد ذلك عن شعره والمواضيع التي قرضها فوجدنا شعره في الحقيقة متفاوتا أسلوبا ولغة وفكرا . أحيانا نراه شاعرا جيدا وأحيانا نراه شاعرا متكلفا ينظم قصائده نظما جافا ونرى مواضيعه تدورفي فلك ضيق من جار أساء له أو ناقة أراد بيعها وهكذا ..

وقد درست مواضيعَ شعره دراسة جادة بعيدةً عن التعصب وحكمت عليها حكما عادلا كما تمليه الدراسة الامينة المخلصة ، وقسمت مواضيع شعره الى أغراض مختلفة كالفخر والرثاء والعتاب والحكمة والوصف والغزل والهجاء.. وحاولت جاهدا أن ارتبها حسب أهميتها ، وكثرتها كلما أمكنني ذلك . كما وقفت مع شعره وقفة طويلة ، وبينت أفكاره الاسلامية التي تأثر بها ، وتتبعت شعر الحكمة عنده تتبعا دقيقا ، ثم ذكرت الخصائص الفنية في شعره ، اذ وجدنا عنده اسلوب الشاعر العالم ، وبينت بعض المآخذ الفنية في شعره ، ثم ذكرت آراء المحدثين والمستشرقين في شعره والاحكام التي ذكروها ، ان كانت سلبية أو ايجابيةً ..

ثم جاء رأيي في شعره وقيمته الفنية والتاريخية ، اذ وجدت أن ليس لشعره قيمةً تاريخيةً تذكر ، لأنه لم يصور لنا مجتمعه الذي عاش فيه ، ولم يذكر لنا احداثَ عصره المليءَ بالاحداث الجسام، كانتصار المسلمين على الفرس والروم، ولم يصور لنا حتى المعاركَ التي خاضها بنفسه مع الامام في الجمل وصفين ، فاين هو من مقتل عثمان ؟ . واين شعره من المعارك والفتن التي حدثت داخل البصرة موطنه .. وهكذا كانت رحلتي مع أبي الأسود الدؤلي رحلة شاقة وممتعة في الوقت نفسه واعترافاً بالجميل أقدم شكري لاستاذي الدكتور حسين نصار لأشرافه على هذا البحث والله الموفق .

فتحي عبد الفتاح الدجني

تمهيد

قبل التعرض لدراسة النحو العربي ، ونشأته وجهود أبي الأسود الدؤلي في هذا الموضوع ، أحب أن أشير الى اصطلاحين ، نصادفهما اثناء دراستنا وعرضنا لهذا الموضوع وهما النحو واللحن ..

أولا : معنى كلمة نحو :

عندما نستعرض الروايات التي ذكرت نشأة النحو العربي ، وارخت له ، نجد أن العرب لم يطلقوا كلمة « نحو » على علم النحو العربي المعروف لدينا في الوقت الحاضر ، بل اطلقوا على هذا العلم عدة مصطلحات ، وأول ما يصادفنا من تلك المصطلحات « العربية » . اطلق القدماء على علم النحو « العربية » ونجد ذلك واضحا في أقوالهم ، فهذا محمد بن سلام المتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، يقول في هذا الشأن : « أول من أسس العربية — النحو — وفتح بابها ونهج سبيلها ، ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي »[1] ، وهذا السيرافي المتوفى سنة ٣٨٦ هـ عندما

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ، ص ٥ طبعة ليدن ١٩١٣ ، وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ ، ص ٧ .

يتحدث عن نشأة النحو العربي يقول : « جاء أبو الأسود الدؤلي الى زياد بن أبيه يستأذنه ان يضع العربية » [1] ..

ثانيا : الكلام :

وقد أطلق على علم النحو « الكلام » حتى نجد أبا الأسود الدؤلي نفسه ، يطلق على علمه الذي يفكر في تكوينه ، « الكلام » وذلك في قوله عندما سمع اللحن في كلام الموالي اذ قال : « هؤلاء الموالي قد رغبوا في الاسلام فدخلوا فيه ، فصاروا لنا أخوة فلو علمناهم الكلام » [2] ، ويعني أبو الأسود الدؤلي بالكلام اللغة العربية ، والطريق الى تعلمها ..

ثالثا : الاعراب :

ذكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ رواية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،أنه استعمل كلمة الإعراب ، بمعنى النحو ، عندما قال عمر : «وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب » [3] ..

رابعا : النحو :

اولا : معنى كلمة « نحو » في اللغة :

عندما تخصص العلماء في دراسة اللغة العربية دراسة شاملة ، وتفرعت علومها الى البلاغة والنقد ، والمعاني والنحو وغير ذلك من فروع ، برزت دراسات تفصيلية دقيقة ، تحدد معاني الألفاظ ومدلولها تحديدا دقيقا ، والنحو في اللغة

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١٣ .
(٢) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١٣ .
(٣) التحفة البهية والطرفة الشهية ، الرسالة الرابعة للسيوطي ص٤٩ طبع القسطنطينية سنة١٣٠٢ هـ .

كما يقول ابن منظور [1] في مادة « نحا » « تعني القصد والطريق ، نحاه ينحوه وينحاه نحوا وانتحاء ، ونحو العربية منه » ..

ثانيا : معنى كلمة نحو في الاصطلاح :

145810

يقول ابن منظور[2] : « انما هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من اعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكبير والنسب ، وهو في الأصل ، مصدر شائع ، اي نحوت نحوا كقولك قصده قصدا ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم » ..

قال ابن السكيت [3] : « نحا نحوه اذا قصد . ونحا الشيء ، ينحاه وينحوه اذا عرفه ، ومنه سمي النحوي لأنه يحرف الكلام الى وجوه الإعراب . وقال احد [4] العلماء : « وهو علم بأصول تعرف بها أحوال الكلمات العربية من حيث الإعراب والبناء . أي من حيث ما يعرض لها في حال تركيبها . فيه ما نعرف ما يجب أن تكون عليه الكلمة من رفع او نصب أو جر أو جزم أو لزوم حالة واحدة بعد انتظامها في الجملة وكان الصرف قديما يدخل تحت اسم النحو ، وكان يعرف النحو بأنه علم تعرف به أحوال الكلمات العربية مفرده ومركبه » . وقد شاهدنا نماذج من ذلك في كتب النحاة كشرح ابن عقيل اذ يفرد بابا خاصا بالصرف الا أن العلماء المحدثين فصلوا بين النحو والصرف والفوا كتبا خاصة لكل علم ..

جامعة الملك عبد العزيز
المكتبة المركزية
جدة

(١) لسان العرب ص ٣١٠ ج ١٥ وانظر تهذيب اللغة للأزهري ص ٢٥٢ ج ٥ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٣١١ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٣١٠ .
(٤) جامع الدروس العربية الشيخ مصطفى الغلاييني بيروت ص ٩ ط أ – ١٩٦٦ .

كيف جاء اصطلاح « النحو » الى العرب ؟

أهو عربي الاصل ؟ أم دخيل عليه ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال نجد أنفسنا أمام اتجاهين متباينين ..

الاتجاه الأول : يرى ان اصطلاح النحو عربي الأصل . ويمثله الرواة والمؤرخون العرب ..

والاتجاه الثاني : يمثله بعض المستشرقين والمؤرخين العـــرب . اذ يرون ان اصطلاح النحو مأخوذ عن السريانية التي اخذته بدورها من اليونانية .

أولا : اتفق معظم الرواة العرب على ان النحو كلمة عربية الأصل . وقدموا تعليلاً لهذه التسمية . وأول هذه الروايات ، رواية ابن النديم الذي يحاول ان يبين سبب التسمية اذ يقول : « عندما القى الامام لابي الأسود أصولا في النحو قال أبو الأسو د : واستأذنته ان اضع نحو ما صنع » وسمى ذلك « نحواً » [1] ، وهذا ابن الجزري يقول في هذا الشأن : « وعندما عرض أبو الأسو د الدؤلي مسائل النحو على الامام قال : ما أحسن هذا النحو الذي نحوت فسمي النحو نحوا » [2] ، وفي رواية أخرى للخوانساري « ان الامام

(١) الفهرست لابن النديم ص ٦٥ ، وفيات الاعيان لابن خلكان ص ٢١٧ .

(٢) طبقات القراء لابن الجزري ج ١ ص ١٢ ، وانظر معجم الأدباء ياقوت ج ١٢ ص ٣٤ .

عليا قال لأبي الأسود الدؤلي انح هذا فسمي نحوا » أو : انح نحوه » [1] ..

ثانيا : أما الاتجاه الثاني ، والذي يؤيده بعض العلماء العرب والمستشرقين ، حيث يرون أن كلمة نحو ، مأخوذة عن اللغة اليونانية ، والملاحظة هي التي ذكرها ابن منظور في لسان العرب ، والخبر ليس من ابتداع ابن منظور ، بل كان نقلا عن الأزهري صاحب كتاب تهذيب اللغة ، يقول ابن منظور [2] : « ثبت عن أهل اليونان فيما ذكره المترجمون العارفون بلسانهم ولغتهم أنهم يسمون علم الالفاظ والعناية بالبحث نحوا ، ويقولون كان فلان من النحويين ، ولذا سمي يوحنا الاسكندراني يحيى النحوي » ، ويقصد في ذلك أن اليونانيين ، عرفوا اسم النحو وكان عندهم معروفا . كما ذهب بعض الدارسين لهذا الموضوع بأن كلمة نحو ، مأخوذة عن السريانية التي أخذتها بدورها عن اليونانية [3] ..

واذا حاولنا التعقيب على هذا الرأي ، الذي يقول بان كلمة نحو مأخوذة عن اليونانية نجد أن هذا الرأي لا يقوم على أساس من الصحة ، ولا يأتي بأدلة قاطعة يثبت فيها صحة رأيه ، وقد نقل ابن منظور هذا القول عن الازهري ، ونحن نشك في صحة هذا الرأي كما نشك في صحة الآراء الاخرى التي تؤيد ان كلمة نحو مأخوذة عن اليونانية ، وذلك لعدة أسباب :

أولا : اتفاق جمهور الرواة من القدماء على أن النحو كلمة عربية ، ولم يشيروا الى أنها مأخوذة عن اللغة اليونانية ، أو السريانية ، ولو كـــان الخبر صحيحا ، ما أغفله الرواة قطعا ..

ثانيا : قد رجعنا الى دائرة المعارف البريطانية ودائرة المعارف الاسلامية . وقرأنا مادة Grammer اي (نحو) في دائرة المعارف البريطانية ، ومادة

(١) روضات الجنات للخوانساري ج ١ ص ٣٣٤ ط ٢ ايران سنة ١٣٥٧ هـ .

(٢) لسان العرب لابن منظور ج ١٥ ص ٢٠٩ ، وانظر تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ص ٢٥٢ ، ص ٢٥٣ ج ٥ .

(٣) مقال عن نشأة النحو للأب اسحاق ساكا مجلة العربي ، الكويت عدد ١٠٦ ص ٥١ سنة ١٩٦٧ م .

(Nahw) في دائرة المعارف الاسلامية ، فلم نجد رأيا يؤيد قول ابن منظور أو بعض العلماء الذين أشاروا الى نقل الاصطلاح (النحو) الى العربية . وكل ما قيل في دائرة المعارف الاسلامية ، بهذا الخصوص ما نصه : [1] « لقد أخذت المفاهيم النحوية الاساسية للنحويين العرب من المنطق الارسطي ، الذي جاء عن طريق العلماء السريان الى العرب » ، وهذه المفـاهيم التي يشير اليهـا ، هي التي تخص التقسيم الكلامي في اللغة العربية ولا تخص اسم النحو كما لا نجد في دائرة المعارف البريطانية شيئا يخص هذه التسمية ..

حاولنا تتبع تاريخ الشخصية التي يطلق عليها « يحيى النحوي » لنعرف مدى صحة النسبة له ، وقد وجدناها تدور حولها الشبهات ، فهذا الاسم ، يحمل عدة أسماء . : فيقولون يحيى الملاح ، ويحيى فيلوبولونس ، ويحيى الاسكولائي ، ويحيي اسقف قسرية حتى قال أحد الكتاب عنه : واصبح شبح الخرافة يطوف حوله » [2] ، وكل ما الفه هذا الرجل في الفلسفة حيث استخدم منطق أرسطو للدفاع عن المسيحية . وكل ما ترجم له في العربية ، بعض الكتب في الفلسفة ، وكتاب في الجدل [3] ولذلك كل ما قيل عنه مشكوك فيه وخاصة اللقب الذي يدور حول النحو « يحيى النحوي » ..

ثالثا : قد صح أن العرب أخذوا عن اليونان بعض الكلمات ، ولكن كلمة نحو لم تكن ضمن هذه الكلمات ، ويشير الاستاذ أحمد أمين الى بعض الكلمات المأخوذةعن العرب « كلمات أخذها العرب من اليونانية كالقسطاس (الميزان والسجنجل (المرآة) والبطاقة (الرقعة) والقسطل (الغبار) والقنطار والبطريق والترياق والنقرس والقولنج (مرضان [4]) ..

(١) انظر : دائرة المعارف الاسلامية باللغة الانجليزية ج ٣ ص ٨٣٦ . وانظر :
Encualopaedia of Britannica volume 10 M. NAHW,
8 S / of islam 3 p. 836 « Grammer ».

(٢) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ص ٤٧ – ط ٣ سنة ١٩٦٥ .

(٣) انظر تاريخ الأدب السرياني ، مراد كامل واخرين بالنسبة لتعدد الأسماء ؛ ص ١٦٣ ، ص ٢٠٣ .

(٤) فجر الاسلام ، أحمد أمين ص ١٣٨ طبعة ثامنة ، مكتبة النهضة ، مصر ..

رابعا : لم يثبت عن أهل اليونان أنهم اطلقوا على علم النحو عندهم (النحو) بل اطلقوا كلمة « جرامتيكا » ..

والخلاصة : ان كلمة نحو ومدلولها، لم تكن مستعملة عند النحاة الأوائل فلذلك أطلقوا اصطلاح العربية تارة وأخرى كلاما وأحيانا الاعراب حتى استقر الرأي على تسميته (بالنحو) وذلك عند علماء القرن الثاني الهجري ..

واذا حققنا في تلك الاصطلاحات السابقة ، (العربية – الكلام – الاعراب) نجدها لا تتناقض مع معنى النحو ، الا أنها لا تلتزم الدقة في تلك الالفاظ ..

وهكذا نلاحظ ان العلماء الاوائل الذين نسب اليهم نشأة النحو العربي ، وهم (الامام علي بن ابي طالب المتوفى سنة ٤٠ هـ ، وأبو الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ ، ونصر بن عاصم الليثي المتوفى سنة ٨٩ هـ ، وعبد الرحمن بن هرمز المتوفى سنة ١١٧ هـ) ، لم يستعملوا اصطلاح النحو بل اطلقوا تلك المصطلحات التي ذكرتها ..

وبقيت تلك المصطلحات هي السائدة ، طيلة القرن الاول الهجري . وهذا ما اتفق عليه معظم الباحثين والرواة الا أنهم أغفلوا حقيقة هامة وهي : عدم معرفة الرجل الذي اطلق (اصطلاح النحو) ..

واحب أن أشير في هذا الشأن الى بعض الملاحظات التاريخية ، لتتبع الآثار النحوية المفقودة التي تحدث عنها الرواة ، عسى أن نصل الى نتيجة تعرفنا من هو العالم الذيأطلق اصطلاح النحو ، بدلا من الاصطلاحات السابقة (العربية – الكلام – الإعراب) . مع علمنا ، بأن البحث حول هذا الموضوع ، شائك وغامض في الوقت نفسه ، كما يحتاج الى جهد أي جهد ، وصبر أي صبر ، وقد أشار الاستاذ الرافعي الى هذا الغموض في قوله : : « لفظ العربية اطلقه أبو الأسود على النحو وعرف به النحو في عصره وبعد عصره أيضا ولكـن الرواة لم يبالوا بالفروق التاريخية بين الألفاظ ، وهذا بعض ما نعانيه مـن اهمالهم عفا الله عنهم » [1] ..

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ج ١ ص ٣٣٧ ط ٢ .

الا اننا لم نخضع لليأس بل حاولنا تتبع الآثار النحوية منذ عهدها ، لتكون لنا ضوءا تنير ذلك الظلام ..

وقد اعتمدنا في تتبعنا لتلك الآثار النحوية ، على ناحيتين :

الاولى : الناحية التاريخية :

وهي هامة في نظرنا اذ تتبعنا الاثر التاريخي عند النحاة ، لمعرفة تاريخ ذلك الاصطلاح ..

الثانية : الآراء الظنية :

وهي التي تعتمد في بعض نواحيها على الحدس والتخمين ومن ثم الاستنتاج ..

* * *

الأثر النحوي عند علماء القرن الأول

أن أول أثر ذكره الرواة عن النحو العربي ونشأته ، هي أوراق أبي الأسود الدؤلي الاربعة وهي التي ذكرها ابن النديم في كتابه الفهرست . « هي أربعة أوراق احسبها من ورق الصين الى آخر الرواية »[1] . وأول ما يلاحظه الباحث في تلك الاوراق ، انه لم يكن لها اسم . وعندما نلاحق الاثر المذكور ، نجد بعض الرواة يذكرون :[2] « ان ابا الاسود الدؤلي لما وضع باب الفاعل والمفعول ، زاد في ذلك الكتاب رجل من بني ليث أبوابا ، ثم نظر ، فاذا كلام العرب . لا يدخل فيه ، فاقصر عنه » وهذا الكتاب لم يكن له أسم أيضا .. وبعد هذه الملاحظة للأثر النحوي عند علماء القرن الاول ، نصل الى نتيجة هامة ، وهي :

(١) الفهرست ابن النديم ص ٦٦ ، وذكر هذا الخبر الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين ، ص ٦ مخطوط بدار الكتب ..

(٢) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١٧ ، وانظر الفهرست ص ٦٨ .

ان اصطلاح النحو ، اطلق في القرن الثاني الهجري ، والذي أطلقه عالم من علماء القرن الثاني ؟ ..

وقد تتبعنا الآثار النحوية عند علماء النصف الاول من القرن الثاني الهجري وقرانا سيرهم ، وهم : عبد الله بن ابي اسحاق الحضرمي المتوفى سنة ١٢٩ هـ ، وتلميذاه عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة ١٤٩ هـ، وأبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ ..

فلم نجد من آثارهم ما يدل على استعمالهم اصطلاح النحو . فهذا عبد الله بن أبي اسحاق ، لم يرو أنه استعمل هذا الاصطلاح النحو ، وهذا عيسى بن عمر الثقفي الذي ألف كتابين ، وهما الجامع والمكمل ، ويقول السيرافي عنهما « وهذان الكتابان ما وقعا الينا ولا رأيت أحدا يذكرانه رآهما »[1] ، وأهم ما يلفت انتباهنا في هذين الكتابين انهما لا يوجد دليل على استعمالهما اصطلاح النحو ، لولا ما ذكره الرواة أنهما في النحو والمهم ان عيسى ، لم يطلق عليهما الجامع أو المكمل في النحو مثلا ، وربما كانا الجامع والمكمل في العربية ..

أما أبو عمرو بن العلاء فلا دليل على استعماله اصطلاح النحو . وقيل : انأحد معاصريه سأله سؤا لا بشأن التشديد في القياس— وقد استعمل السائل اصطلاح العربية بدلا من النحو — وقال له « اخبرني عما وضعت مما سميته عربية ايدخل فيها كلام العرب كله ؟ فقال : لا ، فقال له : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة[2] قال أعمل على الاكثر واسمي ما يخالفني لغات » ..

وبناء على هذا العرض التاريخي الذي يخص النحو تصل الى حقيقة وهي أن النحاة (عبدالله بن أبي اسحاق — عيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء) لم يرد عنهم انهم استعملوا اصطلاح النحو بل بقي استعمالهم ثابتا على اصطلاح

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٢٥ .

(٢) المدارس النحوية ، شوقي ضيف ص ٢٧ ، ص ٢٨ سنة ١٩٦٨ .

(العربية) أو (الكلام) وأول من شاهدنا في اثاره النحوية أنه استخدم اصطلاح النحو هو الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري المتوفى سنة ١٧٥ هـ ..

وذلك في قوله مادحا استاذه ، عيسى بن عمر [١] :

بطل النحو جميعـــا كلـــه غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك أكمال وهـــذا جامـــع فهما للناس شمس وقمـــــر

كما وجدنا استعمالا لهذا الاصطلاح ، عند يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٢ هـ [٢] اذ يروي ابن سلام[٣] «سمعت ابي يسأل يونس عن ابن ابي اسحاق وعلمه وقال : هو والنحو سواء » ، قال : وقلت ليونس هل سمعت من أبن أبي اسحاق شيئا ، قال : قلت له : هل يقول احد الصديق يعني السويق ، قال نعم عمرو بن تميم تقولها وما تريد الى هذا عليك بباب من النحو يطرد » ..

نجد ابن سلام في روايته السابقة ، يشير الى ان عبد الله بن أبي اسحاق استعمل كلمة نحو . وأنا أشك في صحة هذا الخبر ، وأرجح أن أبي اسحاق لم يستعمل كلمة نحو ، بدليل انفراد ابن سلام بتلك الرواية من جهة ، ومن جهة أخرى ، لم نجد أثرا واحدا يدل على أن العالمين ، عيسى بن عمر الثقفي وأبا عمرو بن العلاء ، استعملا كلمة نحو ، مع أنهما عاصرا عبد الله بن أبي اسحاق ، وكانا من تلاميذه ، وأما الرواية التي يمكن الاطمئنان اليها في هذا الشأن ، هي الرواية ، التي ذكرها السيرافي اذ قال : [٤] « قال محمد بن سلام سمعت رجلا يسأل يونس عن ابن أبي اسحاق وعلمه ، قال : هو والنحو سواء ، أي هو الغاية ، فأين علمه من علم الناس اليوم ؟ قال : لو كان في

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٢١ .
(٢) يونس بن حبيب الدكتور حسين نصار ص ١٢ ، اعلام العرب عدد ٧٥ .
(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، ص ١٥ ذخائر العرب . القاهرة .
(٤) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٢٠ ، ص ٢٢ .

الناس اليوم من لا يعلم الا علمه لضحك به : ولو كان فيهم أحدا له ذهنه ونفاذه ونظر نظرهم كان أعلم الناس » ..

وهكذا نجد اصطلاح النحو يستعمل رسميا في آثار العالمين (الخليل ويونس) غير أننا لا نستطيع أن نعرف من أول من استعملها منهما لعدم وجود أدلة على ذلك..

غير انني استعين بالآراء الظنية وارجح الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري بأنه سبق يونس بن حبيب في استعماله (اللفظ) اصطلاح النحو وذلك لعدة أسباب :

أولا : تتلمذ كل من العالمين على علماء عصرهما ، وكان استاذهما عيسى بن عمر وأبا عمرو بن العلاء غير أن أبا عمرو بن العلاء كان اهتمامه بالقراءات اكثر من اهتمامه بالنحو ، على نقيض عيسى بن عمر ، الذي اهتم بالنحو اهتماما خاصا . [١] ، وكان تأثير ذلك على تلميذ يهما ، اذ نجد الخليل بن أحمد يلازم عيسى بن عمر . ويونس بن حبيب يلازم [٢] أبا عمرو ابن العلاء ، ومن ثم كان الفرق بين الاثنين واضحا في آثارهما النحوية خاصة ، اذ نجد الآثار والآراء النحوية عند الخليل أضعاف ما جاء به يونس من آراء نحوية ..

ثانيا : كان للخليل عقل فذ « فقد كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه » [٣] وقيل عنه « كان عقل الخليل من العقول الخصبة النادرة فهو لا يلم بعلم حتى يلتهمه التهاماً بل حتى يستوعبه ويتمثله وينفذ منه الى ما يفتح من أبوابه الموصدة » [٤] ، كما قرأ كل ما ترجمه ابن المقفع وخاصة منطق ارسطاطا ليس وليس بكثير على الخليل ان يختار اصطلاحا غـــير العربية لهذا العلم ، الذي افتن فيه وأتقنه اتقانا يفوق كل وصف ، اذ رأى أن اصطلاح

(١) المدارس النحوية ، شوقي ضيف ص ٢٧ .
(٢) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٢٠ ، ٢٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٠ .
(٤) المدارس النحوية ، الدكتور شوقي ضيف ص ٣٠ .

العربية لا يناسب هذا العلم ، ولا يمثله تمثيلا دقيقا كما لاحظ أن له عدة مصطلحات (العربية – الكلام – الاعراب) . ثم النحو كان مهملا من حيث الاستعمال ، لان الرواة ذكروا ان اصطلاح النحو استعمل قديما وربطوا بينه وبين تاريخ النشأة ، وذلك في قول الامام لابي الأسود « انح نحوه [1] » أو « ما أحسن هذا النحو الذي نحوت « [2] ، فرأى الخليل أن خير ما يناسب هـذا العلم من اصطلاح بدلا من تلك الاصطلاحات المتباينة لفظا هو اصطلاح النحو ..

اما يونس بن حبيب « فهو بارع في النحو » [3] ويصفه استاذنا الدكتور حسين نصار في قوله : « وكان الرجل الذي يتحلى بهذه الصفات ذا شخصية قوية وعقل حر ، ورأي مجتهد فكانت الثمرة عالما يبرز بين العلمـاء ويحوز الشهرة بين المشهورين ، فلا يخمله علم ولا يطفئه نجم ، فقرنت البصرة بينه وبين أشهر أبنائها من العلماء حينئذ الخليل بن أحمد الفرهودي » وما ننكر ما كان ليونس من حظ في النحو الا أنه لا يصل بأي حال من الاحوال الى درجة الخليل بن أحمد العقلية والعلمية . فانني أرجح الخليل في استعماله اصطلاح النحو ، بأنه سبق يونس ، حيث كانت طبيعته تميل الى الدقة والتقسيم في أعماله ، كما وجدنا ايضاً نصاً صريحاً ليونس بن حبيب يذكر فيه اصطلاح العربية والرواية تقول : « حدثني ابن سلام : قلت ليونس أيما أسن ، أنت أو حماد بن سلمة ؟ قال : هو أسن مني ومنه تعلمت العربية » [4] ، وواضح مما قدمنا أن اصطلاح النحو حل محل (العربية) ، وثبت على ذلك عند الخليل وتلاميذه ..

* * *

(١) روضات الجنات للخونساري ج ١ ص ٣٣٤ ط ٢ ايران سنة ١٣٥٧ هـ .
(٢) طبقات القراء لابن الجزري ج ١ ص ١٢ وانظر معجم الادباء ياقوت ج ١٢ ص ١٣٤ .
(٣) يونس بن حبيب . د . حسين نصار ص ٣٢ .
(٤) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٣٤ .

معنى كلمة لحن :

ترددت كلمة لحن ومدلولها كثيرا بين الناس سواء مثقفين أو غيرهم ، وكانت مثار جدل ونقاش بين علماء اللغة والمؤرخين وأمثالهم . .

ولنا أن نتساءل ؟ كيف كان العرب الاوائل يستعملون كلمة لحن ؟ وما يعنون بها ؟ هل عرفوا اصطلاحاتها ومدلولاتها .. ؟ ..

في الواقع بل بالتأكيد كانت كلمة لحن معروفة بالجاهلية بدليل قوله تعالى :

« ولتعرفنهم في لحن القول » أي في معنى القول ، وهي الآية الوحيدة التي ذكر القرآن فيها هذه الكلمة . ومعنى هذا ان كلمة لحن ، كانت معروفة عند العرب الاوائل ، ولا يمكن ان يخاطب القرآن الكريم رسوله ، بلغة غير لغته ، وبكلمة لا يفهمها ، غير مألوفة ..

ثم يأتي الرسول والصحابة ، فنجد هذه الكلمة تستعمل لمعان اخرى غير ما جاء به القرآن الكريم . وهذا رسولنـا العظيم محمد ﷺ وأصحابه يستعملون كلمة لحن اكثر من مرة في أحاديثهم وبمعان مختلفة يقول صلى الله عليـه وسلم : « أنا أعرب العرب ولدتني قريش ونشأت في بني سعد بن بكر فأنى يأتيني اللحن »[1] ، نلاحظ أن الرسول عليه السلام استعملها بمعنى الخطأ ...

وكذلك الصديق يستعملها بمعنى الخطأ اذ يقول :

« لأن أقرأ فاسقط أحب الى من أن أقرأ فالحن » ..

وهذا عمر بن الخطاب يستعمل « اللحن » بمعنى الخطأ أيضا « اذ يروى أنه مر بقوم يرمون فاستقبح رميهم وقال : ما أسوأ رميكم فقالوا نحن قوم « متعلمين » فقال عمر : « لحنكم أشد علي من فساد رميكم » فالصواب ان يقولوا « متعلمون نعت للخبر « قوم » ..

(١) الاضداد للانباري ص ٢٤٤ ، تحقيق محمد ابو الفضل ، الكويت سنة ١٩٦٠ .

وقد استعلمت كلمة لحن بمعنى اللغة .

وهذا حديث الرسول عليه السلام في قوله : « اقرءوا القرآن بلحون العرب وإياكم ولحون أهل الفسق » [1] ، كما استعملها عمر بن الخطاب بهذا المعنى ، وذلك في قوله : « تعلموا الفرائض والسنن واللحن كما تعلموا القرآن » ، وقد استعملت كلمة لحن بمعنى الفطنة والذكاء إذ يروى عن رسول الله عليه السلام أن رجلين أختصما اليه في مواريث وأشياء أخرى ، فقال عليه السلام « لعل أحدكم أن يكوَن ألحنَ بحجته من الآخر » [2] ..

ثم يأتي التابعون، فيركزون على اللحن الذي بمعنى الخطأ . فهذا أبو الأسود الدؤلي يقول في معنى اللحن : « وإني لاجد للحن غمرا كغمر اللحم » [3] ، ثم جاء الحكام الأمويون ورددوا كلمة اللحن بمعنى الخطأ..

ويجيب عبد الملك بن مروان لسائله عن سبب الشيب في رأسه « شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » [4] ، وهو القائل : « اللحن في الكلام كالتنسيق بالثوب النفيس » ..

وهذا الحجاج بن يوسف الثقفي ، الذي قال لاخته : « أتلحنين وأنت شريفة » [5] وهكذا نلاحظ أن معنى كلمة لحن (أو الاصطلاح الذي غلب أستعماله في الفترة الزمنية التي عاصرت الرسول والصحابة وما يليهم من التابعين حتى العصر الأموي) هو الخطأ في اللغة ، ويحاول أحد المستشرقين أن يحدد الفترة الزمنية لاستعمال كلمة لحن ، بمعنى الخطأ ، ويقول في هذا الشأن [6] « «ولا يزال ينقصنا بعد كل دليل حتى تم نقل لفظ اللحن إلى معنى الخطأ في الكلام .

(١) الامالة في القراءات واللهجات ، دكتور عبد الفتاح شلبي ص ١٠٤ .
(٢) الأمالي للقالي ص ٥ وانظر تاريخ آداب العربية ، الرافعي ج ١ / ١٥ .
(٣) البيان والتبيين ، الجاحظ ج ١ ص ٢١٨ .
(٤) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ١٥٥ .
(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٤٨٠ .
(٦) العربية يوهان فك ص ٢٤٢ وما بعدها ، ترجمة الدكتور المرحوم عبد الحليم النجار .

وأغلب الظن ، أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى ، عندما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالاعاجم » ..

ثم يحاول في آخر بحثه بهذا الشأن ، أن يصل إلى أول بيت من الشعر ، جاء به كلمة لحن بمعنى الخطأ ، والبيت للشاعر الحكم بن عبدل الأسدي ، من شعراء البصرة « عاش في أوائل القرن الثاني الهجري » والبيت هو :

ليت الامير أطاعني فشفيته ... من كل من يكفي القصيد ويلحن

ونحن نختلف مع ما جاء به يوهان فك في هذا الشأن وخاصة في تحديده لاستعمال كلمة لحن بمعنى الخطأ حيث يصف هذا الاستعمال بالوقت المتأخر ، أو ظنه عندما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالاعاجم فلا ندري ماذا يعني بالوقت المتأخر . فإن كان يعني بالوقت المتأخر بعد الرسول والصحابة فهو مخطيء ، لأن الرسول والصحابة ، والتابعين أنفسهم ، استعملوا كلمة لحن بمعنى الخطأ. وان كان يعني بتحديده لبيت الشعر الذي استشهد به واعتمده تاريخا لذلك الاستعمال ، — «اللحن بمعنى الخطأ » — فهو مخطيء أيضاً، لاننا لا نجد فرقا بين أستعمال الكلمة في الشعر أم النثر . وقوله الآخر عندما استعمل العرب كلمة لحن بمعنى الخطأ « عندما تنبه العرب بعد أختلاطهم بالأعاجم » ونعتقد أنه يشير بهذا القول إلى تاريخ الفتح الإسلامي ، وهي الفترة التي أختلط بها العرب بالأعاجم أختلاطاً ملحوظا . وهو في هذا القول مضطرب أيضا ، لأنه تجاهل حديث الرسول الذي أستعمل به كلمة لحن بمعنى الخطأ ، والواقع أننا لم نستطع تحديد الزمن تحديدا دقيقا لاستعمال كلمة لحن بمعنى الخطأ ، لأ ننا لا نجد الدليل القاطع على ذلك ولم نعلم هل استعملت بهذا المعنى أم لا ، ولا نجد غير الذي استعمله رسولنا بهذا الخصوص ، ويمكن اعتباره تحديدا زمنيا في الفترة التي عاشها الرسول نبيا . والتي تبدأ من عام ٦١٠ م وتنتهي مع وفاته عام ٦٣٣ م ..

كما نلاحظ أن كثيرا من الكلمات العربية اندثرت ، وندر استعمالها على الأقل . ولكن كلمة « لحن » لم تندثر بل زادت اهميتها وكثر استعمالها ، وتعدد

معناها ، وذلك عندما تطورت الدراسات العربية ، حاول العلماء (واصحاب المعاجم خاصة) بواسطة تشكيل هذه الكلمة ، ان يستنبطوا مخرجا لها ..

ويقول أبن منظور [1] في مادة « لحن » محاولا تعريفها وتشكيلها : « اللحن الذي هو خطأ في الأعراب يقال فيه « لَحَن » بفتح الحاء ويَلْحَنُ لَحْنَاً فهو لحان ولحانة ويقال رجل لاحن » .. كما روي لَحْن بسكون الحاء تاتي بمعنى الفطنة وقد بينا ذلك في قول الرسول للمتخاصمين الذي حل النزاع بينهما ..

كما استعملها الشعراء بهذا المعنى .

كقول لبيد يصف كاتبا ...

متعودٌ لحنٌ يعيـد بكفـــه قلما على عين ذبلـــن وبان

وقول الطرماح :

وأدت الى القول عنهم زولـــة تلاحن أو ترنو لقول الملاحـــن

أو كقول القتال الكلابي [2] :

ولقد لحنت لكـــم لكيما تفهموا ووصيت وصياً ليس بالمرتاب

كما جاءت بمعنى الغناء وحسن الصوت ، ويدل عليه المثل المعروف الحن من الجراوتين [3] أي أحسن صوتا وغناء . أو ألحن من قينتي يزيد والمراد بهما حبابه وسلامة مغنيتا يزيد بن عبد الملك ، اللتان قيل فيهما أنهما كانتا الحن من رئي في الإسلام ، من قيان النساء . وقيل لحَّن بالتشديد ، رتَّل النغم بالقرآن . وقد جمع ابن بري [4] معاني كلمة لحن وقال « للحن ستة معان وهي الخطأ في

(١) لسان العرب لابن منظور مادة لحن ص ٢٦٣ جـ ١٧ ط ١ / ١٣٠ .

(٢) ديوان القتال الكلابي ص ٧ تحقيق احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة العربية سنة ١٩٦٠ .

(٣) العربية يوهان فك ص ٢٣٨ (الجراوتان كانتا قينتان لمعاوية بن بكر العمليقي).

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ص ١٥٥ ، باب الاعراب واللحن .

الأعراب ، واللغة ، الغناء ، الفطنه التعريض ، والمعنى » ..

والخلاصة :

ان معنى كلمة « لحن » . أو المشتقات منها تأتي مختلفة كما بينا ومر مفهومها في فترات معينة من الزمن ، برز تارة وانخفض أخرى ، حتى أستقرت أستقرارا ملحوظا كما بينا عند علماء اللغة . ولكننا نلاحظ أن اللحن الذي بمعنى الخطأ واللحن الذي بمعنى الغناء ، أكثر المعاني أستعمالا . أما اللحن الذي سوف نكرره في هذا البحث ينطبق على معنى الخطأ في القول حديثا كان أو كتابة ..

* * * *

الفصل الاول

العصر

« الفصل الاول »

« العصر »

علوم أوجدها الاسلام :

أحب أن أشير الى العلوم التي أوجدها الإسلام ونستعرضها في صورة عاجلة تكون بمثابة تمهيد لكلامنا عن النحو العربي ونشأته لان هذه العلوم مرتبطة بنشأة النحو من جهة ومن جهة ثانية ترتبط بالشخصية التي ندرسها وهي شخصية أبي الأسود الدؤلي. وأول هذه العلوم . .

القرآن الكريم ، قراءته وتفسيره :

بدأ هذا العصر بدين جديد على العرب ، وقد غير في حياتهم وعاداتهم ، وأخرجهم من ظلمات الجهل الى نور الإسلام . ومع هذا الدين ، وبين ثناياه ، برز القرآن الكريم . وكان من الطبيعي أن يهتم العرب بهذا الكتاب ، حتى يفهموا حياتهم الجديدة . .

بدأ محمد ﷺ يدعو أقرب الناس اليه، كزوجته خديجة، ومولاه زيد بن حارثة ، وصديقه أبي بكر الصديق ، وابن عمه علي بن أبي طالب وغيره من المقربين اليه ، واستمر في دعوته سرا ، وظل على هذا الحال ثلاث سنوات ،

حتى أمره الله باعلانها في قوله تعالى: « فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »[1] ومع هذا الامر الصريح ، بدأت الدعوة تأخذ شكلها الطبيعي . وبدأ الرسول يقرأ الصحابة ما يوحى اليه من الآيات الكريمة جهرا ، — في الشارع ، في المنزل في أي مكان مناسب — ويشرحها لهم ، والتف حوله رهط من الصحابة يحفظون ما يقول من آيات وتعاليم ، يتحرون في حفظهم الدقة والتروي، ويروى عن أبي عبد الرحمن السلمي ، قال [2] : « حدثنا الذين كانوا يقرءوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما — أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا » ..

وكانت طريقة تلقي العلم عن الرسول مختلفة ، اذ كان بعض الصحابة يلازم النبي عليه السلام ، ويقيم بجانبه ، والبعض الآخر يعقد لهم مجالس أشبه بالندوات ، ولم تكن هذه المجالس محصورة على فئة من الناس ، بل كانت عامة يحضرها القروي والبدوي [3] ومن يشاء من المسلمين ، وكان أحيانا يأتيه بعض الوفود ، يقيمون عنده ، يتعلمون ثم يعودون . وهذا البخاري يروي عن مالك بن الحويرث يصف بعض الوفود قال : « أتينا النبي ﷺ ونحن شبيبةٌ متقاربون فقضينا عنده عشرين ليلة فظن انا اشتقنا الى أهلنا ، وسألنا عمن تركنا في أهلنا فأخبرناه ، فكان رفيقا رحيما فقال : ارجعوا الى أهليكم فعلموهم ، ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي ، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم » [4] . ولم يقتصر تعليمه على الرجال ، بل كان يعلم النساء أمور دينهن ، ويعقد لهن مجالسهن ، ولم يكن ذلك صدفة أو نادرا ، بل خصص

(١) سورة الحجر آية ٩٤ .
(٢) فجر الاسلام لأحمد أمين ص ١٩٧ طبعة ٨ مصر وانظر أبا هريرة راوية الاسلام محمد عجاج الخطيب ص ٤٧ .
(٣) تاريخ ابن عساكر ج ٢ ص ٢٤ عبدالله بن عساكر الشافعي مطبعة روضة الشام ١٣٣٠ هـ .
(٤) تاريخ ابن عساكر ج ٢ ص ٢٤ عبدالله بن عساكر الشافعي روضة الشام ١٣٣٠ هـ .

لهذا الغرض أوقاتا خاصة . وفي هذا الشأن قالت عائشة رضي الله عنها : «نعم النساء نساء الانصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين . وكانت بعض النساء يسألنه مباشرة عما يردن ، واذا كان هناك ما يمنع النبي من التصريح للمرأة بالحكم الشرعي ، أمر احدى زوجاته أن تفهمها اياه » [1] . كما كان عليه السلام يحثهم على طلب العلم ، ومن مأثور قوله : « ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب »، «ولمداد جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله » [2] ، وقيل أن بعض المشاكل اللغوية ظهرت حينذاك ، ونحن نعلم أن القرآن نزل بلغة عربية فصحى . ولم يكن العرب كلهم على معرفة تامة بلغتهم ،وكان منهم العالم والجاهل، وهذا أمر طبيعي يظهر في أي مجتمع كان ، وفي أي زمان ، ومن المشاكل اللغوية التي تروى في هذاالشأن، رواية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عندما سأله اعرابي عن قوله تعالى[3] «وفاكهة وأبا » ما الأب ؟ قال : « نهينا عن التكلف والتعمق » ، وروي عن عمر أيضا أنه كان على المنبر فقرأ : « أو يأخذهم على تخوف » ثم سأل عن معنى التخوف ، فقال له رجل من هذيل : التخوف عندنا التنقص ، ثم أنشده :

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن [4]

وليس جهل عمر رضي الله عنه تلك المعاني ، يعني أنه لا يوجد من يعرفها . ولم تكن في اعتقادي هذه المشكلة هامة ..

ومن الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير وروي عنهم الكثير « علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ، وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود ، وخص

(١) السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ، مصطفى السباعي ص ٦٤ .
(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٩ تحقيق أحمد أمين وآخرين مصر ١٩٥٦ م .
(٣) فجر الاسلام أحمد أمين ص ١٩٦ وتاريخ الأدب العربي ، العصر الاسلامي ص ٢٩ مصر ١٩٦٧ م .
(٤) القرد : الكثير القردان والتامك : عظيم السنام . السفن : الحديدة التي يبرد بها خشب القوس . .

الأستاذ أحمد أمين هؤلاء الأربعة الأولين وقال : « والصفات العامة التي مكنت هؤلاء الأربعة الأولين من التبحر في التفسير : قوتهم في اللغة العربية واحاطتهم بمناحيها وأساليبها » ..

ثم نمت الدراسات الدينية بعد وفاة الرسول عليه السلام ، وبدأت الدولة الاسلامية تتوسع وأخذ الصحابة والتابعو ن ينشرون تعاليمهم في البلاد المفتوحة ، الا أن هناك مشكلة هامة ، قابلت الصحابة ، لأن القرآن مجموع على السعف والجلود والحجارة ، وربما يخطىء العلماء لأنهم يحفظونه بالصدور ، وقد سقط كثير من قراء القرآن وحملته أيـــام اليمامة . فنرى عمر بن الخطاب يقترح على الصديق جمعه ، الا أن هناك ترددا من الصديق نفسه ، وفي هذا المعنى يروى عن زيد بن ثابت « ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء الى أبي بكر الصديق فقال : ان القتل قد أسرع في قراء القرآن وحملته أيام اليمامة ، وقد خشيت أن يهلك القرآن ، فاكتبه فقال أبو بكر : فكيف نصنع بشيء لم يأمرنا فيه رسول الله ، ولم يعهد الينا فيه عهدا » [1] ، وبعد ذلك نرى الصديق يقتنع برأي عمر ، ودعا زيد بن ثابت وقال له : « اجمع القرآن واكتبه » وتم ذلك وبقي هكذا حتى جاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وفي عهده جمع أمر المسلمين على مصحف واحد ، مدفوعا بذلك بما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءة القرآن ، وأمر بجمع المصحف ونسخ منه أربع نسخ ، أرسلها الى الأمصار واحدة الى العراق ، والأخرى الى الشام ، والثالثة الى مصر [2] ، وأبقى الرابعة في المدينة ، ومن التابعين الذين كان لهم شرف نقل هذا التراث الاسلامي وخدمته وتنميته ، أبو الأسود الدؤلي الذي وضع أول شكل للقرآن ، مستخدما في ذلك

(١) انظر المقنع في رسم مصاحف الامصار للداني ص ١٨ اعتناء اوتوبرتزل استنبول ١٩٣٢ م .
(٢) اللغة والنحو. د . حسن عون ص٢٠٣ ط ١ الاسكندرية ١٩٥٢ وانظر فجر الاسلام أحمد أمين ص ١٩٥ .

إشارات معينة [1] حافظت على النص القرآني سليما من اللحن فترة زمنية لا يستهان بهـــا . .

* * *

ثانيا : علم الحديث :

وهو من العلوم التي أوجدها الاسلام ، ويأتي بعد علوم القرآن مباشرة ، لأنه عاش بظله ، وللحديث أهمية كبرى ، اذ يعتبر المصدر الثاني للتشريع الاسلامي ، ففي القرآن الأصول العامة لأحكام الشريعة دون التعرض لتفصيلها جميعا . .

فمثلا ، فرض الله الصلاة من غير أن يبين أوقاتها ، وأركانها ، وعـــدد ركعاتها ، كما فرض الحج من غير أن يبين مناسكه ، وكذلك الزكاة ، وكثيرا من الأحكام التي أوضحها الرسول بأحاديثه ، وبين أحكامها بدقة ، لذلك اهتم المسلمون بأحاديث الرسول اهتماما كبيرا . الا أن هذا الاهتمام ، لم يصل الى درجة اهتمامهم بالقرآن . ويرجع ذلك الى اهتمام الرسول نفسه بالقرآن الكريم . وقد حث الرسول على عدم تدوين الحديث ، خوفا على النص القرآني والتباسه الحديث ، ويحدثنا أبو سعيد الخدري بما قاله الرسول بهذا الخصوص « لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عني فلا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »[2] . ففي الحديث ، بيان واضح ، لما يريده عليه السلام ، فهو يريد من المسلمين أن يتحدثوا دون كتابة ذلك كما بينا ، خوفا على القرآن من الالتباس مع الحديث ، ولكننا نجد بعض الصحابة يتذمرون من الحفظ غيبا ، لأن الذاكرة قد تخونهم ، ويصبح نقلهم كذبـــا ، ويجازون على هذا النقل الخاطىء ، وبدأوا يَلحوُنَ على الرسول بكتابته ، وفي

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١٤ ، وروضات الجنات للخوانساري ص ٣٣٣ ط ٢ سنة ١٩٣٢ مطبعة الحاج سعيد الطباطيبي ، ايران . .
(٢) فجر الاسلام ، أحمد أمين ، ص ٢٠٨ ط ٨ مصر سنة ١٩٦١ .

هذه الحالة ، نرى الرسول قد سمح لبعض الصحابة بكتابته ، وكان هذا الاذن أشبه بالاستثناء الذي خص به نفرا من أصحابه ، لأسباب وجيهة ، قدر أهميتها تبعا للظروف والأشخاص . وبدأ عليه السلام يسمح للبعض بتدوينه ، وقيل انه قال لعبدالله بن عمرو بن العاص : « اكتب عني فوالذي نفسي بيده ما خرج من فمي الا حق » [1] كما قال للوفود : « احفظوا أحاديثي وخبروا بها من وراءكم من العشائر » [2] ، ونعتقد أن هذا القول الذي نسب للرسول عليه السلام قيل عندما استقر له الأمر ، ونزل أكثر الوحي وحفظه الكثيرون ، وحينذاك زالت مشكلة الخوف على القرآن ، وأذن الرسول أذنا عاما وكان هذا في أخريات حياته » [3] . .

الصحابة وتعلم الحديث :

كان الصحابة يأخذون الحديث عن الرسول ، يسألونه ويفتي لهم في أمور دينيهم ودنياهم ، كما لم يكن عليه السلام ضنينا على أصحابه ، بل كان يكثر مجالسهم ، وكان يقيم لهم مجالس خاصة في منزله ، ثم المسجد فيما بعد ، بل أكثر من ذلك ، فقد كان يستفتى في الطريق ، فيفتي ويسأل في المناسبات ، فيجيب ، يبلغ الأحكام في كل فرصة تتاح له . وكان الصحابة يحرصون على حضور مجالس الرسول حرصا شديدا ، فيتناوبون مجالسه ، وفي هذا الشأن قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية ، وهو من عوالي المدينة ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوما ، وأنزل يوما فاذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره واذا نزل فعل مثل ذلك » [4] ..

(١) السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ، مصطفى السباعي ، ص ٦٤ .
(٢) تاريخ الأدب العربي العصر الاسلامي ، شوقي ضيف ص ٣٦ .
(٣) علوم الحديث ومصطلحه ، الدكتور صبحي الصالح ص ٢٠ .
(٤) ابو هريرة ، راوية الاسلام ص ٤٦ .

وقد يحدث أكثر من ذلك ، بل كان بعض الصحابة يلازمه بعض السنين ملازمة تامة . .

فهذا أبو هريرة الصحابي والمحدث المشهور ، صحب الرسول أربع سنوات في حله وترحاله ، وكان يدخل بيته ، ويحضر مجالسه ، ولم يفارقه الا حين بعثه الرسول مع العلاء بن الحضرمي الى البحرين ، وهكذا نما الحديث في في عهده عليه السلام ، وترعرع وأينع الثمار ، وبعد وفاته انتشر الصحابة في الأمصار الاسلامية ، يبلغون أحاديث الرسول ، وأشهر من روى عن رسول الله « أبو هريرة وعائشة — وعبدالله بن عمر بن الخطاب — وعبدالله بن عمرو بن العاص — وعبدالله بن عباس — وأنس بن مالك » [1] . وبعد الصحابة جاء التابعون يحكون ما سمعوه من الصحابة ومن هؤلاء التابعين [2] أبو الأسود الدؤلي الذي روى حديث رسول الله وغيره من الصحابة المخلصين ..

* * *

ثالثا : نشأة النحو العربي :

تمهيد :

قبل التحدث عن هذا الموضوع أحب أن أشير الى بعض الملاحظات الهامة التي صادفتها في أثناء قيامي بهذه الدراسة وأولى هذه الملاحظات هي :

١ — تحدثت الكتب [3] الأدبية والتاريخية واللغوية والنحوية عن نشأة

(١) تاريخ الأدب العربي العصر الاسلامي ، شوقي ضيف ص ٣٦ .
(٢) سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٣١ والمسند للامام أحمد ج ١ ص ٩١ ، وانظر تهذيب التهذيب ج ١٢ ص ١٢ والأغاني ج ١٢ ص ٣٠٠ .
(٣) نشير في هذا المجال الى بعض الكتب الهامة التي تناولت هذا الموضوع :
(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي .
(٢) مراتب النحويين لأبي الطيب الحلبي .

النحو العربي وأسبابه وتطوره ، ولكنها في الواقع لم تقف وقفة دراسية وافية مستفيضة ، بل معظمها أو بالأحرى جميعها اكتفت بإشارات مبهمة خالية من التفاصيل . .

والظاهرة الثانية : لم يكن علم النحو العربي موجودا قبل الاسلام ، ولم يكن معروفا لدى العرب ، لأنهم لم يحتاجوا الى ذلك كله ، حيث نطقوا بلغتهم صحيحة سليمة ، وعندما يشب الناشىء منهم ، تملأ العبارات الصحيحة سمعه ، ويطبع بها لسانه ، فتجود قريحته بالعبارات السليمة ، والتراكيب الصحيحة ، حيث كان يسمع والده ووالدته وقبيلته تفصح بأدق العبارات . فمن الطبيعي ، أن يستيقظ وينمو ويترعرع على أسلوب فصيح ، والدليل على ذلك الشعر الجاهلي وما جاء به من فصيح العبارات والتراكيب السليمة . .

والظاهرة الثالثة: أتحدث في هذا الباب عن سبب النشأة فقط ، ولا أتحدث عن الرجل الذي أنشأ النحو وقد خصصت لهذا الشأن بابا خاصا فلذلك ركزت دراستي لابراز السبب . .

(٣) رسالة السيوطي في التحفة البهية والطرفة الشهية .
(٤) الفهرست لابن النديم .
(٥) المزهر ج ١ – ٢ للسيوطي .
(٦) معجم الأدباء ياقوت الحموي ج ١٢ .
(٧) عيون الأخبار لابن قتيبة .
(٨) الكامل للمبرد .
(٩) الطبقات الكبرى لابن سعد .
(١٠) تاريخ ابن عساكر .
(١١) أنباة الرواة للقفطي .
(١٢) أسد الغابة لابن الأثير .
(١٣) سمط اللآلي للوزير البكري .
(١٤) سرح العيون لابن نباتة .
(١٥) نزهة الالباب للانباري .
(١٦) بغية الوعاة للسيوطي .
(١٧) طبقات النحويين للزبيدي .

١ – الأسباب التي أدت الى نشأة النحو العربي .

نحاول في هذه الدراسة أن نقف وقفة دقيقة حول الأسباب التي أدت الى نشأة هذا العلم الجليل ، وأول هذه الأسباب :

العامل الديني :

كان العامل الديني سببا مباشراً لنشأة النحو العربي ، لأن العرب قدروا صنيع القرآن لهم ، وفضله عليهم ، فاعتنوا به ، وحافظوا عليه ، وخاصة قراءته قراءة سليمة ، حتى تفهم معانيه فهما واضحا . ولكن عندما توسعت الدولة الاسلامية وانتشر الاسلام خارج الجزيرة العربية ، ودخل هذا الدين أفواج من الناس ، منهم الفارسي والرومي والهندي والقبطي وغير ذلك من أجناس متباينة ، خاف العرب على لغتهم من الضياع ، وفكروا في وضع علم النحـــو . .

واذا استعرضنا هذا الحدث من الناحية التاريخية ، وهي قراءة القرآن الكريم ، نجد الرسول عليه السلام اهتم بهذه المسألة ، « وهي قراءة القرآن قراءة صحيحة بعيدة عن اللحن والخطأ » ولكن خطورتها لم تكن واضحة المعالم في عصره ، لأنها كانت محصورة بين العرب وجزيرتهم التي لم تتعد مكة والمدينة في بدء الدعوة . وكان الرسول عليه السلام القارىء الأول للقرآن ، والمعلم الأول له ، حيث كان يتلوه على الصحابة الذين بدورهم ينشرونه بين الناس ، ولا شك أن القرآن نزل في بيئة عربية لها أصالتها اللغوية ، وعلى الرغم من هذه الأصالة ، كان هناك لحن في قراءة القرآن ، وقد شعر الرسول عليه السلام بهذه المشكلة ونهى عنه واعتبره ضربا من الضلال ، وقال صلى الله عليه وسلم لرجل لحن في حضرته : « ارشدوا أخاكم فقد ضل » ولا ندري هل اللحن الذي سمعـــه الرسول ، واعتبره ضلالا ، كان في قراءة القرآن أو غير ذلك ، ونرجح انه كان

في قراءة القرآن لأن الرسول عليه السلام اعتبره كفرا ولا يمكن للرسول أن يحكم مثل هذا الحكم لو كان خطأ عاديا . .

وروي عنه أنه قال [1] : « رحم الله امرءا أصلح من لسانه » ، معنى ذلك أن الرسول عليه السلام أشار الى هذه المشكلة الهامة ولاحظ خطورتها ..

ثم ننتقل بعد ذلك الى الصحابة ، حتى نجد الصديق رضي الله عنه يقول : « لأن أقرأ فأسقط أحب الى أن أقرأ فألحن » ولو وقفنا قليلا عند قول أبي بكر في هذا الشأن لأدركنا أهمية الضبط عند قراءة القرآن ، الذي يرى أن الاسقاط في القراءة أقل خطورة من اللحن . ثم يتابع الخلفاء نصحهم وارشادهم ، والتركيز على هذه المسألة ، ويأتي عمر بن الخطاب الذي ينهى بدوره عنه ، ويحث على تعلم القراءة وضبطها ، ويذكرها جنبا الى جنب مع تعليم القرآن والفرائض . ويقول في حديثه [2] : « تعلموا الفرائض والسنن واللحن كما تعلموا القرآن » .

وهكذا بدأت هذه الظاهرة تنمو وتزداد يوما بعد آخر ، ولكن المشكلة الزداد خطورة على الدين ، وخاصة عندما يسمع العلماء الخطأ واضحا في قراءة تقرآن ، وخاصة بعد الفتح الاسلامي ودخول الكثير من غير العرب في الدين أفواجا ، حتى يقوم عالم جليل كأبي الأسود الدؤلي ويبدأ بوضع علامات فوق آيات القرآن ليضع حلا لهذه المشكلة ، وفي هذا الشأن نورد بعض ما جاء في هذه الروايات حتى نتبين الحل الدقيق لها . .

قال السيوطي [3] : « وروي أنه قد قدم أعرابي في زمان عمر فقال : من يقرئني مما أنزل الله على محمد (ص) فأقرأه رجل براءة ، فقال : ان الله بريء

(١) الاضداد للانباري ص ٢٤٤ تحقيق محمد ابو الفضل الكويت ١٩٦٠ .
(٢) انظر الأمالي للقالي ص ٥ ، الحديث الثاني (والذي يذكر فيه كلمة النحو) ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد ج ٢ ص ٤٧٨ تحقيق أحمد أمين وآخرين على لسان عبد الملك بن مروان .
(٣) رسالة السيوطي من كتاب التحفة البهية والطرفة الشهية ، الرسالة الرابعة ص ٤٩ وما بعدها طبع في القسطنطينية سنة ١٣٢٠ هـ . .

من المشركين ورسوله بالجر ، فقال الاعرابي أو قد برىء الله من رسوله ؟ ان يكن الله قد برىء من رسوله فأنا أبرأ منه فبلغ عمر مقالة الاعرابي فدعاه . فقال : يا أعرابي أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، اني قدمت المدينة ، ولا علم لي بالقرآن ، فسألت من يقرئني ؟ فأقرأني هذه السورة براءة فقال : ان الله بريء من المشركين ورسوله . فقلت : أو قد برىء الله من رسوله ؟ ان يكن الله قد برىء من رسوله فأنا أبرأ منه فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابي ، قال : فكيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ان الله بريء من المشركين ورسولـُه فقال الاعرابي وأنا والله أبرأ مما برىء الله ورسوله منه . . فأمر عمر بن الخطاب أن لا يقرأ القرآن الا عالم باللغة وأمر [1] أبا الأسود فوضع النحو» .

ثم يتابع السيّوطي روايته ويقول « وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي النحوي في أماليه : حدثنا أبو جعفر محمد بن رستم الطبري حدثنا أبو حاتم السجستاني حدثني يعقوب بن اسحاق الحضرمي حدثنا سعيد بن سالم الباهلي حدثنا أبي عن جدي أبو الأسود عن أبيه رضي الله عنه قال : دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فرأيته مطرقا مفكرا فقلت : فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ فقال : اني سمعت في بلدكم هذا لحنا فأردت أن أضع كتابا في أصول العربية فقلت : ان فعلت هذا أحييتنا وأبقيت هذه الدنيا فينا » . فلم نعلم نوع اللحن الذي سمعه الامام علي ان كان في اللغة أم في الدين وجعله مفكرا مطرقا ومن الجائز أن يكون اللحن في قراءة القرآن لأنه هز الإمام ، وقول أبي الأسود يرجح هذا الظن لأنه اعتبر تصويب الامام لهذا الخطأ حياة وبقاء للمسلمين ويروون [2] : « في عهد زياد بن أبيه عندما كان واليا على البصرة ، يقال انه

(١) انظر رسالة السيوطي من كتاب التحفة البهية والطرفة الشهية ، الرسالة الرابعة ص ٤٩ ، ص ٥٣ طبع في قسطنطينية سنة ١٣٠٢ هـ وانظر الأغاني ج ١٢ ص ٢٩٩ ونزهة الالباب للانباري ص ١٣ وانباة الرواة ج ١ ص ٤ .
(٢) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١٢ والفهرست لابن النديم ص ٥٩ ، والالباب للانباري ص ٣ . .

أرسل في طلب أبي الأسود الدؤلي ، وقال له : اعمل شيئا تكون فيه اماما ينتفع الناس به وتعرب به كتاب الله : فاستعفاه من ذلك ، حتى سمع أبو الأسود قارئا يقرأ « ان الله بريء من المشركين ورسوله » ، « بالجر أي أنه عطف كلمة رسوله على المشركين » . فقال : ما ظننت أن أمر الناس صار الى هذا فرجع الى زياد فقال : (أنا) أفعل ما أمر به الأمير فليبغني كاتبا لقينا يفعل ما أقول . فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه ، فأتى بآخر فقال له أبو الأسود اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فـانقط نقطة فوقه على أعلاه ــ فاذا ضممت فمي فأنقط نقطة بين يدي الحرف فان كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف (فان اتبعت شيئا من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين) . .

وفي رواية أخرى ذكرها ابن النديم ، ويقول فيها : « ان أبا الأسود الدؤلي سمع قارئا يقرأ (لا يأكله الا الخاطئين) « فعمل النحو ، والقراءة الصحيحة لا يأكله الا الخاطئون » فالقارىء نصب الفاعل .

وهكذا نجد الروايات التي ذكرها القدماء تعلل نشأة النحو العربي وترجعها الى العامل الديني ، وخاصة قراءة القرآن ، ونجدها تختلف في النقل ، الا أنها تتفق أن أبا الأسود عندما سمع رجلا يقرأ آية من القرآن خطأ ، هاله الأمر ، وقام بهذا العمل الجميل ، ووضع علامات معينة ساعدت العلماء والمسلمين على قراءة القرآن . .

وكانت هذه البذور [1] الأولى لنشأة علم النحو ، الا أن المشكلة لم تنته بعد ، وبقي اللحن والشك منتشراً حتى بين العلماء أنفسهم ، » فقد روى محبوب البكري [2] عن خالد الحذاء قال : سألت نصر بن عاصم عن قراءة « قل هو الله أحد » كيف نقرؤها ؟ قال : قل هو الله أحد الله الصمد « لم ينون » قال :

(١) الفهرست ابن النديم ص ٥٩ وذكره الانباري في نزهة الالباب ص ٣ مع اختلاف في النقل يروى ان الامام سمع قارئا يقرأ « لا يأكله الا الخاطئين) . .

(٢) سأتحدث عن عمل الدؤلي تفصيلا في الفصل الثاني . .

فأخبرته أن عروة ينون ، فقال : بئسما قال : وهو للبئس أهل ، فأخبرني عبدالله بن أبي اسحاق بقول نصر بن عاصم ، فما زال يقرأ بها حتى مات » . والصحيح [1] أن قراءة عروة ليست خطأ فقراءة عامة الأمصار (أحدٌ) الله الصمد بتنوين **احدٌ** سوى نصر بن عاصم وعبدالله بن أبي اسحاق فانهما تركا التنوين والصواب كما يرى الطبري اذ يقول [2] : « الصواب عندنا : التنوين لمعنيين . أحدهما أفصح اللغتين وأشهر الكلامين وأجودهما عند العرب . والثاني : اجماع الحجة في قراءة الأمصار على اختيار التنوين فيه . ويقال : ان اعرابي سمع اماما يقرأ قوله تعالى [3] : « ولا تَنكحوا المشركين حتى يؤمنوا بفتح ت (تنكحوا) ، فقال الاعرابي : سبحان الله : هذا قبل الاسلام ، فكيف بعده والقراءة الصحيحة « ولا **تُنكحوا المشركين حتى** يؤمنوا » بضم التاء وقيل للحسن : ان اماما لنا يلحن قال [4] : أميطوه ، وهكذا نجد اللحن يستمر وينمو ، حتى نجد الحجاج بن يوسف الثقفي يقع في الخطأ عندما يقرأ القرآن . وخاصة عندما يسأل يحيى بن يعمر : « أتجدني ألحن ؛ قال : الأمير أفصح من ذاك ، قال عزمت عليك لتخبرني ، فقال يحيى : نعم في كتاب الله . قال ذاك أشنع له ، ففي أي شيء من كتاب الله ؟ قال قرأت : « قل ان كان آباؤكم واخوانكم وأزواجكم وأبناؤكم وعشيرتكم (وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله « فترفع » أحب « وهو منصوب قال : اذن لا تسمعني ألحن بعدها ، فنفاه الى خراسان [5] . ومضى اللحن كذلك يتفاقم ويستشري حتى غدا هما ثقيلا ، وخطبا جسيما ، فلم يكن بد من التعاون لاجتماع الجهود لدرئه واتقاء شره ، غيرة على ديننا الحنيف . .

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١٥ ، ص ١٦ وانظر عيون الاخبار لابن قتيبة ص ١٥٥ .

(٢) تفسير الطبري ج ٢٩ ، ٣٠ ص ٣٤٤ .

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ص ١٥٥ وانظر البيان والتبيين ج ٢ ص ٢١٣ .

(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٤٧٩ .

(٥) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١٧ ، ١٨ . .

ثانيا : العامل الاجتماعي

لم يكن العامل الديني وحده دافعا لنشأة النحو العربي بل يوجد دافع آخر وهو العامل الاجتماعي الذي لا يقل أهمية عن العامل الديني . .

واذا بحثنا في هذا الموضوع واستعرضنا تاريخ نشأة النحو العربي ، نراه نشأ في الأمصار ، وفي العراق بالذات . وقبل أن نستعرض المشاكل الاجتماعية التي دفعت العلماء الى ايجاد النحو ، نحب أن نستعرض الوضع الاجتماعي في البصرة بوجه خاص والعالم العربي الاسلامي بوجه عام ، حتى نضيء الطريق لما نبغيه . .

يتفق الباحثون على العراق مكانا لنشأة النحو ، وهو الجزء الجنوبي من وادي دجلة والفرات حيث خصب أرضه واعتدال مناخه . وكان من أسبق الأقاليم مدنية وحضارة ، وتعاقبت عليه الأمم المتحضرة من نحو ثلاثين قرنا قبل الميلاد . فالبابليون والآشوريون والكلدانيون والفرس واليونان أنشأوا في العراق ممالك . وكانت مدينتهم منارا يلقي أشعته على ما حوله من البلدان ، وقديما عرفه العرب ، فنزلت فيه قبائل عربية كونوا فيه امارة المناذرة . وأشهر مدن العراق اذ ذاك الكوفة والبصرة حتى اذا قيل : « العراق » فمعناه البصرة والكوفة وخاصة في عهد بني أمية [1] ، وينسب المؤرخون بناء البصرة الى عتبة بن غزوان سنة ١٤ هـ . ويقول الطبري [2] : « أمر عمر بن الخطاب رحمه الله فيما زعم الواقدي الناس بالقيام بالمساجد في شهر رمضان بالمدينة . وكتب الى الأمصار ، يأمر المسلمين بذلك . وفي هذه السنة أعني سنة أربعة عشرة وجه عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان الى البصرة، وأمره بنزولها بمن معه . وقطع مادة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها » ثم يذكر الطبري خبرا آخر اذ قال : « فأقبل عتبة بثلثمائة وبضعة عشر رجلا وضوى اليه قوم من الأعراب وأهل البوادي ،

(١) فجر الاسلام ص ١٧٩ الطبعة الثانية .

(٢) تاريخ الامم والملوك الطبري ج ٣ ص ٨٩ .

وأصبحوا خمسمائة يزيدون قليلا فنزلها في شهر ربيع الأول الآخر سنة ١٤ هـ ».

ويقال ان عتبة استعمل عليها [1] : « قال ان عمر قال لعتبة بن غزوان اذ وجهه الى البصرة : يا عتبة اني قد استعملتك على أرض الهند ، وهي حومة من حومة العدو ، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها ، وأن يعينك عليها ، وقد كتبت الى العلاء بن الحضرمي أن يمدك بعرفجة بن هرثمة وهو ذو مجاهدة للعدو ومكايدة، فاذا قدم عليك فاستشره ، وقربه ، وادع الى الله ، فمن أجابك ، فاقبل منه . ومن أبى فالجزية عن صغار وذلة ، والا فالسيف في غير هوادة واتق الله فيما وليت ، واياك أن تنازعك نفسك الى كبر يفسد عليك أخوتك » هذا عن بناء البصرة ، ثم جاءت اليها القبائل من كل حدَبٍ وصوب وخاصة بعد الفتح الاسلامي . وبلغ عدد القبائل التي نزلت البصرة مئتين وتسعين قبيلة [2] . ومن البديهي أن تكون الحياة في البصرة قبلية ، ويتكلم الدكتور صالح العلي عن البصرة ويقول بعد مقارنة وعرض لأهل الكوفة : « أما سكان البصرة فأغلبهم من القبائل العربية التي كانت تقيم في شرقي الجزيرة وخاصة في منطقة الخليج العربي ، وكانوا في البداية قليلي العدد لا يزيدون عن الثمانمائة مقاتل [3] غير أن عددهم تزايد بسرعة فائقة وأخذت تدر عليهم أرباحاً كبيرة . ثم ان البصرة كانت تقع على عدة طرق تجارية مهمة ولذلك سرعان ما أصبحت مركزا لحياة اقتصادية نشطة واسعة ، وهذا ساعدها على الاحتفاظ بأهميتها في العالم الاسلامي حتى بعد انشاء واسط وبغداد . وقد أثرت عليهما كما كانت البصرة مركزا للزهد والاعتزال في صدر العصر الاسلامي ، ولم تبق البصرة هكذا بل تطورت

(١) المرجع السابق ص ٩٢ .

(٢) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة ، صالح أحمد العلي ص ٨ – ٦ – ٧ بتصرف

(٣) الطبري يذكر انهم ٣٠٠ انظر الطبري ج ٣ ص ٩٦ وابن سعد ٨٠٠ انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ٥ . يختلف الطبري وابن سعد في عدد النازلين الأوائل بالبصرة فابن سعد يرى انهم ٨٠٠ مقاتل مع بعض النساء والطبري يذكر انهم ٣٠٠ مقاتل . انظر : تاريخ الامم والملوك الطبري ج ٣ ص ٩٦ الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ٥ . .

تدريجيا وتعرضت في سيرها الى عدة تغيرات ، وكان نصف السكان من الموالي » .. معنى هذا أن الناطقين بالضاد في البصرة نصف السكان ومن الطبيعي لم يكن هذا النصف متعلما بالاضافة الى أن جزيرة العرب أصبحت مرتادا للأعاجم فحاضرة الاسلام في عهد الخلفاء الراشدين هي المدينة ومقصد المسلمين كلهم في الحج [1] مكة . فكأن الناس من الأعاجم يأتون أفواجا للحج أحيانا ولقضاء مصالحهم في حاضرة الخلافة أحيانا . وعرب الجزيرة بحكم الفتح قد ملكوا رقيقا كثيرا سكنوا مع سادتهم في الحجاز وغيره ، فاختلط العجم بالعرب في البيوت وفي الأسواق وفي المناسك وفي المساجد، فتطرق من ذلك الخلل في لسان العرب ، وكانوا يتكلمون العربية عن سليقة ، فأخذ الفساد يدب في تلك السليقة، وظهر اللحن وكذلك كان حال العرب في الأمصار الأخرى ، خالط عرب مصر القبط ، وعرب الشام الشاميين وعرب العراق الفرس والنبط وهكذا فدب اللحن اليهم أيضا وكان مما ساعد على هذا اللحن أن اللغة العربية لغة مُعْرِبة. وبناء على هذا العرض التاريخي الذي قدمناه بخصوص العامل الاجتماعي والخاص بطبيعة النشأة. نلاحظ أن اللحن انتشر في داخل جزيرة العرب وخارجها بوجه عام وفي البصرة بوجه خاص لأن نصف السكان كانوا من الداخلين الجدد [2] في الاسلام ، ولا يجيدون العربية ، ونتيجة هذا الاختلاط الاجتماعي ، نشأ اللحن ، واستفحل ، وأصبح خطرا يهدد اللغة بالضياع حتى دخل بيوت العلماء والخلفاء . .

ولنستعرض بعض الروايات التي تقرن نشأة النحو بالعامل الاجتماعي ..

روى محمد بن عمران بن زياد الضبي قال [3] : « روى يحيى بن آدم ، عن

(١) ضحى الاسلام ، أحمد أمين ص ٢٥١ ، ص ٢٥٢ ج ٢ ط ٣ . .

(٢) عدد سكان البصرة زمن الامام علي ٦٠ الفا من المحاربين وزمن عبدالله بن زياد بلغ عددهم ٩٠ ألفا وعياهم ١٤٠ ألفا ولما كان هذا عدد العرب اذن كان مثلهم من الموالي . انظر التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة صالح العلي ص ٣١ ، ٣٧ .

(٣) أخبار النحويين البصريين للسيرافي . انظر ص ١٢ – ١٣ – ١٤ .

أبي بكر بن عياش ، عن عاصم قال : « أول من وضع العربية أبو الأسود الديلي جاء الى زياد بالبصرة فقال : اني أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيرت ألسنتهم أفتأذن لي أن أضع للعرب كلاما يعرفون أو يقيمون به كلامهم؟ قال : لا ، قال ، فجاء رجل الى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، توفي أبانا وترك بنونا فقال زياد : توفي أبانا وترك بنونا . ادع لي أبا الأسود ، فقال : ضع للناس الذي نهيتك أن تضع لهم » . .

ويقال [1] أن السبب في ذلك أنه مر بأبي الأسود سعد ، وكان رجلا فارسيا من أهل بوزنجان كان قد قدم البصرة مع جماعة من أهله ، فدنوا من قدامة بن مظعون الجمحي فادعوا أنهم أسلموا على يديه ، وانهم بذاك (من) مواليه فمر سعد هذا بأبي الأسود وهو يقود فرسه قال : مالك يا سعد لا تركب ؟ قال : ان فرسي ضالع ، فضحك به بعض من حضره قال أبو الأسود : هؤلاء الموالي قد رغبوا في الاسلام ودخلوا فيه ، فصاروا لنا أخوة فلو علمناهم الكلام فوضع باب الفاعل والمفعول (ولم يزد عليه) » وذكر « أن أبا الأسود الدؤلي دخل على ابنته بالبصرة فقالت له : « يا أبة ما أشدُ الحرِ (رفعت « أشد » وجرت «الحر ») فظنها تسأله تستفهم منه أي أزمان الحر أشد ؟ فقال لها أشهر ناجر فقالت له يا ابة أنا أخبرتك ولم أسألك . فقال : أنا لله . فسدت ألسنة أولادنا » والأخطاء التي ذكرها الرواة في هذا الشأن والتي تتعلق بطبيعة النشأة نجدها تتركز في الاعراب . .

فالخطأ في هذا القول واضح « مات أبانا وترك بنون » فالصواب: الفاعل

(١) قدامة بن مظعون الجمحي من الصحابة وولاه عمر بن الخطاب البحرين ثم عزله . ظالع : العرج أي أن الفرس عرجاء . انظر لسان العرب مادة ظلع ويقال : ليس للضاد والظاء باب لأن هذين الحرفين لم ينطق بهما أحد سوى العرب . انظر باب الظاء في كتاب المعرب من الكلام الاعجمي لأبي منصور موهوب الجواليقي ص ١٠٠ ، ط – ليبيا ١٨٩٧ . .

«أبونا» مرفوع بالواو لأنه من الأسماء الستة « وبنين » منصوب بالياء لأنه ملحق لجمع المذكر السالم الذي يرفع بالواو ويجر بالياء » . .

والرواية التي تقول أن أبا الأسود قابل سعدا الايراني ، تتحدث عن خطأ يقع فيه الفرس حتى يومنا هذا اذ لا يستطيعون لفظ الظاء كما نلاحظ ذلك في تعاملهم في منطقة الخليج العربي . .

وهناك أسباب اجتماعية أخرى دعت الناس لتعلم العربية والنحو بالذات فالداخل الجديد في المجتمع العربي ، لا بد أن يفهم العربية ، حتى يستطيع العيش في هذا المجتمع الجديد . وهذا القول يؤكد ما أشير اليه ، وهو قول ابن شبرمه : « اذا سرك أن تعظم في عين من كنت في عينه صغيرا ويصغر من كان في عينك عظيما فتعلم العربية فانها تجريك على المنطق وتدنيك من السلطان » [1] بالاضافة الى هذا وصلت الدرجة الى حد العقاب للاحن في اللغة العربية ، حيث يروى أن كاتبا كان يعمل عند أبي موسى الأشعري ، وكتب رسالة الى عمر بن الخطاب ، وأخطأ هذا الكاتب في رسالته لأنه قال : من أبو موسى » [2] بدلا من أن يقول « من أبي موسى » فما كان من عمر رضي الله عنه الا أنه غضب لهذا الخطأ ، وأرسل يقول لأبي موسى : « سلام عليك أما بعد ، فاضرب كاتبك سوطا وأخر عطاءه سنة » ، ورووا أن ابن عمر كان يضرب بنيه على اللحن ، ولكن المشكلة لم تقف عند هذا الحد ، بل تعدته ، وأصبحت هما ثقيلا لا يطاق ، حتى نجد بعض الأشخاص يأمر والدته بأن لا تتكلم عندما يكون عندهم ضيوف أو رجال خوفا أن تلحن أمامهم . وهذه الرواية تؤكد ما نقول : « كانت أم نوح وبلال بن جرير أعجمية ، فقالا لها : لا تتكلمي اذا كان عندنا رجال فقالت يوما : [3] : يا نوح جرذان دخل في عجان أمك « وكان الجرد أكل

(١) عيون الأخبار ابن قتيبة ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) مراتب النحويين لابي الطيب الحلبي ، ص ٥ وانظر تاريخ اداب العرب للرافعي ج ١ ص ٣٤٣ ط٢ ، وانظر ضحى الاسلام ج١ ص ٢٥٢ وقيل (من ابو موسى) أول لحن وقع في الكتابة) . .

(٣) البيان والتبين ، الجاحظ ج ٢ ص ٢١٣ تحقيق عبد السلام هارون .

من عجينها » . كما اعتبر الحجاج اللحن عيبا بل عارا على الشرفاء وهذه رواية تشير الى ذلك اذ حدث أن تكلمت هند بنت أسماء بن خارجة فلحنت وهي عنده . فقال لها : [1] « أتلحنين وأنت شريفة ؟ . قالت : أما سمعت قول أخي مالك لامرأته الانصارية ؟ قال : وما هو ؟ قالت : قال :

منطق صائب وتلحن أحيا... ناً وخير الحديث ما كان لحناً [2]

فقال لها الحجاج : انما عني أخوك اللحن في القول ، اذا كنى المحدث عما يريد ، ولم يعن اللحن في العربية ، فاصلحي لسانك . .

ولكن المشكلة تزداد ، وتنمو نموا سريعا حتى أصبح اللحن خوفا وفزعا . .

وهكذا نرى ان نظرة المجتمع الى المخطىء في النحو نظرة احتقار ، اذ نراهم يصفونه أوصافا دنيئة . قال سلمة بن عبد الملك :

اللحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه [3] . .

ونتيجة لهذه العوامل الاجتماعية المتشابكة ، ظهرت طائفة من العلماء المتأخرين عن أبي الأسود ، وقاموا بدراسات واسعة حول هذا الموضوع أمثال سيبويه الذي طلب النحو نتيجة لوقوعه في اللحن ، ثم نما النحو وازدهر حتى غدا علما يفتخر به وقد مدحت العرب هذا العلم وحامله واعتبرته من أجل علومها ، وأذكر في هذا المجال ما قاله الدكتور شوقي ضيف أستاذ الأدب العربي في جامعة القاهرة ، أثناء محاضراته عن النحو اذ قال : « يكفي العرب فخرا بأن لهم علما كالنحو » . وقال القائل :

(١) امالي المرتضى للشريف المرتضى تحقيق محمد أبو الفضل ج ١ ص ١١ ، طبعة أولى الحلبي مصر ١٩٥٤ م .

(٢) ذكر هذا البيت ابن عبد ربه في العقد الفريد ج ٢ ص ٤٨٠ وهو من شعر مالك بن اسماء بن خارجة الفزاري . .

(٣) عيون الاخبار ابن قتيبة ص ١٥٧ ، ص ١٥٥ وما بعدها مجلد ٢ .

النحوُ يَبْسِطُ من لسانِ الألكَنِ[1] والمرءُ تُكرِمُهُ إذا لم يَلْحَنِ
وإذا طلبتَ من العلومِ أجلَّهـــا فأجلُّها منها مقيمُ الألسُنِ

ويقال : « النحو في العلم بمنزلة الملح في القدر والرامك في الطيب » [2] ، ونجد بعض المحدثين يصفه قائلا [3] « ان منزلة النحو من العلوم اللسانية منزلة الدستور من القوانين الحديثة هو أصلها الذي تستمد عونه ، وتستلهم روحه ، وترجع اليه في جليل مسائلها وفروع تشريعها ، فلن نجد علما من تلك العلوم يستقل بنفسه عن النحو أو يستغني عن معرفته ، أو يسترشد بغير نوره وهداه» ..

ثالثا : العامل القومي

أحاول في هذا الباب أن أبين العامل القومي ، اذ كان دافعا ثالثا لنشأة النحو العربي ، وان كان هذا العامل أقلها تأثيرا . .

فقد أشار اليه بعض المحدثين اشارة سريعة ، لم تتعد ذكر كلمة (قومي) أو كتابة سطر عنه . هـذا الدكتور شوقي ضيف يقول في هذا الصدد [4] : « وانضمت الى ذلك (ويقصد عوامل نشأة النحو) بواعث أخرى ، بعضها قومي عربي يرجع الى أن العرب يعتزون بلغتهم اعتزازا شديدا » . وهـذا الدكتور علي النجدي ناصف يقول [5] : « لقد كان النحو أسبق العلوم الاسلامية درسا وكان الحافز عليه دينيا وقوميا » . .

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٤٧٩ ، ص ٤٨٠ تحقيق أحمد أمين وآخرين القاهرة مطبعة لجنة التأليف سنة ١٩٥٦ م .
(٢) « دهان أسود اللون يخلط بالمسك » .
(٣) اللغة والنحو ، عباس حسن ص ٦٠ ط ١ دار المعارف سنة ١٩٦٠ .
(٤) المدارس النحوية ، شوقي ضيف ص ١٢ .
(٥) سيبويه امام النحاة ، علي النجدي ناصف ص ١٣٢ .

وقد حاولنا في هذا البحث تتبع هذا العامل وابرازه مع شيء من التفصيل ، اذ وجدنا أنه يرتكز الى عدة عوامل مجتمعة لتكوينه وتكاد تكون أساسية ..

أولا : دافع عربي ، وهو دافع طبيعي ، غريزي أصيل عند أي جماعة . إن الله سبحانه وتعالى أكرم الأمة العربية باختياره رسولنا محمداً العربي منها ، وأكرم هذه الأمة باختياره لغة العرب للقرآن لتكون الرسالة الأخيرة الكاملة للعالم كافة ، وعلى هذا الأساس نجد اللغة العربية أخذت مكانا بارزا بين اللغات ، ورفعت أمتها الى المكانة اللائقة بها ، وخاطب الله محمداً قائلا له ولأمته : « كنتم خيرَ أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » . وقوله تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » . وعلى هذا الأساس ، نظر العرب الى أنفسهم نظرة اعجاب وتقدير . ويجب أن يكونوا كما أراد الله لهم ، وكما وضعهم في مكانة تسمو بالعظمة والمنزلة الرفيعة . ومن الطبيعي أن يعتز العرب بلغتهم ، وكل ما هو عربي وبالأحرى في عصر كصدر الاسلام ، الذي فيه مجتمع خليط من الأجناس . وقد سبق أن اعتز العرب في جاهليتهم بعلم الأنساب ، واعتبروه مفخرة لهم ، حتى دونوا كتبا كثيرة تبحث هذا الموضوع . .

ثانيا : بناء البصرة كان دافعا قوميا . وقد ذكرنا مدينة البصرة لأنها المدينة التي نشأ فيها النحو العربي . واذا نظرنا الى الروايات التاريخية التي تحدثت عن نشأة البصرة ، نجدها تذكر أن السبب في بنائها يرجع الى ناحية قومية ، واذا وقفنا قليلا مع ما ذكره الطبري نصل الى هذه الحقيقة وهي أن البصرة بنيت بدافع قومي ، وباعتزاز عربي أصيل ، ولا شك أن سكانها وعلماءها ممن نزلوها كانوا يعرفون ذلك حق معرفة ويقول الطبري[1] : « قال عمر بن الخطاب لعتبة بن غزوان : « قد فتح الله جل وعز على اخوانكم الحيرة وما حولها وقتل عظيم من عظمائها ، ولست آمن أن يمدهم اخوانهم من أهل فارس ، فاني أريد أن أوجهك الى أرض الهند ، لتمنع أهل تلك الجزيرة من امداد اخوانهم على اخوانكم » . .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ج ٣ ص ٦٠ . .

وهذا ابن سعد يعزو بناءها الى العامل القومي ، فيقول [1] : « وجاء كتاب عمر بن الخطاب الى عتبة بن غزوان أن ينزلها بالمسلمين فيكونوا بها ، وليغزوا عدوهم من قريب » . .

ثالثا : سكان البصرة.نزل البصرة — كما يروي المؤرخون مئتان وتسعون قبيلة [2] عربية وكانت هذه القبائل متمسكة بنظامها العربي . .

ويصف الأستاذ أحمد أمين هذه القبائل بقوله [3] : « كان للقبائل العربية النازلة بالبصرة والكوفة رؤساء ، وكانوا أشبه برؤساء القبائل في الجاهلية في السيادة على قبائلهم والتفاف الناس حولهم والخضوع لاشارتهم في السلم والحرب ووقوف الشعراء ببابهم ، يتغنون بمدحهم ، وينشدون مفاخرهم كالأحنف بن قيس سيد تميم البصرة ، والحكم بن المنذر بن الجارود سيد عبد القيس البصرة ، ومالك بن مسمع سيد بكر البصرة ، وقتيبة بن مسلم سيد قيس البصرة والأحنف رجل مشهور اذا غضب غضب لغضبته مائة ألف سيد لا يدرون فيما غضب . ولما مات حزن العرب ، وكان مثلا في علو النفس والاحتفاظ بالكرامة والمروءة . .

وبالاضافة الى هذه القبائل كان يعيش مع العرب طبقة من الموالي وكانوا كثيرين في المدن الاسلامية كثرة ظاهرة ، اذ كانوا يبلغون في الكوفة والبصرة نحو نصف السكان . وكثير من هؤلاء الموالي كانوا من أسرى العرب في الحروب ، وكانوا يعملون في الزراعة والصناعة والحرف والمهن المختلفة . كما استوطن بها عدد من القوات الساسانية ، وعقدوا اتفاقية مع أبي موسى ليحاربوا مع العرب ، [4] ، وكان عددهم حوالي ٢٥٠٠ رجل . كما سكنها قوم يقال لهم

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد مج ٧ ص ٥ .
(٢) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة ، صالح العلي ص ٤٣ .
(٣) فجر الاسلام أحمد أمين ص ١٨٦.
(٤) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة ، صالح العلي ص ٦٨ .

السيابجة والزط وهما قوتان فارسيتان . كما جاء عبيدالله بن زياد بألفين من الأتراك الذين أسرهم في حملاته في أواسط آسيا . بالاضافة الى عدد من الأحباش يقال انهم سكنوا البصرة منذ عهد عمر بن الخطاب [1] ، وقيل أنه قد أتيح لهم « أي لكل طائفة نزلت بالبصرة خلال القرن الأول « أن يشكلوا ما شاءوا من تنظيمات دون تدخل الدولة تدخلا فعالا [2] ، فهل يقف العرب مكتوفي الأيدي أمام هؤلاء الجدد وبالأحرى أمام ثقافاتهم ولغتهم والعرب أصحاب البلاد الشرعيين وحكامها ؟ .

والحق أن العرب انتصروا في هذا المجال ونعني اللغة ، ويصف الأستاذ أحمد أمين نتيجة الصراع ويقول [3] : « كان نتيجة هذا الصراع هزيمة العرب وغلبة الموالي ، ولكن يجب أن نقرر أن هزيمتهم التامة كانت من الناحية السياسية والادارية ، فأما دينيا ولغويا فقد انتصر العرب » . .

أجل قد انتصر العرب في هذا المجال ، فقد خاف العرب على ضياع هذه اللغة واندثارها في هذا الخضم المتباين من اللغات ، فقام أبو الأسود الدؤلي بدافع الغيرة على اللغة . عندما ذهب الى زياد وقال له : « اني أرى العرب [4] قد خالطت الأعاجم وتغيرت ألسنتهم ، أفتأذن لي أن أضع للعرب كلاما يعرفون أو يقيمون به كلامهم » . .

ففي هذه الرواية عامل قومي بالاضافة الى العامل الاجتماعي . فالعامل القومي خوف الدؤلي على اللغة كما تحدث الدؤلي نفسه وغيرته على اللغة . ثم الرواية الأخرى التي ذكرت أن ابنته أخطأت عندما أرادت التعجب من السماء [5]

(١) المصدر السابق ص ٦٨ ، ص ٧٠ ، ص ٧٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٧٧ .
(٣) ضحى الاسلام ج ١ ص ٤٨ .
(٤) أخبار النحويين البصريين السيرافي ص ٣ وانباة الرواة ج ١ ص ١٦ .
(٥) المصدر السابق ص ١٤ . وانظر سرح العيون لابن نباتة ص ٢٧٧ ونزهة الالباء للانباري ص ١٦ .

تعود الى دافع قومي ، وعلى هذا الأساس ، نهض العلماء بعد أبي الأسود ، وتبحروا في هذا العلم ، وقدموا دراسات مستفيضة . ويرجع ذلك الى اعتزاز العرب بلغتهم من جهة ، ومن جهة أخرى ليقف العرب باحياء لغتهم أمام هذه الأفواج الهائلة من الأجناس المتباينة ، ونرى صورا كثيرة لهذا الاعتزاز في كتب السير والمغازي والآثار العربية . .

ونرى الثعالبي يقول في فاتحة فقه اللغة العربية : « من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا ﷺ ومن أحب الرسول العربي أحب العرب ومن أحب العرب أحب العربية ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها وصرف همته اليها ، ومن هداه الله للاسلام وشرح صدره للايمان وأتاه حسن سريرة فيه — اعتقد أن محمدا ﷺ — خير الرسل والعرب خير الأمم والعربية خير اللغات والألسنة ، والاقبال على تفهمها من الديانة اذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين وسبب اصلاح المحاشر والمعاد ، ولو لم يكن بالاحاطة بخصائصها والوقوف على مجاريها ومصارفها والتبحر في جلائلها ودقائقها الا قوة اليقين في معرفة اعجاز القرآن ، وزيادة البصيرة في اثبات النبوة التي هي عمدة الايمان لكفى بها فضلا يحسن فيها أثره ويطيب في الدارين ثمره [1] . .

وهكذا نرى العامل القومي يبرز الى حيز الوجود ويرفع العربي لغته معتزا بها ومفتخرا كما أشاد بها كثير من العلماء المحدثين ، غير أنني أحب أن أشير الى بعضها على سبيل الاستشهاد : فهـذا الدكتور طه حسين الذي اعتبرها لغة عالمية يقول : « اللغات العالمية كانت ثلاث لغات فقط : اليونانية واللاتينية ثم العربية بعد الفتح الإسلامي » [2] . .

* * *

(١) فقه اللغة وسر العربية للثعالبي مقدمة ص ١ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ط ٢ سنة ١٩٥٤ م . .
(٢) طه حسين مقال ادبي في آخر ساعة عدد ١٦٢٢ في ١٤ / ١١ / ٦٧ .

رابعا : العامل السياسي

ونحب أن نضيف الى أقوالنا عاملا آخر ، واطلقنا عليه عاملا سياسيا ، ونعني به انتقال السلطة الى الامويين بعد أن دانت لهم البلاد بالولاء . وقد أضفنا هذا العامل لان النحو (تشكيل القرآن) حدث في عصر الامويين ، عندما كان زياد بن ابيه عاملا لمعاوية على البصرة . .

مع استلام الامويين الحكم ، طرأت تغيرات جذرية في سياسة الدولة الإسلامية ، وبخاصة التعصب للعرب ، وما هو عربي . حتى اقتضى النظام الجديد الذي مثله معاوية أن يكون الخليفة ذا مرونة لا يتقيد بالتقاليد الماضية تقليدا تاما ، بل يأخذ من تلك التقاليد ما يناسب العصر الذي وجد فيه ويترك ما عداها . [1] والذي يهمنا في هذا الموضوع ، التعصب العربي ، الذي وجد في عهده وخير ما يصور هذه الفترة ما ذكره الأستاذ أحمد أمين [2] . « فالحق أن الحكم الأموي لم يكن حكما اسلاميا سوى بين الناس . ويكافأ فيه من أحسن عربيا كان أو مولى ، ويعاقب فيه من أجرم عربيا كان أومولى ، ولم يكن فيه الحكام خدمة للرعية على حساب غيرهم . كانت تسود العرب فيه النزعة الجاهلية لا النزعة الإسلامية ، فكان الحق والباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل ، فالعمل حق اذا صدر عن عربي من قبيلة . وهو باطل اذا صدر عن مولى أو عربي من قبيلة أخرى » . .

والخلاصة التي نصل اليها في هذا البحث :

ان النحو العربي ، نشأ نتيجة لأربعة عوامل متباينة السبب ، متحدة الهدف. وهو حياطة اللغة العربية ، والمحافظة عليها ، لأنها لغة العرب والإسلام . وقد قام علماء النحو وخاصة المتأخرين منهم ، بدراسات واسعة حول هذا الموضوع ،

(١) النظم الاسلامية ، ابراهيم حسن ص ٣٦ ط ٣ مصر سنة ١٩٦٢ .
(٢) ضحى الاسلام ، أحمد أمين ج ١ ص ٢٧ ط ٦ سنة ١٩٦١ .

حتى توقفت الدراسات النحوية بعدهم ، لانهم لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة الا وذكروا اسبابها وعللها. حتى نجد آخر الطبقات لهذه الدراسات تنتهي على يد الرماني وابن جني والربعي [1] بعام (٤٢٠ هـ) ثم قامت دراسات حديثة اعتمدت أساسا على التراث القديم للنحو العربي ..

أصل النحو

السؤال الذي يتردد بين المحققين من علماء اللغات والذي يثير جدلا بين طائفة المثقفين والمهتمين بالشئون النحوية هو :

أأخذ العرب نحوهم من السريانية أم اليونانية أم هو عربي الأصل ؟ ..

في الواقع احتار العلماء في هذا الموضوع ، اذ وقف بعضهم موقف الحائر المتردد ، ووقف آخرون موقف الحذر المتشكك ، ومر بعضهم في سرعة لا تحتمل المناقشة، ووقف آخرون يبحثون ويناقشون . ولم تكن هذه الخلافات عند علماء العرب فحسب . بل عند علماء أوربا أيضا وخاصة الذين درسوا تراثنا العربي وتاريخه . ويصور جزءا من هذا الخلاف ما نقله الاستاذ أحمد أمين عن المستشرق لتمان [2] « اختلف العلماء الاوربيون في أصل هذا العلم « ويعني النحو العربي» فمنهم من قال انه نقل من اليونان الى بلاد العرب وقال آخرون ليس كذلك، وإنما كما نبتت الشجرة في أرضها كذلك نبت علم النحو عند العرب » ، وقبل الخوض في هذا الموضوع أحب أن أقسم الآراء التي قيلت في هذا الشأن الى ثلاثة آراء متباينة ..

---

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٩ .

(٢) ضحى الاسلام ج ٢ أحمد مين ص ٢٩٢ ط ٦ / ١٩٦١ مصر . وتاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ج ٢ ص ١٢٣ .

الرأي الأول : السريانية :

يعتقد أصحاب هذا الرأي أن النحو العربي أخذ عن اللغة السريانية .والطبيعي اذا نقل شعب شيئا من شعب آخر وخاصة اذا كان هذا النقل يخص اللغة فلابد أن يكون بين هذين الشعبين اتصال ما ، حتى تتم عملية النقل والتأثر . — وإذا بحثنا العلاقة بين العرب والسريان نجدها كما تحدثنا عنها المراجع التاريخية علاقة وثيقة طيبة ، والذي يهمنا في هذا الموضوع هو الاتصال اللغوي ..

اتصل العرب بالسريانية منذ الجاهلية ، وقوي هذا الاتصال بعد الفتح الإسلامي . اذ كانوا يقطنون في حوض دجلة الاعلى ، وفي الجنوب ، حول الحيرة وفي الحيرة نفسها [1] وكانت ديانتهم المسيحية ، وقد تأثر عرب الحيرة بالسريانية وعرف كثير منهم اللسان السرياني ..

كما نجد الرسول محمدا يحث على تعلم السريانية اذ يروى في حديث ، عن زيد بن ثابت عن النبي عليه السلام [2] قال : « قال لي النبي « ﷺ » : إني أكتب الى قوم فأخاف أن يزيد وا علي أو ينقصوا فتعلم السريانية ، فتعلمها في سبعة عشريوما » ..

واذا وقفنا قليلا مع حديث الرسول وحكاية زيد بن ثابت ، نصل الى حقيقة هامة وهي أن اللغة السريانية كانت فعلا منتشرة في المدن الإسلامية ، هذا من جهة ومن أخرى ، أن اللغة السريانية سهلة الحفظ والتعليم ، حيث نرى زيد بن ثابت يتعلمها في مدة قصيرة ويتحدث الاستاذ أحمد أمين عن هذه العلاقة بعد الفتح الإسلامي ويقول [3] : « ولما فتح المسلمون هذه البلاد في القرن السابع الميلادي ، أسلم بعض السريانيين ، وظل بعضهم محافظا على دينه

---

(١) تاريخ اللغات السامية اسرائيل لفنستون ص ١٤٥ والتطور والتجديد شوقي ضيف ص ٤٠ .

(٢) فجر الاسلام ، أحمد أمين ص ١٤٢ .

(٣) فجر الاسلام ، أحمد أمين ص ١٣٢ .

يدفع الجزية ، ولكن الاداب السريانية على الجملة أخذت في الضعف ، ومع ذلك فقد نبغ كثير منهم في العصر الاموي والعباسي وظلت المدارس السريانية مفتوحة في عهد الدولة الاموية كما كانت . ولم يكن الخلفاء والامراء يتدخلون في شئونهم الا عندما يحتدم النزاع الديني ، فيلجأ بعضهم الى الولاة يستنصرهم»..

ونستخلص من هذه الآراء ان اللغة السريانية انتشرت في الدولة الإسلامية في حدود ضيقة ، وخاصة في العراق وما جاورها من المدن القريبة منها . اما عن طريق المدارس التي بقيت مفتوحة بعد الفتح واما عن طريق السريانيين الذين دخلوا الإسلام . وبقي لنا أن نعرف حقيقة هامة تجلو لنا ما نريد ، وهي معرفة اللغة السريانية ، وخاصة قواعدها . وأحب أن أعترف بأنني لا علم لي باللغة السريانية ولا بقواعدها وانما اعتمدت في هذا البحث على ما ذكره المحدثون في هذا الشأن ، اذ يقولون : « كان السريان يجيدون هذه اللغة ويحكونها تكلما وكتابة بحكم الفطرة والعادة [1] . فلا يحتاجون الى ضوابط تهديهم الى الفصيح وقواعد تعصمهم من الخطأ ، وظلوا على هذا الحال زمنا مديدا حتى تم اتصالهم الوثيق باليونان . ووقفوا على لغتهم اذ اقتبسوا من هذه اللغة أصول النحو ويقال : « أنهم أسسوا علم النحو في لغتهم على غرار النحو اليوناني [2] واتخذوا من الصوائت اليونانية حركات يستعملونها في كتاباتهم » : ونستنتج من هذه الأقوال أن السريان كان لهم نحو وحركات توضع فوق الحروف تساعدهم على القراءة الصحيحة ..

وبعد هذا العرض للسريانية ونحوها لنا أن نتساءل : كيف أخذ العرب عن النحو السرياني وما نوع النحو الذي أخذوه ؟ هل هو التقسيم الكلامي للنحو من حيث الاسم والفعل والحرف أم العامل أم الحركات الأعرابية . ولنقف قليلا

(١) اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية اغنياطيوس فرايم ص ٣١ حمص مطبعة السلام سنة ١٩٤٣ .

(٢) تاريخ الأدب السرياني ، مراد كامل ص ١٥ سنة ١٩٤٩ مصر .

مع ما ذكره المحدثون في هذا الشأن وقد حددنا (لفظ المحدثين) لان القدماء لم يشيروا الى هذا الاخذ اطلاقا ..

يقول جرجي زيدان في حديثه عن تاريخ النحو : « ويغلب على ظننا أنهم نسجوا في تبويبه على منوال السريان ، لان السريان [1] دونوا نحوهم والفوا فيه الكتب في أواسط القرن الخامس الميلادي . وأول من باشر ذلك منهم الاسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب . فالظاهران العرب لما خالطوا السريان في العراق أطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو فأعجبتهم فلما اضطروا إلى تدوين نحوهم ساروا على منواله لان اللغتين شقيقتان ويؤيد ذلك أن العرب بدأوا بوضع النحووهم في العراق بين السريان والكلدان واقسام الكلام في العربية هي نفس أقسامه في السريانية » ..

ويقول الاستاذ أحمد أمين عندما تحدث عن النحو : كانت آداب السريانية في العراق قبل الاسلام وكان لها قواعد [2] نحوية . فكان من السهل أن توضع قواعد عربية على نمط القواعد السريانية ، خصوصاً واللغتان من أصل سامي واحد » ..

ويتكلم الاب اسحاق ساكا في بحث طويل عن النحو وأهله [3] يعتبر أبو الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٦ هـ منشىء النحو العربي ويعتقد معظم العلماء الثقاة أن أبا الاسود اقتبس نحوه من السريان ، وينحصر هذا الاقتباس في ناحيتين :—الاولى تقسيم الكلمة إلى ثلاثة أقسام، الاسم والفعل والحرف، وهذه قضية هامة إذ تعتبر المفتاح الاول للدخول في علم النحو والاساس الذي تتفرع منه ابوابه وتكثر شعابه ، والثانية هي النقاط السريانية التي تتميز بها الكلمات . وهي الحركات

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان ج ١ ص ٢٥١ ويقصد في النسيج (النحو العربي) .

(٢) فجر الاسلام أحمد أمين ص ١٨٣ .

(٣) مجلة العربي عدد ١٠٦ ص ٥١ سنة ١٩٦٧ ، وقد أشار الى بعض المراجع في ذيل المقال من الصعب الاطلاع عليها كالمخطوطات العربية في تركيا . .

التي استنبطها قبيل ذلك المطران يعقوب الرهاوي ...

ثم يورد بعض الادلة التي تؤيد اقتباس النحو العربي من السرياني ..

«**أولا** : من شهادة المؤرخين الكثيرين وفي مقدمتهم المؤرخ التركي الشهير الاستاذ أحمد رفيق . قال :« بعدما أخذ العرب بالعلاقة مع السريان في العراق اضطروا إلى تأسيس ووضع قواعد النحو في لغتهم العربية إذ حدث في ذاك الوقت التبلبل في اللهجة ، والتكلم ،وذلك من كثرة اختلاط العرب بغيرهم من الامم والشعوب من جراء انتصاراتهم المتواصلة، فذهب عندئذ أبو الاسود الدؤلي إلى البصرة وتعلم هناك اللغة السريانية الفصحى وعاد إلى بغداد وأسس ونظم أول نحو في اللغة العربية . وقد أخذ منه العلم المذكور عيسه[1] ومن عيسه تعمم وانتشر ذلك العلم وكثر فيه العلماء[2] .وشهادة أحمد رفيق هذه حريةبالاعتبار والاعتماد عليها لانها مستقاة من مخطوطات عربية قديمة ومعلوم أن تركيا هي أعظم مركز للمخطوطات العربية .اذ أن في اسطنبول والاناضول ما يقارب من ربع مليون مخطوط ، كما بين الدكتور صلاح الدين المنجد في محاضرة القاها في بيروت في نيسان سنة ١٩٦٥» ..

ثانيا : «ان نظام الفعل في العربية هو ذات نظام الفعل في السريانية فمثلا نقول في العربية «بعتك الدار » فالفعل هنا باع يشير إلى الحاضر في حين أنه في صيغة الماضي ،ومثل هذا نجده في السريانية تماماً قال الاستاذ ابراهيم السامرائي « لوكان واضع النحو متأثراً في الامور الجوهرية بالنحو اليوناني ، لنحا في تحديد الزمن منحى الاغريق ،ولبحث في قضية الزمن وتحديده كما بحثوا،ولو وقفنا اليوم في عصرنا الحاضر على جلية الامر ، وصرنا لانحار في قوله تعالى : «فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم تؤمنون « البقرة ٩١– فالفعل تقتلون

(١) هذا نفس ما كتبه الأب اسحاق ساكا وعيسه يجب أن تكون هكذا «عنبسة الفيل تلميذ أبي الأسود . ملاحظة ؛ هذه الصفحة كلام الأب اسحاق ساكا وفيه يحاول أن يثبت ان النحو العربي سرياني . .

(٢) نقل الأب اسحاق ساكا هذا الرأي من كتاب التاريخ العام ج ٥ ص ٣٦٤ .

مضارع ولكن النص لا يشير إلى الحال او الاستقبال وانما يشير إلى الزمن الماضي»

ثالثا : « مما لا ريب فيه أن تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف يوناني الوضع والمنشأ ،غير أن العرب أخذوا ذلك عن السريان الذين أخذوه عن اليونان مثله مثل بعض الالفاظ اليونانية التي دخلت العربية كأنها سريانية ولا هي يونانية لأنها لم تدخل في العربية من اليونانية رأساً لكن بواسطة اللغة السريانية . والدليل على ذلك أن العرب يلفظون الكلمات اليونانية المعربة كما يلفظها السريان لا كما يلفظها اليونان فيقولون مثلا: أفلاطون – سقراط – اقليم – فندق – لابلاتون – سكراتيس – كليما – يندوخيون .

كما يقول اليونان ومما يستحق الاعتباران العرب سموا اليونان بالاسم السرياني «يونان» لا بالاسم اليوناني «هلينكس» ويرى الزيات [1] : أن النحو سرياني الاصل ، حيث يقول في ظننا أن أبا الاسود الدؤلي لم يضع النحو والنقط من ذات نفسه ، وانما يرجع انه ألم بالسريانية ،وقد وضع نحوها قبل نحو العربية ، اذا اتصل بقساوستها وأحبارها يساعده ذلك على وضع ما وضع وعلى أية حال ، فان أولية النحو لا تزال مجهولة»..

وذهب بعض المحدثين في دراسة النحو إلى اتجاه آخر ، وخاصة حددو نوع النقل عن السريانية . اذ يرى أصحاب هذا الرأى ان النحو العربي أخذ الحركات التي كانت في السريانية ..

ويقول الاستاذ حسن عون [2] : أما طريقة الشكل ، وهي اللبنة الاولى في بناء النحو العربي. فقد استمدها ابو الاسود الدؤلي من النحاة السريانيين ونحن نقرر مبدئياً بأنه ليس في ذلك ما يضير النحو العربي ، ولا يقلل من قيمة مجهود أبي الاسود فيه . ويحاول الاستاذ حسن عون تأييد رأيه بان الدؤلي اتصل بالسريان

(١) تاريخ الأدب العربي ، أحمد حسن الزيات ص ٢٠٦ طبعة ٢٥ القاهرة .

(٢) اللغة والنحو دكتور حسن عون ص ٢١٥ ط ١ / ١٩٥٢ الاسكندرية .

ويقول : « لا ينبغي لعالم ديني لغوي وحاكم اداري كابي الاسود أن يجهل وجود هذه الطبقة ، فهو لا بد أن يكون قد اتصل بها وتعرف على كثير مما تهتم به من المسائل العقلية ، فتعلم السريانية ليأخذ منهج شكله النصوص الدينية عن أصحابها فمن الممكن أن يأخذه عن طريق الترجمة . على اننا نظن ، بل نرجح ، أن أبا الاسود كان يعرف السريانية معرفة تمكنه من التفاهم بها وقراءة بعض نصوصها إلى حد ما . وذلك لاقامته الطويلة في العراق . وحث الرسول علم تعلم اللغات الاجنبية » ..

والخُلاصة التي وصلنا اليها بخصوص الاقتباس عن السريانية نجد أنفسنا أمام ثلاثة اتجاهات متباينة :

الاتجاه الاول: ويرى أصحابه أن العربية قامت على نمط السريانية ولم يقف اصحابه وقفة الدارس المحقق ويمثله الاستاذان جرجي زيدان واحمد أمين ..

الاتجاه الثاني : ويرى أصحابه أن العربية اقتبست نحوها من السريانية وحصروا الاقتباس في ناحيتين الاولى التقسيم الكلامي في النحو ، والثانية النقاط العربية ، ووقف اصحاب هذا الرأي وقفة لا بأس بها في هذا الشأن ويمثل هذا الاتجاه الاب اسحاق ساكا وما رواه عن مخطوطات ..

الاتجاه الثالث : ويرى أصحابه أن العرب اقتبسوا عن النحو السرياني نقاطه فقط ويمثل هذا الاتجاه الاستاذان أحمد حسن الزيات وحسن عون ..

الرأي الثاني : اليونانية :

يرى أصحاب هذا الرأي أن النحو العربي اقتبس اصوله عن النحو اليوناني ، ثم توسعوا في بحثه . وقبل التحدث عن هذا الموضوع ، احب ان أشير بايجاز إلى بعض الظواهر اللغوية التي ذكرها الكتاب والمحدثون عن اللغة اليونانية ونحوها

وحركاتها . حتى نرى هل هناك تشابه بين اللغة العربية واليونانية ، وخاصه النحو في كلتا اللغتين .؟ .وهل اتصل العرب باليونان أم لا ؟ ..

يصف أحد المحدثين اللغة اليونانية ويقول[١] : «تمتاز اللغة اليونانية بموسيقاها العذبة ونغمها الجميل وسهولة نطقها وتعدد حركاتها وهي غنية بمفرداتها ، مرنة في قواعدها تتميز في كثرة النهايات في اعراب الاسماء وتصريف الافعال ، وتعدد صيغها وأزمنتها ومصادرها «وكان لها نحو وصل إلى غاية الكمال[٢] وكانوا يسمون علم الالفاظ والعناية بالبحث نحوا » [٣] . كما أن نظام تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف في العربية هو نفس تقسيم الكلام في اللغة اليونانية [٤] ..

ونستخلص من هذا العرض السريع لليونانية انها لغة حية ، مرنة ، تشبه العربية في بعض النواحي ، كالحركات ، ، وتصريف الافعال ، وتعدد الصيغ ، وتقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف .وان النحو اليوناني له تاريخ يشبه تاريخ النحو[٥] .

ولنا أن نتساءل :

كيف اقتبس العرب نحو اليونان وما نوع الاقتباس ؟ ؟

عندما نستعرض هذا الموضوع ، نجد الذين تحدثوا عن هذا الاقتباس يختلفون في آرائهم وتفكيرهم ايضاً . اذ وقفوا كوقفة سابقيهم في السريانية ، ونقسم اتجاههم في هذا الشأن إلى قسمين متباينين إلى حد ما ..

القسم الأول : ويرى أصحابه ان الاقتباس عن النحو اليوناني إلى النحو العربي

---

(١) تاريخ الأدب اليوناني ، محمد صقر خفاجة ص ١٣ مشروع الألف كتاب .

(٢) اللغة والنحو حسن عون ص ٢٤ .

(٣) لسان العرب مادة « نحا » ج ١٥ ص ٣٠٩ وتاج العروس للزبيدي ج ١٠ ص ٣٦٠ .

(٤) مجلة العربي مقال الأب اسحاق ساكا عدد ١٠٦ / ١٩٦٧ .

(٥) تاريخ الأدب العربي جرجي زيدان ج ١ ص ٢٥٠ / ١٩٥٧ دار الهلال .

تم مباشرة من اليونان إلى العرب . يقول الاستاذ ابراهيم مصطفى [1] عندما تحدث عن نشاةالنحوالعربي «وأبو الاسود الدؤلي قد أخذ القراءة وضبط كلمات المصحف عن الامام علي وكان يحتج بذلك اذا ما خالفه قارىء آخر لهذا الضبط وهذه النقط لا يزال لها أثر في بعض الصحف » . ثم يتابع قوله « قالوا وقد اتخذ ذلك – يعني أبا الاسود الدؤلي عن اليونانية وكان قد قرأها » ويقول الاستاذ محمد السعران [2] « ان النحو العربي في مراحله الاولى تأثر شيئاً من التأثر بمنطق ارسطو » ..

القسم الثاني : ويرى مؤيدوه أن الاقتباس تم بواسطه السريانية ومن ثم إلى العربية وقد جاء في دائرة المعارف الاسلامية [3] « لقد اخذت المفاهيم النحوية الاصلية للنحويين العرب من المنطق الارسطي الذي جاء عن طريق العلماء والسريان إلى العرب ..

وقيل [4] : « ان تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف يوناني الوضع والمنشأ غير ان العرب اخذوا ذلك عن السريان الذين أخذوه عن اليونان » ..

وتحدث الاستاذ احمد أمين عن الاتصال الثقافي بين العرب واليونان الاانه يرى ان الاتصال تم عن طريق السريان « ان الثقافة اليونانية كانت منتشرة في العراق والشام والا سكندرية وان المدارس انتشرت فيها على يد السريان وان هذه المدارس اصبحت تحت حكم المسلمين فتشبعوا من هذه الثقافة كما ساعدت الحركة العلمية التي جلبتها السريانية ونقلتها عن اليونانية في ايجاد حركة النشاط الفكري وبدأت طلائع حركة الترجمة في العصر الاموي » ...

(١) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، ابراهيم مصطفى المجلد العاشر الجزء الثاني ص ٤ ، ص ٥ مطبعة الجامعة سنة ١٩٤٨ م . .

(٢) علم اللغة محمد السعران ص ٣٦ دار المعارف سنة ١٩٦٢ م . .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ج ٣ ص ٣٨٦ .

(٤) مجلة العربي مقال الأب اسحاق ساكا عدد ١٠٦ ص ٥١ / ١٩٦٧ الكويت .

وبعد هذا العرض الموجز في هذا الشأن الخاص بالنحو اليوناني نجد أنفسنا أمام اتجاهين متباينين :

الاول : يرى أن الاقتباس تم مباشرة عن طريق اليونان .

الثاني : يرى أن الاقتباس تم عن طريق السريان .

الرأي الثالث : العربي :

اتفق الرواة والمؤرخون القدماء جميعهم على أن النحو العربي ، « عربي النشأة ، أصيل الطابع ، ظهر بدافع عربي أصيل ، بعيد كل البعد عن التيارات العلمية التي وجدت في عصر النشأة . ولم يتأثر باليونانية ولا السريانية ولا غيرها من اللغات المجاورة وقبل التحدث عن هذا الموضوع أحب أن أشير الى ملاحظة بسيطة وهي : انني لا أريد أن أتكلم في هذا الشأن عن الرجل الذي أنشأ النحو وانما أريد أن أتحدث عن أصل النحو العربي كما رواه لنا العلماء القدماء الذين نقلوا لنا تراثنا العربي بكل أمانة واخلاص . ونحب أن نستشهد ببعض النصوص بايجاز مع ذكر الأصول حتى اذا أراد القارىء العودة اليها يجدها سهلة بين يديه ، وقد التزمنا في عرضنا للروايات الترتيب الزمني حيث بدأنا بأوائل المؤرخين والعلماء معتمدين على تاريخ وفاة المحدث أو العالم . .

١ – فهذا محمد بن سلام المتوفى (٢٣٢) يتحدث عن عروبة النحو « أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي[1] » ..

٢ – وهذا أبو الطيب اللغوي المتوفى «٣٥١» يقول : « أول من رسم النحو أبو الأسود الدؤلي الذي أخذه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[2] » . .

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥ طبعة ليدن وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ ص ٧ .

(٢) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص ٦ ، ص ٨ .

٣ — وتحدث السيرافي المتوفى «٣٨٦» عن تاريخ النحو « جاء أبو الأسود الدؤلي الى زياد بن أبيه يستأذنه أن يضع العربية[١] » . .

٤ — وهذا الزبيدي المتوفى «٣٧٩» يقول في هذا الشأن « ان أبا الأسود الدؤلي هو أول من أسس العربية[٢] » . .

٥ — وتحدث ابن النديم المتوفى «٤٠٠ هـ» عن نشأة النحو « زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي وأن أبا الأسود أخذه من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب [٣] » . .

٦ — وتحدث ابن الأنباري عن هذا الموضوع وقال : « ان أول من وضع علم العربية وأسس قواعده وحد حدوده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي عنه وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي [٤] » . .

٧ — وتحدث جلال الدين القفطي المتوفى (٦٤٩ هـ) عن النحو ونشأته وقال «ومن الرواة من يقول أن أبا الأسود هو أول من استنبط النحو وأخرجه من العدم الى الوجود[٥] » كما ذكر كثير من الرواة والمؤرخين الذين جاءوا بعد هؤلاء الأوائل الذي ذكرنا أقوالهم، هذه الروايات ، ورددوها في كتبهم التي لا حصر لها، وكلهم اتفقوا على شيء واحد، وهو أن النحو عربي الأصل ، ولم يشيروا الى أن النحو اقتبس عن السريانية أو اليونانية اطلاقا . .

* * *

(١) أخبار النحويين البصريين السيرافي ص ١٣ .
(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيري ص ١٤ .
(٣) الفهرست لابن النديم ص ٥٦ .
(٤) نزهة الالباب للانباري ص ٣ .
(٥) انباة الرواة للقفطي ص ١٦ وما بعدها .

(مناقشة الآراء والرد عليها)

أولا السريانية

نحب أن نناقش الآراء التي قيلت في هذا الشأن الخاص بالسريانية وقد وصلنا أثناء بحثنا هذا الموضوع الى أربعة آراء نحب أن نناقشها رأيا تلو الآخر . .

الرأي الأول :

وهو الذي يرى أصحابه أن العربية قامت على نمط أو منوال السريانية . ويمثله الأستاذان جرجي زيدان وأحمد أمين . .

نلاحظ أن الأستاذين لم يقفا عند هذا الموضوع وقفة الدارس المحقق ، وقد تعرض الأستاذ جرجي زيدان لهذا الموضوع عرضا ، وذكره كمؤرخ للأدب العربي ذكرا سريعا : أما الأستاذ أحمد أمين ، فلم يدرس هذا الموضوع دراسة جيدة كدراساته الرائعة للحياة العقلية العربية في فجر الاسلام وضحاه ، فنراه مضطربا في دراسته لهذا الموضوع — النحو — ففي فجر الاسلام ، عندما تحدث عن الاختلاط البشري بين العرب والموالي أثناء الفتح وبعده ، أشار الى النحو العربي وقال [١] : « لأن الآداب السريانية كانت في العراق قبل الاسلام وكان لها قواعد نحوية ، فكان من السهل أن توضع قواعد عربية على نمط القواعد السريانية خصوصا واللغتان من أصل سامي واحد » . وفي الجزء الأول من ضحى الاسلام ، عندما تعرض للثقافة الهندية أشار الى قصة النحو عند الهنود وقرن النشأة عندهم بالنشأة عندنا وقال [٢] : « كان عند الهنود نحو وصرف وقالوا في أولية النحو أن أحد ملوكهم كان يوما في حوض مع نسائه فقال لاحداهن « ما ود كندهي » أي لا ترشي علي الماء ، فظنت أنه يقول « مود

(١) فجر الاسلام ص ١٨٣ .
(٢) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٤٥ ط ٦ .

كندهي» أي احملي حلوى فذهبت فأقبلت بها فأنكر الملك فعلها فخاشنته في الخطاب ، فاستوحش الملك لذلك ، وامتنع عن الطعام كعادتهم ، واحتجب الى أن جاءه أحد علمائهم ، وسلى عنه ، بأن وعده تعليم النحو والصرف ، وذهب الى « مهاديو » مصليا مسبحا وصائما متضرعا الى أن ظهر له وأعطاه قوانين يسيرة ، كما وضعها في العربية أبو الأسود الدؤلي ، ووعده التأييد فيما بعدها من الفروع فرجع العالم الى الملك وعلمه اياها وذلك مبدأ هذا العلم » . وأنا أخشى أن تكون حكاية أبي الأسود قد وضعت في العربية على نمط الحكاية الهندية ، ولعل ما يرجح هذا الظن أن الحكاية العربية مختلفة الأشكال ، متعددة الرواية ، فمن قائل أن علي بن أبي طالب هو الذي أوعز الى أبي الأسود بوضع النحو ، ومن قائل أنه عمر بن الخطاب ومن قائل أنه زياد بن أبيه ثم من قائل أن سبب الوضع أن قارئا قرأ « لا يأكله الا الخاطئين » ... الى آخر ما قالوا يحمل الشك في القصة ، ثم هناك شبه بين ذهاب العالم الهندي الى « مهاديو » مصليا مسبحا وبين ذهاب أبي الأسود الى علي بن أبي طالب يسأله المعونة في وضع النحو وهكذا . .

وفي الجزء الثاني من ضحى الاسلام غير رأيه ، وقال [1] « وتاريخ النحو منشأه غامض كل الغموض » ثم اعتمد أخيرا على رأي المستشرق ليتمان ويقول [2] « ونحن نذهب في هذه المسألة مذهبا وسطا ، ونقول كما انتبه في هذه السنة عالم اسمه Joseph Blanc وترجمته يوسف الأبيض، وهو أنه أبدع العرب علم النحو في الابتداء ،وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه الا ما اخترعه هو والذين تقدموه . ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق تعلموا أيضا شيئا من النحو ، وهو النحو الذي كتبه أرسطاليس الفيلسوف وبرهان هذا ، ان تقسيم الكلمة مختلف . قال سيبويه : « فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس بالاسم ولا فعل » وهذا تقسيم أصلي ..

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٩٣ .

أما الفلسفة فيقسم فيها الكلام الى اسم وكلمة ورباط أي الاسم والكلمة هي الفعل كما يقال في اللغات الأوربية Yerb والرباط هو الحرف كما يقال له في اللغات الأوربية Conjunction » أي ارتباط . .

وهذه الكلمات : « اسم وكلمة ورباط ، ترجمت من اليوناني الى السرياني » ومن السرياني الى العربي ، فسميت هكذا في كتب الفلسفة لا في كتب النحو ، أما كلمات اسم وفعل وحرف فانها اصطلاحات عربية ، ما ترجمت ولا نقلت » . .

والخلاصة لرأي الأستاذ أحمد أمين نراه يعترف أخيرا بأن النحو عربي أصيل العروبة كما أن التقسيم الذي أثار ضجة المستشرقين وغيرهم ، واعتبروه سريانيا تارة ويونانيا تارة أخرى انما هو عربي الأصل والنشأة معا . .

أما الرأي الثاني : فقد اعتمد الأب اسحاق ساكا على ملاحظتين ، أثارهما أثناء نقاشه للموضوع :

الملاحظة الأولى : يرى أن النحو العربي سرياني الأصل ، بدليل التقسيم المنطقي الموجود في النحو العربي ، حيث ينقسم الكلام الى اسم وفعل وحرف . وهو نفس التقسيم الموجود في السريانية كما يزعم . .

والرد على هذه الملاحظة بسيط جدا ، وهو أن معظم اللغات في العالم لها نفس التقسيم الكلامي الموجود في اللغة العربية ، وصحيح أن الرواة العرب ذكروا هذا التقسيم عندما تحدثوا عن نشأة النحو العربي اذ رووا : ان الامام عليا ألقى لأبي الأسود صحيفة فيها [1] « بسم الله الرحمن الرحيم والكلام كله اسم وفعل وحرف الى آخر الرواية » . .

ولكن الرواة لم يذكروا ان هذا التقسيم الذي ألقاه الامام لأبي الأسود الدؤلي

(١) الاغاني ج ١٢ ص ٢٦٦ ، نزهة الالباب ص ١٣ انباة الرواة ج ١ ص ٤ والتحفة البهية والطرفة الشهية للسيوطي ص ٤٩ .

أخذه عن السريان أو اليونان ، بل هو عربي من اختراع الامام نفسه ..

اذن كيف جاء الأب اسحاق ساكا بهذه الأخبار ؟ وعلى أي شيء كان اعتماده ؟ ؟

اعتمد الأب اسحاق ساكا على شهادة المؤرخ التركي أحمد رفيق ، والذي يقول فيها « أن أبا الأسود ذهب الى بغداد » . .

أولا : يجب أن يعلم أن أبا الأسود جاء الى البصرة مهاجرا من المدينة في عهد عمر بن الخطاب ، ولم تكن بغداد قد بنيت بعد ، وكان أبو الأسود ميتا عندما بنيت بغداد لأن أبا الأسود توفي في طاعون الجارف سنة ٦٩ هـ [1] وبغداد بنيت سنة ١٤٠ هـ وبينها وبين أبي الأسود بون بعيد . وعلى هذا الأساس تكون هذه الشهادة منتحلة من أساسها . .

يذكر من تلاميذ أبي الأسود عيسه فلا نجد لهذا الاسم أثرا انما هو عنبسه الفيل أما عيسى الذي يذكره فهو عيسى بن عمر الذي ألف كتابين هما الجامع والكامل في النحو وهو من تلاميذ عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي [2] وليس من تلاميذ أبي الأسود .

اذن : فالمخطوطات العربية التي استقى منها المؤرخ أحمد رفيق واعتدها الأب اسحاق ساكا ، ان كانت حقا مخطوطات فهي خاطئة ..

أما الملاحظة الثانية التي اعتمد الأب اسحاق عليها فهي التي تخص الأفعال من حيث الصيغ الزمنية . اذ يقول : « ان نظام الفعل في العربية هو نفس نظام الفعل في السريانية فمثلا نقول في العربية (بعتك الدار) فالفعل باع هنا يشير

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٥٨ للحافظ البغدادي سنة ١٩٣١ مطبعة السعادة .
(٢) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١٣ وما بعدها وفيات الأعيان لابن خلكان ص ١٢٨ طبقات القراء للجزري ج ١ ص ١٧٣ – المزهر للسيوطي ج ٢ ص ٨٦ ، الأغاني ج ١١ ص ١١٩ . .

الى الحاضر في حين أنه في صيغة الماضي ، ومثل هذا نجده في السريانية تماما » . ثم قوله تعالى : « فلم تقتلون أنبياء الله من قبل أن كنتم مؤمنين » (البقرة ٩١) . فالفعل تقتلون مضارع ولكن النص لا يشير الى الحال أو الاستقبال وانما يشير الى الزمن الماضي » . .

في الواقع أن الفعل الذي استشهد به أيضا خاطىء في حالة القطع ، لأن باع فعل ماضي يدل على الزمن الماضي فقط وليس على الحاضر لأن البيع انتهى في وقت معين والآية الكريمة التي يستشهد بها « ولم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين » كان استشهاده بها خاطئا لأن الذي جعله يشير الى الماضي ليس الفعل كما يزعم ، وانما الجملة ولو استعملنا الفعل منفردا ما دل على الماضي وتقول : لم تقتلون هذا الرجل؟ ؛ فهنا تشير الى المضارع لا الى الماضي كما زعم الأب اسحاق ... اذن آراء الأب اسحاق لا تقوم على أساس من الصحة فهي آراء مضطربة . .

أما الرأي الثالث :

« وهو الذي يرى أن النحو العربي أخذ نقاطه عن السريانية » ، حيث ذهب الأستاذ حسن عون الى رأي مغاير لسابقيه في دراسة النحو وتاريخه . ورأى أن النحو العربي أخذ نقاطه عن السريانية ، ورجح أن أبا الأسود كان يعرف السريانية اما بطريقة الاتصال المباشر أو عن طريق الترجمة ... أما رأيه الثاني فيعتقد أن طريقة الشكل هي اللبنة الأولى في بناء النحو العربي ..

وعندما نقف مع آراء الأستاذ حسن عون في هذا الشأن نجد هذه الآراء ينقصها السند التاريخي ، وانما هي قائمة على الظن ثم الترجيح . .

أما حكاية أبي الأسود الدؤلي وتعلمه السريانية ، فاننا لا نجد أثناء دراستنا ما يدل على أنه كان يعرف السريانية ، كما لا يذكر الرواة والمؤرخون الذين تحدثوا عن سيرته ونعتوه بنعوت كثيرة – اذ لم يتركوا صفة من صفاته الا

وذكروها — انه تعلم السريانية . كما نجد الدؤلي نفسه الذي افتخر بكل شيء يخصه ، لم يذكر أنه تعلم السريانية ، ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع القطع وأن نحكم أن أبا الأسود لا يعرف السريانية فربما عرف أبو الأسود السريانية وهو الأرجح في اعتقادنا وذلك للأسباب الآتية :

١ — سهولة اللغة السريانية . اذ نرى أن زيد بن ثابت تعلمها في مدة قصيرة لا تتجاوز سبعة عشر يوما . فليس كثيرا على أبي الأسود ، وهو المشهود له بالذكاء والعلم أن يتعلم هذه اللغة . .

٢ — حث الرسول على تعلم اللغات الأجنبية ، اذ كان دافعا للعلماء أن يتسابقوا الى ما حث عليه الرسول . .

٣ — مخالطة أبي الأسود الدؤلي السريان في البصرة التي كانت مركزا للحضارة ومصدرا للثقافات المختلفة . وقد رأى أبو الأسود هذه الثقافات ، واطلع عليها ، ورأى أن السريان يضبطون لغتهم بواسطة الحركات الموجودة عندهم ، والتي أخذوها من الصوائت اليونانية ، فأعجب بهذه الحركات فحاول تقليدها ، وتطبيقها على اللغة العربية . .

٤ — ملاحظات العلماء والدارسين لتاريخ النحو العربي ، تشير الى نوع من الاقتباس ، الا أنها لم تحدد هذا الاقتباس الا باشارات معينة ، أو باجتهاد محدود ، كالأساتذة أحمد أمين وجرجي زيدان والزيات والأب اسحاق وغيرهم ، ومن الجائز أن هذا الاقتباس سرياني طبقا لما ذكرناه . .

الاتجاه الرابع : يمثله المستشرقان ليتمان وكارل بروكلمان والأستاذ أحمد مكي الأنصاري ، ويرى أصحاب هذا الرأي كما أسلفنا أن النقاط أيضا عربية وينفون النقل عن السريانية . أما بخصوص آراء المستشرقين ، فان كانا يعنيان النحو فهذا له شأن خاص فهو عربي الأصل والنشأة ، وان كانا يعنيان النقاط ، فلنا في هذا الشأن وجهة نظر خاصة ، نحب أن نبينها . واذا حاولنا أن ننظر الى هذا الأمر

بعيدين عن التعصب ، نقرر مبدئيا بأنه ليس في ذلك ما يضير النحو العربي ، ولا يقلل من قيمته ، ان أخذ شيئا عن السريانية أو غيرها . وليس كثيرا على العلماء العرب أن يخترعوا النقاط العربية ، ولكن الحقيقة أن أبا الأسود أخذ نقاطه عن السريانية وذلك لعدة ملاحظات :

الأولى : لو كان أبو الأسود هو الذي ابتكر الحركات لابتكرها عربية خالصة أو تشير الى أنها عربية على الأقل ، كما فعل الخليل عندما طورها فنقاط أبي الأسود عبارة عن نقاط تشبه حرف الخمسة أو السكون كما شاهدتها في دار الكتب وكما ذكرها الرواة فهي في الواقع لا تدل على أنها عربية . .

فانظر مثلا هذه النقاط كما نقلتها عن مخطوط المصحف الكوفي الموجود حاليا في دار الكتب والذي كتب على طريقة أبي الأسود الدؤلي [1] :

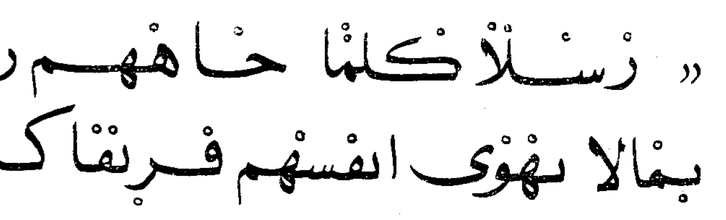

فهل هذه النقاط تدل على أنها عربية ؟ .. قطعا كلا ، انها لا تدل على عروبتها فأما حركات الخليل فهي عربية فالضمة من الواو والفتحة من الألف والكسرة من الياء الى آخر ذلك . بالاضافة الى ذلك أن النقاط «الاعجام» نشأ متأخرا عن عصر أبي الأسود الدؤلي وهو العصر الذي نما فيه النحو العربي ..

والخلاصة فيما يتعلق بالسريانية وأثرها في العربية من حيث النحو ، نجد أبا الأسود الدؤلي أخذ النقاط فقط عن السريانية ، وطبقها على اللغةالعربية ، واستعان بها . وليس المقصود بهذه النقط — النحو — فهي النقاط التي استعملها أبو الأسود الدؤلي في كتابة المصحف ، والتي قصدها كثير من الكتاب واعتقدوا

(١) مخطوط لمصحف كوفي قديم في دار الكتب المصرية بالقاهرة موجود في معرض المصاحف تحت رقم ١١٥ مصاحف وعليه ملاحظة كتب عليها « هذا المصحف مكتوب على طريقة أبي الأسود الدؤلي تم كتابته في اوائل القرن الثالث » — كما شاهدت مصحفا آخر قيل انه بخط جعفر الصادق ، وكتب أيضا على طريقة أبي الأسود الدؤلي ويحمل المصحف رقم ١٤٨ مصاحف ..

أنها نحو أبي الأسود وأصلها من السريانية فالقائلين بهذا الرأي خلطوا بين شيئين : بين النحو وبين النقاط ، فالنحو الذي قام به أبو الأسود ، وغرس بذوره الأولى ، وتحدث عنه الرواة ، انما هو عربي أصيل ، بعيدا كل البعد عن السريانية ، أما النقاط فهي العمل الثاني لأبي الأسود . فقد كانت مأخوذة عن السريانية ، وهذا في رأينا لا يضير النحو العربي ولا يقلل من قيمته اطلاقا ..

أما الرأي القائل بيونانية النحو أو تأثره به ، فهو غير ثابت أطلاقا ، لأن العرب لم يتصلوا باليونان مباشرة ، بل كان الاتصال عن طريق السريان . ولكننا اذا نظرنا الى التعريف الذي جاء به ابن منظور في لسان العرب ، انهم كانوا يطلقون على علم الألفاظ والمعاني نحوا ، والعرب يطلقون على الحركات وموقع الكلمة من حيث الحركات نحوا ، فهناك فرق بين المفهومين . علم الألفاظ والمعاني في العربية لا يرتبط بعلم النحو الذي يميز الكلمات ومعانيها بواسطة حركاتها . .

أما التقسيم الكلامي الموجود في اللغة اليونانية الى اسم وفعل وحرف ، فأغلب اللغات في العالم تسير في هذا الاتجاه المنطقي ، وقد وجد فعلا هذا التقسيم في العربية ، وخاصة فيما رواه القدماء عندما أعطى الامام علي لأبي الأسود أصولا في النحو العربي وقال له : الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف الى آخر الرواية ، ليس معنى ذلك أن العرب أخذت هذا التقسيم عن اليونانية وذلك للأسباب الآتية :

أولا : لم يذكر القدماء أن الامام علي نقل هذا التقسيم من اللغة اليونانية ..

ثانيا : لم يتصل العرب مباشرة باليونان الا عن طريق السريان الذي لا يوجد في نحوهم هذا التقسيم ثم كما أثبت المستشرق يوسف الأبيض أن هذا التقسيم كان في الفلسفة اليونانية لا في النحو اليوناني . .

« أما كلمات اسم وفعل وحرف ، فانها اصطلاحات عربية ، ما ترجمت ولا نقلت » .

بالاضافة الى ذلك ، نجد كل ما ترجم عن اليونانية ، لا يمت الى النحو بصلة ونشير الى أهم الكتب التي ترجمت عن اليونانية والسريانية الى العربية [١] ..

١ — مؤلفات تحتوي على تراجم وتفاسير في كتب التوراة والانجيل .

٢ — مؤلفات تحتوي على مجادلات بين أساطير الطائفة النسطورية وبين قادة الفكر والمذهب اليعقوبي . .

٣ — مؤلفات في تاريخ الكنيسة السريانية .

٤ — مؤلفات في الفلسفة والطب والعلوم والطبيعة والفلك . .

ثالثا : أما بالنسبة لرأي الأستاذ ابراهيم مصطفى والذي يزعم فيه أن أبا الأسود أخذ نحوه عن اليونانية وكان قد قرأها . فهذا رأي لا يقوم على أساس من الصحة ، فلا نجد مصدرا واحدا يذكر هذا الرأي . .

وقد ذهب الأستاذ ابراهيم مصطفى في رأيه هذا الى رأي مغاير ، وقد رد الأستاذ عبد الوهاب حمودة عليه في قوله « جاء الأستاذ ابراهيم مصطفى فيه برأي طريف خالف فيه السابقين واللاحقين من مسلمين ومستشرقين [٢] ، وقد اتهمه بالخطأ والخطل معا كما اتهمه أيضا بالسرقة من كتاب ضحى الاسلام فهو في الواقع رأي غير صحيح لا يقوم على أي دليل . .

أما الرأي العربي ، فلا داعي لاثباته فهو عربي بدون اثبات أو برهان ، وذلك لسبب بسيط لأن الدافع لهذا العلم كان عربيا . ثم وجود العامل الذي لا يوجد في اللغات الأخرى ، ويقول الدكتور شوقي ضيف [٣] في هذا الشأن «حاول

---

(١) تاريخ اللغات السامية ، اسرائيل لفنستون ص ١٤٥ .

(٢) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ج ١٣ ص ١٣٥ ج ١ سنة ١٩٥١ مقال للأستاذ عبد الوهاب حموده بعنوان « حول بحث أول من وضع النحو » . .

(٣) محاضرات في نشأة النحو العربي القاها الدكتور شوقي ضيف في الجامعة الأردنية بعمان بتاريخ ٩ / ١٠ / ٦٦ وذكر هذا الرأي في كتابه المدارس النحوية ..

بعض المستشرقين أن يصلوا بين نشأة النحو العربي والنحو السرياني والهندي غير أنه لا يمكن اثبات شيء من ذلك اثباتا علميا لسبب بسيط وهو أن مصطلحات النحو العربي عربية خالصة . .

وعمود هذا النحو هو العامل لم يعرف في أي نحو غير العربي فالنحو العربي وليد العقلية البصرية . .

والخلاصة التي وصلنا اليها بعد هذا العرض للآراء والرد عليها في أصل النحو العربي ، توصلت الى أن النحو العربي عربي عريق العروبة أصيل الطابع لأن الدافع كان عربيا صحيحا . الا أن نحونا العربي استعان بالنقاط التي اقتبسها أبو الأسود الدؤلي من السريانية التي وجدت في البصرة ، وكانت في بدئها نقاطا صغيرة ، ساعدت على جودة القراءة الى فترة بسيطة من الزمن ، حتى جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري وطورها ، واستعان بحروف عربية خالصة ، وهي المعروفة لدينا في الوقت الحاضر ، أما النحو العربي فهو الاعراب من فعل وفاعل ومفعول الى آخر أقسامه المختلفة ، فهو عربي أصيل العروبة في نشأته وتسميته أيضا ، ولم يستعن المؤسس بالنحو السرياني ولا غيره وما أخذه العرب عن السريان هي الحركات فقط أما نحو أبي الأسود الدؤلي والذي تشمل الخطوة الأولى في طبيعة النشأة فهو علم منفصل تمام الانفصال عن التنقيط وان اشتركا في هدف واحد وهو الاعراب لضبط القراءة كتابة وحديثا . .

تاريخ النحو :

لم يصل الباحثون (القدماء والمحدثون) حتى كتابة هذه السطور الى تاريخ معين ثابت لنشأة النحو العربي . وحاول بعضهم أن يصل الى هذه الحقيقة الا أنهم لم يستطيعوا الوصول اليها . .

وأحب أن أشير في بداية هذا البحث بأنني حاولت جاهدا أن أصل الى هذه الحقيقة . ولم أزعم أنني أكثر ثقافة أو اطلاعا من الباحثين السابقين ، ولكنني كنت أكثر حظا منهم ، حيث أتاح لي موضوع دراستي « حياة أبي الأسود الدؤلي وسيرته الذاتية » أن أطلع على بعض الحقائق ، التي لم يتح لغيري من الباحثين أن يطلع عليها ، اذ ساعدتني هذه الدراسة من كل جوانبها ، أن أصل الى بعض الحقائق الهامة التي تخص تاريخ النشأة . وقبل التحدث عن هـذا الموضوع ، نحب أن نشير الى رأي القدماء والمحدثين ، الذين تحدثوا عن تاريخ النحو العربي ، وقد ذهبوا في اتجاهين مختلفين كل الاختلاف ، حائرين تارة ، ومترددين تارة أخرى . .

الرأي الأول :

يرى أصحاب هذا الرأي أن المستحيل يقف حائلا بين الباحث ومعرفته تاريخ النحو العربي ويمثل هذا الاتجاه ، بعض المحدثين والدارسين في هذا

الموضوع ، وهذا الأستاذ أحمد أمين [1] يرى « أن تاريخ النحو منشئه غامض كل الغموض فلا سبيل الى معرفة تاريخه » . .

وتحدث الأستاذ مصطفى صادق الرافعي عن تاريخ النحو فقال : [2] « لكن العلماء جميعا أغفلوا ذكر التاريخ الذي كان فيه الوضع وقد وقفنا على نص بلغت بنا الحيرة مبلغها عنده ، وذلك ما أورده ابن قتيبة في كتابه المعارف في ترجمته أبي مريم بن حبيش من التابعين » طبقة أبي الأسود ، فانه قال فيه كان أعرب الناس وكان عبدالله بن مسعود يسأله عن العربية وعاش ١٢٠ عاما وعبدالله بن مسعود صحابي جليل توفي سنة ٣٢ هـ عن بضع وستون سنة » . ومقتضى هذه الرواية ، أن اللحن كان فاشيا لذلك العهد حتى صار الاعراب الجيد ميزة بين أهله وان العربية «النحو» كانت مقررة يومئذ ، ولكن يبقى من الاشكال قول ابن قتيبة ، ان ابن حبيش كان أعرب الناس وذلك في زمن كان فيه علي بن أبي طالب وابن عباس وأبو الأسود الدؤلي وسائر العرب ، وان ابن مسعود كان يرجع اليه دون أبي الأسود نفسه ، وذلك غريب ان لم يكن منكرا والذي عندنا أن في رواية ابن قتيبة تحريفاً وأن الذي كان يرجع الى ابن حبيش هو عبيد الله بن مسعود أحد السبعة المدنيين الذين أخذ عنهم الفقه ، أما تاريخ النحو فلا سبيل الى تحقيقه » . وتحدث الأستاذ حسن عون في هذا الشأن وقال [3] : « لا يزال الباحث في حيرة من أمر النحو العربي ، ومن الظروف التي لابست نشأته ، فلا القدماء أماطوا اللثام بطريقة معقولة عن هذا الغموض الذي لا نزال نحس به ونتعثر في دياجيبه ولا المحدثين استطاعوا أن يتناولوا هذه المسألة بطريقة جدية فيتعمقوا فيها بعد أن يمهدوا لها بالدراسة الواسعة والتفكير الحر » . .

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٨٥ .
(٢) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٣٣٦ مصطفى صادق الرافعي .
(٣) اللغة والنحو ، حسن عون ص ١٩٨ .

الرأي الثاني :

يعتقد أصحاب هذا الرأي أن النحو العربي عرف قديما قبل الاسلام وانما أبو الأسود الدؤلي جاء وجدد هذا العلم وصاحب هذا الرأي من القدماء هو ابن فارس اللغوي المتوفي سنة ٣٩٥ هـ الذي يرى أن علم النحو علم قديم ، وأن هذه الفترة التي نعتقد نحن أنها فترة وضع النحو والتفكير فيه ، هي فترة البعث والتجديد وليست فترة البدء والابداع ، يقول ابن فارس [1] : « ان العربية والعروض كانا معروفين قديما ثم أتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس حتى جاء أبو الأسود فجدد العربية ، وجاء الخليل فأحيا العروض » ، وأشار بعض المحدثين الى هذا الرأي ، قال الدكتور ناصر الدين الأسد عندما تحدث عن الكتابة العربية والنقط والشكل والاعجام [2] : « وهذه النقوش تقودنا الى الحديث في نقطة أخرى لها خطرها الكبير في تاريخ الكتابة العربية في الجاهلية ، ونحن نعرض في هذا الموضوع ما وصلنا اليه في بحثنا ، وسنكتفي بالعرض المجرد وحده ، لا نثبت ولا ننفي ، فحسبنا أن نثير هذا الموضوع ونجعله ميدانا للبحث لعل مقبل الأيام يتكفل بجلائه ، ويمدنا بما نستطيع أن نلقى به القول الفصل ، مطمئنين واثقين تلك هي مسألة النقط والاعجام فهذه النقوش التي عرضناها جميعا خالية من النقط خلوا كاملا فليس فيها حرف واحد منقوط ، وكذلك كانت الكتابة النبطية التي يرجح أن الخط العربي مشتق منها ومتطور عنها ، لا تعرف النقط والاعجام ، وقد كان من الجائز أن نقف عند هذا الحد الذي أوقفتنا عنده هذه النقوش وأن نردد مع جميع الباحثين قبلنا بأن الكتابة العربية في أول نشأتها غير منقوطة بل أنها استمرت خالية من النقط حتى زمن عبد الملك بن مروان ولكن وجها آخر استبان لنا في أثناء الدراسة فوجدنا حقا علينا أن نعرضه ، وخلاصة ذلك اننا عثرنا في خلال بحثنا على قول أورده القاضي أبو بكر بن

(١) الصاحبي في فقه اللغة ابن فارس اللغوي ص ١٠ ط ١ / ١٩١٠ المكتبة السلفية .
(٢) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، الدكتور ناصر الدين الأسد ص ٣٤ مكتبة الدراسات الأدبية رقم ١ القاهرة سنة ١٩٦٢ . .

العربي في كتابه « العواصم من القواصم » ، قال : « وكان نقل المصحف الى نسخة على النحو الذي كانوا يكتبونه لرسول الله ﷺ كتابة عثمان وزيد وأبي وسواهم من غير نقط ، وللضبط واعتمدوا هذا النقل ليبقى بعد جمع الناس على ما في المصحف نوع من الرفق في القراءة باختلاف الضبط » . وقد استوقفنا كلام ابن العربي على غموضه وحاجته الى فضل بيان يوضحه ، فلما قرأنا ما سنعرضه من كلام ابن الجزري كان كثير فوضح قال : « ثم ان الصحابة رضي الله عنهم لما كتبوا تلك المصاحف ، جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العرضة مما صح عن النبي ﷺ وانما أخذوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهه بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين : المعقولين المفهومين فان الصحابة رضوان الله عليهم تلقوا عن رسول ان ﷺ ما أمر الله تعالى بتبليغه اليهم من القرآن : لفظه ومعناه جميعاً ولم يكونوا ليسقطوا شيئا من القرآن الثابت عنه ﷺ ولا يمنعوا من القراءة به » . وقول ثالث روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « جردوا القرآن ليربو فيه صغيركم ولا ينأى عنه كبيركم » ... وقد ذكر الزمخشري شارحا قول ابن مسعود أنه « أراد تجريده من النقط والفواتح والعشور لئلا ينشأ نشء فيرى أنها [1] من القرآن » وهذه الأقوال الثلاثة يفهم منها أن النقط أمر قد كان معروفا قبل كتابة مصحف عثمان ثم عدل عنه عدلا مقصودا وجرد القرآن منه تجريدا متعمدا والقول في التجريد في القرآن طويل ونحن نعلم أن من ضمن ما يقصد من التجريد أن يكتب القرآن وحده في الصفحة لا يختلط به شيء من التفسير أو الحديث أو القصص أو أية كتابة أخرى لئلا يختلط على القارىء ، فيتوهم أن جميع المكتوب هو من القرآن الكريم ، ولكن كلام الزمخشري ، وابن العربي ، وابن الجزري ، واضح وضوحا لا لبس فيه ، وهو ينص على أن « تجريد القرآن » يتضمن تجريده من النقط أيضا . وقد يكون المقصود من النقط هنا « النقط بالنحو » أي نقط أبي الأسود الدؤلي . وهو بيان حركات أواخر

(١) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، ناصر الدين الاسد ص ٣٥ .

الكلام بوضع نقطة فوق الحرف للدلالة على الفتحة ونقطة تحت الحرف للدلالة على الكسرة ، ونقطة بين يدي الحرف للدلالة على الضمة ، بحبر يخالف لونه لون حبر الكتابة نفسها » . .

ويقول ناصر الدين الأسد [1] : والجدير بالذكر أن اهمال النقط كان شائعا في العهود الاسلامية قرونا متوالية ، بل لقد عد بعضهم الأعاجم والنقط مما لا يليق في الكتب والرسائل لأنه يدل على أن الكاتب يتوهم فيمن يكتب اليه الجهل وسوء الفهم وأخيراً يتساءل ويقول فان قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية وان الخليل أول من تكلم في العروض قيل له نحن لا ننكر ذلك بل نقول ان هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس ثم جددهما هذان الامامان . .

ثم يعود الدكتور الأسد فيقول :

« وحسبنا ما قدمنا عن النقط ونحن أول من يعرف أن هذا كله لا يقوم وحده دليلا قاطعا على وجود النقط قبل الاسلام » . .

ويقول الشاعر المعروف ، معروف الرصافي [2] في محاضراته عن تاريخ الآداب العربية بعد أن تحدث عن النحو ونشأته يقول : « ولا شك أن الاعراب كان موجودا في كلام جميع طبقات العرب في العصر الجاهلي بدليل الشعراء حتى العبيد كعنترة مثلا كانت لغته الفصحى » . .

وقفة مع هذه الآراء

وقبل أن نعرض رأينا في تاريخ النحو ، نحب أن نقف قليلا مع الآراء

(١) نفس المرجع السابق ص ٤٧ .

(٢) دروس في تاريخ آداب اللغة العربية القاها معروف الرصافي في جامعة بغداد وطبعها وقدمها صلاح خالص سكرتير اتحاد الأدباء العراقيين ص ١٠٩ طبعة بغداد . .

السابقة ، فأصحاب الرأي الأول لا نحتاج الى الوقوف معهم لأنهم لم يذكروا شيئا في هذا الشأن . .

أما القائلون بقدم النحو فلنقف معهم قليلا . .

أولا : رأي ابن فارس : جاء ابن فارس برأي غريب لم يذكره أحد قبله أو بعده ولا يقاس على رأي يخالف المجموع هذا من جهة ، ولا يذكر دليلا واحداً ليؤيد به رأيه من جهة أخرى . .

أما ما رواه الدكتور ناصر الدين الأسد بأن الحركات كانت معروفة قبل الاسلام وقبل تشكيل المصحف ، فاننا نرد عليه بأن عملية الشكل عملية اضافية تلت عملية النحو وقد ربط الدكتور الأسد بين الاثنين بين نشأة النحو والتشكيل .

ثانيا : وضع أبو الأسود شكل القرآن في عهد معاوية بن أبي سفيان ولو كان هذا العمل مكروها حقا فكيف سمح معاوية لأبي الأسود أن يقوم به ؟ وكيف تجرأ معاوية فسمح لأبي الأسود أن يشكل القرآن فيخالف بذلك الصحابة والمسلمين . وقد عاصر معاوية كثيرا من الصحابة الذين لهم شأنهم وقيمتهم ، أمثال : عبدالله بن عباس وعمرو بن العاص وطلحة ابن الزبير وكثير من أمثالهم . ألم تر كيف نشأ الحديث ؟ ومتى بدأ في تدوينه ؟ ألم ينشأ في عصر عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ ؟ لأن الرسول نهى عنه فكيف يسمح بالكتابة فوق القرآن وخلطه وهو كتاب الله وليس يدانيه أي شيء في الوجود . .

معنى هذا لا يمكن أن يسمح لأبي الأسود أن يقوم بهذا العمل ، لو كان مكروها ، كما يذكر الأستاذ ناصر الدين الأسد ، لأن أبا الأسود من التابعين ، وليس بعيدا عن عصر الرسول ، فهو عاصر الرسول عليه السلام ولكنه لم يره وانما شاهد عمر بن الخطاب وصاحب عثمان وقابل عليا ومعاوية وغيرهم من الخلفـــاء . .

أما رأي الأستاذ معروف الرصافي الذي يذكر فيه أن الاعراب كان موجودا

عند العرب فهذا رأي خاطىء لأنه لم يكن اعرابا كالمفهوم الذي يريده ، وانما كانت الفصحى هي اللغة الشائعة ، والتي نزل القرآن بها ، ويستشهد الأستاذ الرصافي بالشعراء العبيد كعنترة مثلا .. وحقا كانوا يجيدون الفصحى .. ولكن عنترة لم يكن يعرف الاعراب عندما يتحدث ،وانما كان فصيحا كالعرب الآخرين الذين ظلوا حينا من الدهر يتوارثون لغتهم جيلا بعد جيل وطريقتهم في ذلك المحاكاة والتقليد.ولم تكن لهم كتب معروفة كما لم تكن للغة علوم تخوض في أساليبها ، وكان عماد العرب هو حسهم المرهف وذوقهم الفطري السليم حيث نطقوا بلغتهم ولم يكونوا في حاجة الى قواعد يضبطونها وعندما يشب الناشىء تملأ العبارات الصحيحة سمعه ويطبع بها لسانه فتجود قريحته بسليم العبارات والتراكيب السليمة حيث كان يسمع والده وقبيلته ووالدته تفصح بأدق العبارات الصحيحة وهو طفل في مهده فمن الطبيعي أن يستيقظ وينمو ويترعرع بأسلوب فصيح ، وهكذا بقي العرب في جزيرتهم حتى أنار الاسلام جزيرتهم فانظر ما جاء به الأدب الجاهلي فكله تراث فصيح اللغة :

اذن كانت اللغة السائدة هي اللغة الفصحى ولم يكن العرب يعرفون الاعراب ولا يدرون لماذا رفعوا هذه الكلمة أو نصبوها انما هي سليقة لغوية شبوا عليها وترعرعوا معها . .

* * *

رأينا في تاريخ النحو العربي

قبل أن نتحدث عن تاريخ النحو العربي ، وظروفه ، يجب علينا أن نفرق بين عملين قام بهما أبو الاسود الدؤلي ، حيث اختلط الامر بين الكتاب المحدثين خاصة ، حتى وصل بالبعض أن ينكر عمل أبي الاسود « تأليف النحو » واعتبر العمل الثاني . « نقط المصحف » العمل الوحيد له [1] كما اعتبر بعضهم نقط

(١) المدارس النحوية شوقي ضيف ص ١٦ وانظر مقال الاستاذ ابراهيم مصطفى « مجلة كلية الاداب بجامعة القاهرة ج ١ ص ٤ سنة ١٩٤٨ م .

المصحف البذرة الاولى في غرس النحو العربي [1] ..

أما القدماء فلم يقعوا في هذه الاشكالات ، فقد فرقوا بين العملين أذ رووا عندما ذكروا أبا الاسود الدؤلي ونشأة النحو بانه [2] : « أول من أسس العربية ونقط المصحف » ..

وقبل الخوض في هذا الموضوع نحب أن نقسم أثار أبي الاسود الدؤلي النحوية إلى قسمين منفصلين من الناحية التاريخية على الاقل ، وان كانا في الواقع عملا واحداً من حيث هدفيهما ، لأن الملاحظات النحوية واعراب اواخر الكلم كليهما من معين واحد هو معين النحو العربي ..

الأثر الأول : — نريد بالاثر الاول تأليف النحو العربي وهو الاثر المفقود الذي تحدث عنه الرواة والمؤرخون ، اذ اتفق معظمهم ، على ان النحو نشأ في عصر الامام علي رضى الله عنه ، او هو نفسه صاحب الفكرة وابو الاسود المنفذ والمهم في رأينا هنا الناحيةالتاريخيةأما الرجل الذي أنشأ النحو فأفردنا له بابا خاصاً.

فهذا هو أبو الطيب اللغوي [3] يقول : « كان أبو الاسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي عليه السلام » ..

وهذا الزبيدي يقول [4] : سئل أبو الاسود الدؤلي عمن فتح له الطريق إلى وضع النحو وارشده اليه فقال : تلقيته من علي بن أبي طالب رحمه الله ..

وهذا ابن النديم يقول [5] : « زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي

(١) اللغة والنحو حسن عون ص ٢١ وانظر مقال الاستاذ أحمد مكي الانصاري في هذا الشأن ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة حـ ٢٤ سنة ١٩٦٤ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين الزبيدي ص ١٣ والنحويون البصريون للسيرافي ص ١٢ ، والأغاني جـ ١١٢ ص ٢٩٩ .

(٣) مراتب النحويين ص ٦ وانظر التحفة البهية والطرفة الشهية للسيوطي ص ٤٩ والاغاني جـ ١٢ ص ٢٩٩ .

(٤) طبقات الزبيدي ص ١٣ وكثيرا من الكتب ذكرت هذه الأخبار ورواها من جاء بعدهم .

(٥) الفهرست ص ٥٩ .

الأسود الدؤلي وان أبا الاسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام » ..

وهذا أبو بركات الانباري [1] يقول عن تاريخ وضع النحو : « ان أول من وضع علم العربية واثبت قواعده وحد حدوده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأخذ عنه أبو الاسود الدؤلي » ..

واما القفطي فيقول [2] : « الجمهور من أهل الرواية على أن أول وضع النحو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه » ..

والخلاصة التي نصل اليها على ضوء الروايات السابقة هي ان النحو العربي ألف وظهر في عهد الامام علي بن أبي طالب اما بعمل من الامام نفسه او بتنفيذ من أبي الاسود الدؤلي ..

ولنا أن نتساءل : متى ألف النحو ؟ ..

بويع الامام علي رضى الله عنه بالخلافة في ٢٥ ذي الحجة سنة ٣٥ هجرية وكان الامام وقتها في المدينة المنورة . فعزل الامام أكثر ولاة عثمان بن عفان. والذي يهمنا في هذا الشأن ما حدث في مدينة البصرة ، — وهي المدينة التي نشأ فيها النحو العربي ، — وكان عبدالله بن عامر واليا عليها من طرف الخليفة عثمان ، فعزله الامام علي بن أبي طالب ، وولى مكانه عثمان بن حنيف وذلك في اوائل سنة ٣٦ هـ [3] وعلى القضاء أبا الاسود الدؤلي ثم قامت الفتنة ، اذ اتهم علي بقتل عثمان بن عفان ، لأن قتلة عثمان التفوا حوله ، وجاءت عائشة زوج الرسول ومن معها إلى البصرة تحث المسلمين هناك ضد الامام علي لقتاله. « وهي الحادثة التي سميت بمعركة الجمل » ، ولما علم الامام بالامر حاول أن

(١) نزهة الالباب ص ١٣ .

(٢) انباة الرواة القفطي جـ ١ ص ٥ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك ، الطبري جـ ٤ ص ٥٤٣ ، وانظر مختصر التاريخ البصرة على ظريف الأعظمي ص ١٤ . .

يتفادى الامر وأن يلحق المحرضين بالطريق[1] ، ثم جاء الامام إلى البصرة ونزل في مكان يقال له الزاوية وهي أول مرة يزور فيها البصرة ويتم اللقاء بينه وبين أبي الاسود الدؤلي ، ثم حدثت معركة الجمل وانتصر فيها الامام انتصاراً رائعاً . وانتهت هذه الحادثة بمكان يقال الخريبة في يوم الخميس ٢٢ جمادى الاخره سنة ٣٦ هـ عين بعدها على البصرة ابن عمه عبد الله بن عباس والياً ، وزياد بن أبيه على الخراج وبيت المال [2] وبقي ابو الاسود قاضياً على البصرة (مكث الامام في البصرة مدة شهرين تقريباً وذلك عندما خرج في وداع عائشة يوم السبت في غرة رجب [3] سنة ٣٦ هـ) .. ثم ذهب بعد ذلك إلى الكوفة ..

أما اللقاء الثاني بين الامام وأبي الاسود الدؤلي فقد كان في عام ٣٧ هـ ايضاً في صفين غيران الطبري يرى أن أبا الاسود لم يذهب إلى صفين بل كلف بادارة البصرة خلفاً لابن عباس [4] « وسنتحدث عن ذلك تفصيلاً في حينه »..

وبناء على ما ذكرته الروايات السابقة والمتشابكة بشأن النحو العربي : أذن نستطيع أن نقرر أن النحو العربي نشأ في الفترة التي زار فيها الامام علي البصرة وذلك ما بين ٢٢ جمادى الاخره وأوائل رجب لسنة ٣٦ هـ ، وقد استنكر بعض الباحثين هذا الرأي وقال : كيف حدث ذلك ؟ وقد جاء الامام علي البصرة محارباً ومقاتلا ومشغولا فنقول له نعم : حدث ذلك ولكن اللقاء العلمي تم بين الامام وأبي الاسود بعد النصر مباشرة وكان لقاء لا يحتاج إلى وقت ، بل يحتاج إلى موافقة ، وتبادل الاراء خدمة في الدين واللغة ، حيث كان أبو الاسود الدؤلي مجهزاً لهذا العلم قبل مجيء الامام وانتظر حتى زالت الحرب وعرض الأمر على الامام فوافقه ..

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٧٧ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٤٣ وانظر التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة الدكتور صالح العلي ص ٢٩٦ .

(٣) مختصر تاريخ البصرة علي الاعظمي ص ٢٢ مطبعة الفرات سنة ١٩٢٧ بغداد .

(٤) وقعة صفين نصر بن مزاحم تحقيق عبد السلام هارون ص ٢٢ ط ٢ ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٦٢ . .

وكان هذا اللقاء سريعاً أيضاً ، بدليل الروايات المتشابكة التي لم تستطع هي الاخرى أن تشير به إلى شيء من التفصيل أو تقف عنده وقفة طويلة ..

ونجد ايضاحا أكثر من ذلك عند ابن النديم الذي شاهد أربعة أوراق في النحو من عمل أبي الاسود الدؤلي .. اذن نصل إلى نتيجة هامة وهي أن العمل كان قليلا جداً من حيث الكم . ولا يحتاج من الامام وأبي الاسود وقتاً لدراسته ، فأربع الورقات لا تحتاج إلى أيام لدراستها بل من الممكن أن تدرس في ساعات وهذا ما حدث فعلا ..

أما اللقاء الثاني فكان لقاء سريعاً حتى اننا نشك في هذا اللقاء أنه تم لاننا لم نجد في ديوانه ما يشير إلى هذا اللقاء ..

الأثر الثاني : ونعني به نقط المصحف الكريم وهو مرتبط بالوالي زياد بن أبيه عند ما كان واليا على البصرة لان معظم الرواة ذكروا هذا العمل وارتباطه به ، وهذه الروايات كالآتي :

قال أبو الطيب اللغوي [1] : « ولم يزل أبو الاسود ضنيناً بما أخذه عن علي عليه السلام حتى قال له زياد قد فسدت السنة الناس » ..

وهذا هو الزبيدي يذكر الخبر بشيء من التوضيح [2] : « وكان لا يخرج شيئاً أخذه عن علي كرم الله وجهه إلى أحد ، حتى بعث اليه زياد ، ان يعمل شيئاً يكون للناس اماما ، ويعرب كتاب الله ، فاستعفاه حتى سمع قارئاً يقرأ : «أن الله بريء من المشركين ورسوله » فوافق أبو الاسود ورجع الى ذياد وطلب منه كاتباً لقنا فأتي بكاتب من عبد القيس فلم يرضه فاتي بآخر قال ابو العباس

(١) مراتب النحويين واللغويين ص ٦ . طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٦ .

(٢) طبقات النحويين للزبيدي ص ١٤ والنحويين البصريين السيرافي ص ١٢ والفهرست لابن النديم ص ٥٩ ، أعيان الشيعة السيد محسن الامين ج ١ ص ٢١٦ ، بغية الوعاة للسيوطي ص ٣٦٠ ونزهة الالباب الانباري ص ١١ ، والمحكم في نقط المصاحف ص ٣ . والمقنع في رسم مصاحف الأمصار للداني ص ١٣٢ ، تحقيق اوتربرتزل استنبول سنة ١٩٢٣ .

احسبه منهم » « فقال له أبو الاسود : اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على اعلاه فان ضممت فمي فنقط نقطة بين يدي الحرف وان كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف (فان اتبعت شيئاً من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين) ..

وهذه رواية القفطي [1] تزيد الموضوع أيضاحا اذ يقول : « ان زيادا سمع بشيء مما عند أبي الاسود الدؤلي ، ورأى اللحن قد نشأ فقال لأبي الاسود : اظهر ما عندك ليكون للناس ، أماما فأمتنع من ذلك وسأله الاعفاء ، حتى سمع أبوالاسود قارئاً إلى آخر الرواية التي ذكرتها سابقاً » ..

والخلاصة التي نصل اليها بناء على روايات الأثر الثاني « نقط المصحف » نصل الى حقيقتين : الاولى : ان نقط المصحف نشأ على يد أبي الأسود الدؤلي عهد الوالي زياد بن أبيه . الثانية : كان أبو الاسود قد عمل شيئا في النحو العربي عهد الامام علي ولم يظهره الا في حالة اضطرارية عندما رأى اللحن فاشيا ورغبة في تحقيق امل زياد بن أبيه ..

وهذه الروايات التي ذكرت في هذا الشأن صادقة وذلك لسبب بسيط ، وهو لماذا اختـــار زياد بن أبيه أبا الأسود الدؤلي ليقوم بتشكيل المصحف؟ ولماذا رفض أبو الأسود عرض زياد في أول الأمر ؟ . .

والاجابة على السؤالين السابقين يحلان لنا الاشكال : اختار زياد أبا الأسود الدؤلي ليقوم بتشكيل المصحف لأن أبا الأسود كان له علم بالنحو العربي ، كما يقول القفطي .. ورفض أبو الأسود في بدء الأمر هذا العرض . وقد وجدنا أثناء دراستنا لسيرة أبي الأسود أسبابا تؤيد هذا الرفض وهي أن زيادا عندما كان على الخراج وبيت المال كان يسبع أبا الأسود عند علي ويقع فيه ويبغي عليه ..

(١) أنباة الرواة للقفطي ج ١ ص ٥ .

وقال أبو الأسود في زياد :

رأيت زيادا ينتحيني بشرةٍ [1] ... وأُعرضُ عنه وهو بادٍ مقاتلُه
تعودها فيما قضى مـــن شبابـــه ... كذلك يدعو كل امرىءٍ أوائله

وفي قصيدة أخرى يقول :

نبئتُ أن زياداً ظـــلَّ يشتمني ... والقول يكتب عند الله والعمل
وقَدْ لقيت زيادا ثم قلت لـــه ... وقبل ذلك ما خبَّتْ به الرسل
حتى م تسرقني في كل مجمعـــةٍ ... عِرضي وأنت اذا ما شئتَ منتقل
كلُّ امرىءٍ صائر يوماً لشيمته ... في كل منزلة يبلى به الرجـــل

اذن كان بين زياد وأبي الأسود عداء ، مما جعل الدؤلي يرفض التعاون مع زياد ، حتى سمع أبو الأسود اللحن بنفسه في الطريق ، كما يقول الرواة ، ووافق على نقط المصحف . ثم هناك سبب آخر جعل أبا الأسود يوافق على نقط المصحف ، وهو عامل اجتماعي وسياسي في الوقت نفسه ، أما السياسي فقد تغير الوضع السياسي كلية . فقد كان أبو الأسود قاضي الامام على البصرة ومن شيعته ، ولما جاء الحكم الأموي ، عزل أبو الأسود عن وظيفته ، وشح رزقه ، مما جعله يهادن زياد بن أبيه ويحاول أن يستميله في قضاء بعض الحوائج وفي ذلك نرى أشعارا لأبي الأسود تدل على ذلك اذ يقول :

رأيت زيادا صَدّعني بوَجهه ... ولم يك مردوداً عن الخير سائله
ينفذ حاجات الرجال وحاجتي ... كداء الجوى في جوفه لا يزايله
فلا أنا ناس ما نسيت فـــآيسٌ ... ولا أنا راء ما رأيت ففاعلـــه

(١) مختصر تاريخ البصرة ص ٢٨ والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة ص ٢٩٦ ف

ونعتقد أن هذين السببين (اللحن في القرآن) والوضع (السياسي الجديد) هما اللذان جعلا أبا الأسود الدؤلي يوافق على نقط المصحف وذلك في الفترة التي عين فيها زياد بن أبيه واليا على البصرة وذلك عام (٤٤ ــ ٥٣ هـ) [١] ، وهي الفترة التي نقط فيها المصحف ولم نجد تاريخا ثابتا لهذا العمل أو للتعاون الذي تم بين أبي الأسود وزياد بن أبيه حتى نصل الى التاريخ الحقيقي لنقط المصحف الا أننا وصلنا الى أنه ما بين العشر السنوات التي حكم فيها زياد البصرة ..

* * *

(١) مختصر تاريخ البصرة ٢٨ والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة ص ٢٩٦ ..

« الفصل الثاني »

« الرجل »

(الفصل الثاني)

اسمه وكنيته :

اختلف أكثر من كتب عن الرجل الذي نتحدث عنه في اسمه ، ولكننا نلاحظ أن الخلاف لم يكن جذريا ، وانما كان خلافا في التقديم والتأخير ، فبعضهم ذكر الاسم كاملا والبعض أسقط منه شيئا والآخر اختصره اختصارا شديداً ، والنادر خرجوا على اجماع المؤرخين ، ونستطيع ان نقسم هذه الروايات الى اربعة أقسام ، حتى يتبين لنا موطن الاختلاف :

١ — روايات ذكرت الاسم كاملا [١] « ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يحمر بن نفاثة بن عدي بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار » . .

٢ — روايات أسقطت بعض الأسماء وجاءت به كالآتي [٢] : « ظالم بن عمرو

---

(١) انظر خزانة الأدب البغدادي ج ١ ص ٢٥٦ المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٧ هـ وذكره الجاحظ في البيان والتبيين ج ١ ص ١١٠ تحقيق عبد السلام هارون والأغاني لأبي فرج ج ١١ ص ١٣٨ . .

(٢) أخبار النحويين البصريين ص ١١ ومخطوط على شرح كتاب سيبويه للسيرافي ج ١ ص ٣٠٧ موجود في دار الكتب المصرية بالقاهرة ومكتوب بخط واضح كما ذكر هذا الاسم بهذا الاختصار مع بعض التقديم والتأخير ابن سعد في الطبقات الكبرى وتهذيب التهذيب للعسقلاني ص ١٢ ، وانباة الرواة للقفطي ج ١ ص ١٣ وسمط اللآلىء ص ٦٦ للوزير الأونبي . .

بن سفيان بن عمرو بن حلس بن نفاثة بن عدي بن الدئل بن بكر بن كنانة » . .

٣ – روايات ذكرت الاسم مختصرا وجاءت به كالآتي [٣] : « ظالم بن عمرو بن سفيان » . .

٤ – روايات ذكرت اسمه خلافا لاجماع المؤرخين وكتاب السير وهذه الروايات تذكر اسمه كالآتي [١] : « عثمان بن عمرو بن سفيان بن عمر بن جندب بن يعمر بن حلس بن سليمان بن عمر » ، ورواية أخرى ذكرته بأنه ظالم بن سراق ، ظالم بن ظالم وعمرو بن ظالم وعمر بن سفيان .. وذكر صاحب المرصع اسم أبي الأسود الدؤلي وهو :

« ظالم بن عمرو الدئلي » [٢] . .

ويقول الأستاذ عبد الكريم الدجيلي أنه شاهد مخطوطا في مكتبة الأوقاف ببغداد رقم ٩٧٢ لمجد الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ وبه اسم أبي الأسود الدؤلي وهو :

« ظالم بن عمرو بن سفيان بن يعمر » . .

كما شاهد كتاب الرجال للشيخ الطوسي وهو مخطوط في مكتبة الآثار رقم ٨١٢ ، وهذا الكتاب يعرف أحيانا بكتاب الأبواب . .

---

(١) معجم الشعراء للمزرباني ص ٦٦ واصلاح المنطق لابن السكيت ص١٦٥ وطبقات القراء لابن الجزري ١ ص ٣٤٦ ، لسان العرب ج ١ ص ١٣٣ ، والنجوم الزاهرة لجمال الدين الأتابكي ج ١ ص ١٨٤ مصر ١٩٢٩ . .

(٢) أنباة الرواة للقفطي ج ١ ص ١ وتهذيب الأسماء واللغات محي الدين النووي ج ٢ ص ١٧ ، ص ١٧٦ طبعة دمشق وتهذيب التهذيب للعسقلاني ص ١٢ . .

(٣) المرصع لمبارك بن محمد بن عبد الكريم ص ١١ ، ص ٣٦٢ ط ١ ديمر ١٨٩٦ . .

ويقول الأستاذ الدجيلي :

« انتقل من أخي عبد الحميد الدجيلي الى هذه المكتبة » .. وهذا الكتاب نادر الوجود وطبيعي أن هذه المخطوطات موجودة في بغداد ولم نستطع الرجوع اليهـــا . .

(١) خزانة الأدب البغدادي جـ ١ ص ٢٥٦ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٧٥ . .

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١١٠ ، الأغاني جـ ١١ ص ١٣٨ . .

(٣) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١١ ، وانظر خطوط على شرح كتاب سيبويه جـ ١ ص ٣٠٧ . .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ٩٩ . .

(٥) أسد الغابة لابن الأثير جـ ٣ ص ٦٩ ، طبقات النحويين للزبيدي ص ٥ ، مخطـــوط . .

(٦) — (٧) انباه الرواة للقفطي جـ ١ ص ١٣ . .

(٨) لسان العرب لابن منظور جـ ١١ ص ٢٣٣ . .

(٩) ديوان أبي الأسود الدؤلي تحقيق الشيخ محمد آل ياسين ص ٢٣٣ جـ ١ بغداد ١٩٦٤ . .

(١٠) سمط اللآلىء للوزير البسكري ص ٦٦ . .

(١١) اصلاح المنطق ص ١٦٥ ، وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري جـ ١ ص ٣٤٦ . .

(١٢) معجم الشعراء ص ٦٦ والنجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٨٤ . .

(١٣) انباه الرواة القفطي جـ ١ ص ١٥ وروضات الجنات جـ ١ ص ٣٢١ . .

(١٤ : ١٦) تهذيب الأسماء واللغات جـ ٢ ص ١٧٥ ، وتهذيب التهذيب ص ١٢ والمؤتلف والمختلف الآمدي ص ٢٢٤ . .

الجدول التالي يبين التقديم والتأخير والاختصار في اسم أبي الأسود الدؤلي

الروايات	الاسم	الأب	الجد الاول	الثاني	الثالث	الرابع	الخامس	السادس	السابع	الثامن	التاسع	العاشر ١١	١٢	١٣	١٤
١	ظالم	عمرو	سفيان	جندل	يحمر	حلس	نفاثه	عدي	بكر	عبد مناه	كنانة	خزيمة	مدركه	الياس	نزار
٢ — ٣	ظالم	عمرو	سفيان	يعمر	حلس	نفاثه	عدي	الدئل	بكر	عبدمناه	كنانة	خزيمة	مدركه	الياس	نزار
٤	ظالم	عمرو	سفيان	عمرو	حلس	نفاثه	عدي	الدئل	بكر	كنانة					
٥	ظالم	عمرو	سفيان	عمرو	حلس	نفاثه	عدي	الدئل	بكر	عبد مناه	كنانه				
٦	ظالم	عمرو	سفيان	جندل	يعمر	حلس	نفاثه	عدي	الدئل	بكر	عبدمناه	كنانه			
٧	ظالم	عمرو	سفيان	جندل	عمرو	عدي	الدئل	بكر	كنانه						
٨	ظالم	عمرو	سفيان	جندل	عمرو	عدي	عدي	الدئل	بكر	كنانة					
٩	ظالم	عمرو	سفيان	جندل	عمرو	عدي	الدئل	بكر	عبدمناه	كنانه					
١٠	ظالم	عمرو	سفيان	بكر	الدئل	بكر	عبدمناه	كنانه	خزيمة	مدركة					
١١	ظالم	عمرو	سفيان	كنانة											
١٢	ظالم	عمرو	سفيان	يعمر											
١٣	ظالم	عمرو	سفيان	بكر	الدئل	بكر	عبدمناه	كنانه	خزيمة	مدركه					
١٤	ظالم	سراق													
١٥	ظالم	سارق													
١٦	ظالم	ظالم													

مراجع هذا الجدول في الصفحة التالية :

وبعد أن استعرضنا الروايات السابقة التي خصت اسم أبي الأسود نجدأكثرها متفقة على أنه ظالم بن عمرو بن سفيان . .

أما الاسم الذي اشتهر به فهو أبو الأسود الدؤلي . أما الدؤلي ، فهو من الدئل أحد أجداد أبي الأسود والنسبة اليه دؤلي . .

وأما المعنى اللغوي لهذا الاسم فيقول : ابن منظور [1] في مادة دأل : « الدأل : الختل . وقال ابن الاعرابي : الدأل : عدو متقارب ، قال ابن بري : الدأل دويبة والدئل : دويبة تشبه الثعلب ، وقال كعب بن مالك الأنصاري في جيش أبي سفيان الذي ورد المدينة في غزوة السويق اذ أحرقوا النخيـــل ثم انصرفوا :

جاءوا بجيش لو قيس معرسـه ... بما كان الا كمعرس الدئـل
عارق النسل والثراء ومـــن ... أبطال بطحاء والقنا الأسل

« أراد موضع نزولهم ليلا كبيت ابن عرس » . .

وقال أحمد بن يحي : لا نعلم اسما جاء على ــ فعل ــ غير هذا يعني دئل .

وقال الجوهري : قال الأخفش : دألي المسمى بهذا الاسم نسب أبو الأسود الدؤلي الا أنهم فتحوا الهمزة على مذهبهم في النسبة استثقالا لتوالي الكسرتين مع ياء النسب كما ينسب الى نمر : نمري ، قال : وربما قالوا : أبو الأسود الدولي ، فقلبوا الهمزة اذا فتحت وكان قبلها ضمة فتخفيفها ان تقلبها واواً محضة ، كما قال في جؤن ــ جون . .

(١) لسان العرب مادة دئل ابن منظور الافريق المصري مجلد ١ ص ٢٣٣ ، ص ٢٣٢ بيروت ١٩٥٦ م . وذكر هذا الخبر أي معنى الدؤل محي الدين النوري في كتابه تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١٧٥ طبعة دمشق ولم يذكر تاريخ الطبعة ويناقش الاسم ويرى الأصح ضم الدال وتكتب الدؤلي ، وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ١٠٧ . .

وقال ابن الكلبي : هو أبو الأسود الديلي قلبت الهمزة ياء حين انكسرت فاذا انقلبت ياء كسرت الدال لتسلم الياء ، كما نقول « قيل وبيع » . .

وقال ابن دريد [1] « الدئل : دويبة تفحص التراب وتدير داره وتكمن فيهـــا » . .

وقال السيرافي [2] « فان أهل البصرة يقولون الدؤلي بضم الدال وفتح الهمزة ، وهو من الدؤل بن بكر بن كنانة ، وفتحت الهمزة وكما قالوا في النمر النمري وكان ابن حبيب يقول الديل بن كنانة والديل مهموز مضموم على مثال فعل الديل : الديل بن ملحم بن غالب بن ينبع بن الهون بن جزيمة بن مدركة وجماعة من النحويين منهم الكسائي . .

يقول الديلي « أخبرنا أبو بكر أحمد بن أبي سهل الحلواني » ، قال سمعت أبا سعيد المحسن بن الحسين السكري يقول : حدثنا العباس بن محمد الجمحي ، قال حدثنا محمد بن سلام بن عبيدالله قال : قال يونس هم ثلاثة الدؤل من حنيفة والديل في عبد القيس ساكن الياء والدول في كنانة رهط أبي الأسود ، والمهموز فهو أبو الأسود الدؤلي هذا قول علي بن عمر من البصريين . .

كنيته :

لم تذكر الكتب التي نقلت لنا أخباره ، أنه كان أسود اللون ، كما لم تذكر أن له ولدا يدعى الأسود ، حتى الذين هجوه لم يذكروا هذه الصفة . ولكننا وجدنا بعض الأخبار تشير الى تلك الصفة وعلاقتها بكنيته ، فقد ذكره أبو العلاء

(١) الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٤ في الهامش ، تحقيق عبد السلام هارون سنة ١٩٥٨ م . .

(٢) شرح السيرافي على كتاب سيبويه مخطوط ج ١ ص ٣٠٧ ، ص ٣٠٨ موجود في دار الكتب المصرية وهو من ستة أجزاء كتب بخط واضح للشيخ موافق الدين عبد اللطيف البغدادي . .

المعري [1] عندما تحدث عن السود في رسالة الغفران ، كما ذكر [2] محقق ديوانه أنه وجد ثلاثة أبيات من الشعر لها علاقة بهذه التسمية وهي للشاعر ابن شعير يهجو بها أحد النحاة ويقول فيها :

لو تلففتَ في كساء الكسائي ... وتفريت فـروة الفـراء
وتخللتَ بالخليـل وأضحـى ... سيبويه لديك عبد سبـاء
وتلبستَ من سـواد أبـي ... الأسود ثوبا يكنى أبا السوداء
لأبى الله أن يـراك ذوو ... الألباب الا في صورة الأغبياء

وبناء على هذه الأخبار السابقة نجد أنه من الطبيعي كان أسود اللون والا كيف جاءت اليه هذه التسمية ، والظاهر أن المؤرخين الذين ذكروا أخباره لم يهتموا بهذه الصفة ولم يذكروا عنها شيئاً وأعتقد أن أبا الأسود الدؤلي نفسه شجع هذا اللقب أكثر من تشجيعه لاسمه لأن اسمه ظالم يتنافى مع وظيفته التي تتطلب العدل ، وهي وظيفة القاضي ، فكيف يكون القاضي ظالما ولو من ناحية الشكل في الاسم ؟ . .

فرغب في مناداته بأبي الأسود خيرا من ظالم ، ومن الجائز أيضا أن الكنية غلبت على الاسم الأصلي تلقائيا ، ولا غرابة في ذلك حيث نرى كثيرا من الكنى والألقاب لكثير من العلماء غلبت الاسم الأصلي لصاحبها ، فمثلا أبو هريرة ، المعري ، البغدادي ، والبخاري ، القفطي ، الرماني ، الأصبهاني والجاحظ وغيرهم وهي ليست أسماءهم الحقيقة انما ألقاب وكنى اشتهروا بها وغلبت الاسم الحقيقي ، ونرى هذه الملاحظة واضحة بين الكتاب والأدباء المتأخرين . .

(١) رسالة الغفران للمعري ، تحقيق بنت الشاطىء ص ١٣٧ .
(٢) ديوان أبـي الأسود الدؤلي ، تحقيق عبد الكريم الدجيلي ص ٢٥٤ بغداد والابيات موجودة في انباة الرواة للقفطي ج ٢ ص ٥٣ . .

مولده ووفاته :

لم يتعرض المؤرخون والرواة للفترة الأولى من حياته ، اذ لم يذكروا تاريخا لمولده ، ولا المكان الذي ولد فيه . ولكن السيوطي [1] ذكر أنه ولـد في الجاهليـة . .

أما أكثر المؤرخين فذكروا سنة وفاته التي أقترنت بحدث هام وقع في البصرة ، وهو الطاعون الذي حل بها سنة ٦٩ هـ ، ومن هذه السنة ، نستطيع الوصول الى تاريخ ميلاده ، ونشير في هذا المجال الى بعض الروايات التي ذكرت سنة وفاته . .

يقول بن خلكان [2] : « توفي أبو الأسود الدؤلي في البصرة سنة ٦٩ هـ في طاعون الجارف وعمره خمس وثمانون سنة » ، وقيل انه توفي قبل الطاعون بعلة الفالج » وقيل أنه توفى في خلافة عمر بن عبد العزيز في صفر سنة ٦٩ هـ ، وقيل أنه توفي سنة ٦٧ هـ [3] . .

ونلاحظ من هذه الروايات أن أكثر المؤرخين ذكروا سنة وفاته ٦٩ هـ وله من العمر « ٨٥ سنة » . .

والبعض وهم القلة ذكروا سنة وفاته عام ٩٩ هـ [4] . ورواية واحدة فقط

(١) المزهر للسيوطي ج ٢ ص ٨٦ مطبعة صبح للقاهرة.
(٢) وفيات الاعيان ابن خلكان ص ٢١٨ ، وذكره الحافظ الذهبي في العبر في خبر من غبر ج ١ ص ٧٦ – ٧٧ ، تحقيق صلاح الدين المنجد والمزهر للسيوطي ج ٢ ص ٨٦ والاغاني للاصبهاني ج ١١ ص ١١٩ ، وطبقات القراء لابن الجزري ج ١ ص ١٧٣ تحت رقم ١١٢ ، وإنباة الرواة للقفطي ص ٢٠ ، والنجوم الزاهرة جمال الدين الاتابكي ج ١ ص ١٧٤ طبعة أولى مصر سنة ١٩٢٩ . .
(٣) بغية الوعاة السيوطي ص ٢٧٤ . .
(٤) الاغاني ج ١١ ص ١١٩ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢١٦ .

ذكرت سنة وفاته عام ٦٧ هـ ويقول ناقلها : « مات أبو الأسود الدؤلي سنة ٦٧ هـ بطاعون الجارف » [١] . .

واذا حققنا في هذه الروايات نجد أن الاختلاف الذي وقع فيه المؤرخون محصور بين سنة ٩٩ هـ ، ٦٩ هـ ، ٦٧ هـ . .

وواضح أن لبسا في القراءة بين هذه الأعداد لما فيها من تشابه ، وانني أرجح الرواية التي ذكرت سنة وفاته بتسع وستين هجرية للأسباب الآتية : —

اولا : أكثر الرواة وقفوا بجانب هذه السنة (٦٩ هـ) ولأن موت أبي الأسود اقترن بحادث هام وهو طاعون الجارف الذي وقع سنة (٦٩ هـ) حسبما ذكره كثير من المؤرخين :

١ — قال ياقوت الحموي [٢] : « مات أبو الأسود بالطاعون الجارف سنة ٦٧ للهجرة » . .

٢ — قال جلال الدين السيوطي : [٣] « مات سنة ٦٧ بطاعون الجارف » . .

٣ — وقال الجزري عند ذكر أبي الأسود الدؤلي [٤] « توفي في الطاعون الجارف سنة ٦٩ » . .

٤ — وقال ابن خلكان [٥] : « توفي أبو الأسود بالبصرة سنة ٦٩ هـ في طاعون الجارف » . .

٥ — وقال الذهبي [٦] « توفي أبو الأسود الدؤلي سنة ٦٩ هـ في أول طاعون

(١) بغية الوعاة للسيوطي ص ٢٤٧ .
(٢) معجم الأدباء ج ١٢ ص ٣٤ .
(٣) بغية الوعاة ص ٢٧٤ .
(٤) غاية النهاية في طبقات القراء ص ٤٣٥ .
(٥) وفيات الاعيان ص ٢٤١ .
(٦) تاريخ الاسلام للحافظ الذهبي ج ٢ ص ٣٨٣ .

الجارف بالبصرة » . .

ثانيا : الرواية التي ذكرها السيوطي في بغية الوعاة والتي قرنت وفاته بحادث الطاعون الذي وقع في ٦٧ هـ خاطئة لأن الطاعون لم يحدث كما نقل السيوطي ، ولو كانت هذه الرواية خالية من طاعون الجارف لما كانت موضع الانتباه . .

واعتمادا على هذه الروايات التي تحدد وفاته بسنة (٦٩ هـ — ٦٨٨ م) ، وعاش خمسة وثمانين عاما ، نجد أن أبا الأسود الدؤلي ولد قبل الهجرة بـ ١٦ سنـــة . .

الفترة الأولى من حياة الدؤلي :

تفرض الدراسة أن نقسم حياة الدؤلي الى فترتين متباينتين تمام التباين وخاصة من حيث الغموض والوضوح ، واذا استطعنا تحديد الفترة الأولى تاريخيا ، فقد تبدأ الفترة الأولى منذ ولادته ١٦ ق . هـ حتى هجرته الى البصرة التي حدثت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب . .

أين ولد أبو الأسود الدؤلي ؟ :

لم يذكر المؤرخون المكان الذي ولد فيه أبو الأسود ، ولكننا اذا بحثنا في منازل كنانة التي ينتسب اليها (نجد أن القلقشندي [١] يذكر هذه المنازل ويقول : « انها بطن من مضر من القحطانية وان ديارهم بجهات مكة المشرفة » ، ونحن نميل الى هذا الرأي ، ونرجحه ، لأن أبا الأسود الدؤلي يذكر حديثا عن عمر بن الخطاب يقول فيه : « أتيت المدينة فوافيتها وقد وقع فيها مرض . فهم يموتون

(١) نهاية الارب في معرفة أنساب العرب القلقشندي ج ١ طبعة بغداد سليمان الدخيل صاحب جريدة الرياض ببغداد . .

موتا ذريعا ، فجلست الى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فمرت به جنازة فأثنى على صاحبها خيرا ، فقال عمر رضي الله عنه وجبت ، ثم مر بأخرى فأثنى على صاحبها بشر فقال عمر وجبت فقال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين فقال : قلت كما قال رسول الله ﷺ «أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة فقلنا وثلاثة . فقال : وثلاثة فقلنا : واثنان ؟ فقال واثنان ولم نسأله عن الواحد » . .

ونستنتج من هذا الحديث ، أن أبا الأسود لم يكن في المدينة ، وخاصة في بدء حديثه الذي يقول فيه : « أتيت المدينة » ومعنى ذلك أنه لم يكن من سكان المدينة المنورة ، ووجدنا دليلا آخر على أنه ولد في ضواحي مكة لأن والده عمرو بن سفيان ، قدم مع من قدم لمحاربة الرسول في بدر وهؤلاء قدموا من مكة وضواحيها . .

وهذا دليل آخر فهو تابعي [1] لم ير الرسول . ومن الطبيعي لو أنه ولد في مكة أو المدينة لشاهد الرسول عليه السلام الذي قضى حياته متنقلا في المدينتين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) . .

أسرته : بنو كنانة :

ينتسب أبو الأسود الدؤلي الى أسرة عريقة ، أصيلة العروبة ، وهي كنانة ، التي تتصل بالنسب النبوي الشريف [2] . .

أما والدته ووالده فلم تذكر الكتب التاريخية ولا المصادر الأدبية ، شيئا كثيرا عن حياتهما ، اللهم الا رواية الأغاني ، التي روت أن والده عمرو بن سفيان قتل كافرا في احدى المعارك التي خاضها ضد الرسول عليه السلام . .

(١) بغية الوعاة ص ٢٧٤ : وشرح العيون : ص ١٥٨ ، ومعجم الأدباء ١٢ / ٣٤ . .
(٢) نهاية الارب في معرفة أنساب العرب القلقشندي ج ١ ص ٣٣ طبعة بغداد .

وقد رجعنا الى السيرة النبوية لابن هشام ووجدنا أن والده وعمه كانا يحاربان الى جانب المشركين في معركة بدر وهما عمرو بن سفيان ، وجابر بن سفيان ، وقد قتلا على يد النعمان بن القوفلي [1] . .

أما من ناحية والدته فلم نعرف عنها سوى أنها من قبيلة عبد الدار [2] احدى القبائل العربية ، ولاحظنا أثناء دراستنا لآثاره الشعرية أنه لم يذكر والده ولا أسرته البتة ، غير أنه أشار الى قومه وافتخر بهم في اشارات سريعة كقوله :

واني لمن قوم اذا حاربواالعدى أغار بفتيان مغاوير كالشهب
فلا يوعدوني بالفجـــار فأنني سأحميكم مني علىمركب صعب

وأثناء قراءتنا تاريخ الطبري ، [3] وجدنا رجلا يدعى قضاعي بن عمرو الدؤلي ونعتقد أنه من أقارب أبي الأسود الدؤلي ، وربما يكون أخا لأبي الأسود لأن اسمه يطابق اسم والد أبي الأسود « عمرو الدؤلي » . .

وقد اشترك قضاعي في المعارك التي خاضها المسلمون في فارس ، وخاصة معركة جلولاء التي انتصر فيها جيش المسلمين على الفرس ، وذلك عام ١٦ هـ حيث قسمت الغنائم وبعث الأخماس مع قضاعي بن عمرو الدؤلي الى عمر بن الخطاب في المدينة الا أن أبا الأسود الدؤلي لم يذكر شيئا عن أخيه ولا عائلته كما أشرت سابقا . .

(١) سيرة النبي لابن اسحق تهذيب ابن هشام ج ٢ ص ٥٢٥ .
(٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٧١ الهامش وانظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٢٥ .
(٣) تاريخ الأمم والملوك الطبري ج٤ ص ٢٩ ويذكر الحافظ الذهبي أن هذه المعركة «جلولاء» حدثت في العام السابع عشر للهجرة خلافا لما رواه الطبري ، انظر : العبر في خبر من غبر الحافظ الذهبي ج ١ ص ٢١ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد سلسلة تصدرها دائرة المطبوعات في الكويت . .

اسلامه :

لم تختلف الروايات في اسلامه ، وانما الاختلاف في تاريخ اسلامه ، وأغلب الروايات ترى أنه أسلم في حياة الرسول عليه السلام . ويروى أنه لم ير الرسول ولكن أبا الفرج ، يذكر هذه الرواية على لسان أبي عبيدة والتي تقول [1] : « ان أبا الأسود الدؤلي أدرك الاسلام وشهد بدرا مع المسلمين » الا أن أبا الفرج ينفي هذه الرواية لأن أبا عبيدة ناقلها ، ولم يروها أحد غيره » ولو أن أبا الأسود شهد بدرا مع المسلمين لكان معنى ذلك أنه رأى النبي ﷺ لأن النبي كان قائدا لمعركة بدر ، فكيف لا يرى الجندي قائده .. وخاصة اذا كان القائد نبيا ؟ ..

واذا حققنا في هذا الرأي ، نرى أن المعركة بدأت يوم الجمعة في السابع عشر من رمضان في العام الثاني للهجرة . ولو حسبنا عمر الدؤلي في ذلك التاريخ لوجدناه ثمانية عشر عاما ، معنى هذا أنه كان شابا مدركاً ، فلا بد أن يعرف النبي ويراه وعلى هذا الأساس ، نجد أن رواية أبي عبيدة التي ذكرها أبو الفرج في الأغاني خاطئة لأن أغلب الروايات بل معظمها تروي أنه تابعي ولم ير الرسول عليه السلام . .

هذا من جهة ومن جهة أخرى رجعت الى كتب السير [2] ونظرت الى أسماء المسلمين الذين شهد وا بدرا وحاربوا مع الرسول فلم أجد اسما لأبي الأسود الدؤلي بين المجاهدين ..

وبناء على الروايات السابقة وما ذكرته بهذا الشأن نصل الى أن أبا الأسود الدؤلي أسلم في أواخر حياة الرسول ولم يره . وربما يرجع ذلك الى اسباب نجهلها كالمرض مثلا منعه من الذهاب الى مكة ، ولبعد المكـــان الذي كان يعيش فيه أبو الأسود لأننا كما ذكرنا أنه ولد في ضواحي مكة وكما نعلم أن الرسول عليه السلام استوطن المدينة الى آخر أيامه ..

(١) الأغاني لأبي فرج الاصبهاني ج ١٢ ص ٣٠١ وما بعدها طبع في دار الكتب .
(٢) سيرة النبي لابن اسحاق تهذيب ابن هشام ج ٢ ص ٥٠٠ طبعة المندي سنة ١٩٤٣ .

الفترة الثانية من حياة أبي الأسود الدؤلي

« ١٣ – ٦٩ هـ » – « ٦٣٤ – ٦٨٨ م »

تعتبر هذه الفترة من حياته مشرقة ، لاننا نجد الأضواء تشع على هذا العالم الجليل . وأخذ صيته ينتشر في دنيا الأدب والعلم ، وأرخت لها منذ ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لاننا لم نجد أخبارا له قبل هذا التاريخ ، وقد بينت ذلك في الفترة الأولى من حياته . ورأيت أن أقسم هذه الفترة من حياته الى قسمين :

أ – القسم الأول : هجرته الى البصرة وحياته السياسية وتشمل علاقة الدؤلي بمن عاصرهم من خلفاء وحكام وموقفه من المذاهب السياسية ..

ب – القسم الثاني : حياته الإجتماعية وعلاقاته الإنسانية وتصرفاته الشخصية ..

هجرته الى البصرة :

هاجر أبو الأسود الدؤلي الى البصرة في عهد عمر بن الخطاب، وسكن بها وبنى له مسجدا خاصا باسمه [1] ، ولكن المؤرخين لم يذكروا تاريخا لهجرته إلا أننا نعتقد أن هذه الهجرة حدثت بعد العام الثامن عشر للهجرة بدليل أن أبا الأسود الدؤلي كان موجودا في المدينة (المنورة) عندما جاءها ووجد فيها مرضا [2] والناس يموتون ..

(١) معجم الشعر الشعراء للمرزباني ص ٦٧ واللباب ج ١ ص ٣٤٠ ، ديوان أبي الاسود الدؤلي ص ٨ تحقيق الشيخ محمد آل ياسين بغداد ولا يزال أهل البصرة يخلدون ذكراه وقد رأيت شارعا كبيرا باسمه في الوقت الحاضر .
(٢) حديث مروي عن أبي الاسود الدؤلي ، انظر الأغاني ج ١٢ / ٣٠٠ .

واذا استعرضنا ما حدث في المدينة من أمراض زمن عمر بن الخطاب ، نجدها تعرضت لهبوب ريح أسود اللون ، كالرماد ، وأصاب الناس جوع ومرض ، واستمر هذا عاما كاملا ، ويسمى هذا العام بعام الرمادة . [1] وحدث هذا في أواخر العام السابع عشر للهجرة وبناء على حديث أبي الأسود ، نرجح أن هجرته تمت بعد هذا الحدث ..

وأما سبب هجرته الى البصرة فلا نعرفه الا أننا اذا استعرضنا الوضع السياسي الجديد الذي طرأ على العالم الإسلامي حينذاك ، وخاصة ، في عصر الفتوحات الإسلامية ، نرى السياسة العربية الإسلامية الجديدة التي سار عمر بن الخطاب عليها ، تقوم على جمع الجيش العربي في وحدة تمتد من خليج عدن جنوبا الى أقصى الشمال . حتى يدخل العراق والشام تحت هذه الوحدة [2] . ومن جهة أخرى نرى سياسة عمر عندما أمر بأنشاء البصرة كان يهدف الى تقوية العرب في تلك المنطقة ، لمواجهة القوة الفارسية واتخاذها مركزا لحكومة [3] العرب في فارس بدلا من المدائن عاصمتهم القديمة . واراد عمر في ذلك الا يكون بينه وبينها مجرى ، اذا أراد أن يمد العرب في فارس بالجنود ، كماشجع عمر الصحابة أنفسهم للهجرة الى المناطق المفتوحة ، حتى قيل ان عمر لم يدع [4] ذا رأي ولا شرف ولا خطيبا ولا شاعرا ولا وجيها من وجوه الناس الا سَيَّرَهُ الى تلك المناطق . ومن الاسباب العامة للهجرة : نرى سببا ماديا: وهو أن كثيرا من الصحابة رغبوا في الهجرة الى المناطق المفتوحة لما فيها من خيرات وحياة افضل من حياة الجزيرة العربية ، لان العراق قطر غني يتوافر فيه العيش [5] ،

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٩٨ .
(٢) الفاروق عمر محمد حسين هيكل ص ٢٠٠ .
(٣) تاريخ الأمم والملوك ، الطبري ج ٣ ص ٨٩ ، وانظر الفارق عمر ، محمد حسين هيكل ص ٢٠٠ وما بعدها .
(٤) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣١١ .
(٥) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول للهجرة ، الدكتور صالح العلي ص ٥٠ .

فيجد الناس من وقتهم ما يسمح لهم بالعلم، كما أن المعارك العديدة التي انتصر فيها البصريون جعلتهم يغنمون عددا كبيرا من الأسرى مما زاد في ثرائهم . ولكن لنا أن نتساءل .. هل هذه الأسباب العامة التي ذكرتها كانت سببا في هجرته الى البصرة ؟؟ أم كانت هناك أسباب خاصة جعلت ابن الخطاب يرسله مع العلماء الذين شجعهم للهجرة ؟؟ ..

في الواقع ذكر بعض العلماء والمؤرخين أسبابا خاصة في هجرته للبصرة . ذكر بعض العلماء [1] أن عمر أرسله للبصرة واستعمله عليها « أي جعله واليا عليها » وقيل أنه أرسل الى البصرة ليعلم أهلها الاعراب [2] . ولكننا نشك في صحة هذه الروايات ونؤكد أنها خاطئة للأسباب الآتية :

أولا : عمال عمر بن الخطاب على البصرة كما ذكر المؤرخون [3] هم على التوالي : عُتبة بن غزوان – المغيرة بن شعبة – أبو موسى الأشعري – عبد الله بن عامر ، ولم يكن أبو الأسود الدؤلي بينهم وإنما تعيين أبي الأسود حدث في عام ٣٨ هـ زمن حكم الأمام علي وسأتكلم عن ذلك في حياة الدؤلي الإجتماعية ..

ثانيا : أما الرواية [4] التي ترى أن عمر أرسله ليعلم أهل البصرة النحو « الاعراب » فاننا نشك في صحتها ، لان النحو ظهر متأخرا عن عصر عمر بن الخطاب ..

والخلاصة فيما يخص هجرته، نعتقد أنه هاجر الى البصرة مع من هاجر من

(١) الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ج ٢ ص ٢٤١ مطبعة السعادة وذكر الخبر نفسه في خزانة الأدب البغدادي ج ١ ص ٦٣٦ طبعة بولاق . .
(٢) انباة الرواة ، القفطي ج ١ ص ١٦ .
(٣) تاريخ الأمم والملوك الطبري ج ٣ ص انظر التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة ، الدكتور صالح العلي ص ٢٩٦ .
(٤) معظم الروايات ترى ان النحو نشأ في عهد الامام علي ولم نر سوى رواية القفطي الوحيدة التي =

العلماء وغيرهم للاسباب التي ذكرتها وأنها أسباب عامة منها المادي والعلمي والديني ..

* * * *

علاقة أبي الأسود الدؤلي بمن عاصره من الخلفاء والحكام

أبو الأسود الدؤلي في عصر عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان

(١٣ هـ – ٢٤ هـ) – (٢٤ هـ – ٣٥ هـ)

لم نجد أثارا كثيرة للدؤلي في عهد عمر بن الخطاب سوى ما رواه أبو الأسود نفسه عن عمر عندما قابله في المدينة المنورة . وقد بينا خطأ الروايات التي ذكرت أن عمر أرسله ليعلم الاعراب ، أو عاملا على البصرة التي استقر بها أبو الأسود . وكان بودنا أن نعرف العمل الحقيقي لأبي الأسود لهذه الفترة ، هل كان جنديا ، والواقع أننا لم نجد شيئا عن ذلك سوى تلك الأخبار التي ذكرتها (٢٤ – ٣٥ هـ) ، أما أبو الأسود الدؤلي في عهد الخليفة عثمان بن عفان فلا نجد أخبارا تدل على وجود علاقة بينهما أو أن عثمان كلفه بعمل ما سوى رواية ذكرها صاحب الإصابة [1] مع عدة روايات وقال فيها :

« كان عثمان قد استعمل أبا الأسود على البصرة . »

ونحن نشك في صحة الرواية لأن معظم الرواة ينفون صحتها والعمال

= ذكرت هذا الخبر بالاضافة الى ذلك لم يكن أبو الاسود عندما هاجر يعرف شيئا عن النحو لأن النحو جاءه من معاشرته للسريان في العراق كما بينت في أول البحث ..

(١) الأغاني ج ١١ ص ٢٣٢ . .

الذين استعملهم عثمان على البصرة هما [1] : « أبو موسى الأشعري وعبدالله بن عامر » فقط ..

أما علاقة الود الحقيقية فكانت بين أبي الأسود وعامل عثمان بن عفان على البصرة عبدالله بن عامر ، ، وقد كان أبو الأسود مكرما عنده ، ثم حدث جفاء [2] بينهما فقال ابو الأسود في ذلك شعرا نختار منه هذه الأبيات :

ألم تر ما بيني وبين ابن عامـــر ... من الود قد بالت عليه الثعالب
وأصبح باقي الود بيني وبينـــه ... كأن لم يكن والدهر فيه العجائب

وأشار أبو الأسود الى هذه الصداقة عند مدح ابن عباس الذي عين عاملا بعد عبدالله بن عامر قال :

ذكرت ابنَ عباس بباب ابن عامرٍ ... ومامرَّ من عيشي ذكرت ومافضَل
أميران كانا صاحبيَّ كِلاهمـا ... فكلاً جزاه الله عني بما عمـل

كما نجد لابي الاسود اتصالا مع كاتب عبد الله بن عامر اذ يروي أبو الفرج : ان أبا الاسود الدؤلي [3] أوصى كاتب عبد الله بن عامر بحاجة كان طلبها إلى عبد الله بن عامر ، فضمنها له ، فلم يصنع فيها الكاتب شيئاً فقال أبو الاسود في ذلك :

لعمري لقد وصيت أمس بحاجتي ... فتى غير ذي قصد علي ولا رئف
ولا عارفا ما كان بيني وبينـــه ... ومن خير ما أدلى به المرء ما عرف
وما كان ما رجيت منه ففاتنـــي ... بأول خير من أخي ثقة صرف

(١) الاصابة في تميز الصحابة لابن حجر العسقلاني ج ٢ ص ٢٤١ مطبعة السعادة . .
(٢) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة دكتور صالح العلي ص ٢٩٢ وتاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٩٠ .
(٣) ديوان أبي الأسود الدؤلي تحقيق الشيخ محمد آل ياسين ص ٦١ .

وفي هذه القطعة نرى أن مهران : مولى عبد الله بن عامر اشترى منه أبو الأسود بغلة فعاسره في النقد وقال في ذلك :

يدافعني مهران في نقد درهـــم ... كأنك في شيء كبير تدافـــع
فكيف وقد زوجت خوذا كأنها ... اذا ما مشَتْ في الدار أدماء ظالع
تُطيفُ بهـــا كأنما أنت آزم ... بفروة كبش قُدَّمنه الاكـــارع

ونجد بعض الاشارات في ديوانه ، عندما كان يذهب إلى فارس في عهد عثمان .

هذه خلاصة ما استطعت ان أصل اليه عن حياة الدؤلي في عهد الخليفة عثمان .

أبو الأسود الدؤلي في عهد الامام علي بن ابي طالب

(٣٥ – ٤٠ هـ) (٦٦٠ – ٦٦٥ م)

لم ينعم ابو الأسود برخاء في حياته ، بل وشهرة كما نعم بهـــا في عهدالامام ، والحقيقة ان حياته لم تعرف الا في ظل الامام وحكمه. ولاغرابة في ذلك اذ نجد أبا الاسود الدؤلي ، قد وصل في عهده إلى أسمى المراكز وارفعها ..

كان في عهده قاضياً للبصرة ، وأميراً ، عليها ، وسأتحدث عن هذه الحياة تفصيلا عندما نستعرض حياته الاجتماعية ..

وكان لابي الأسود دور كبير زمن الامام ، وخاصة في المعارك التي حدثت في تلك الفترة فنرى أبا الاسود يقوم بدور الوسيط في حرب الجمل ، وكان في تلك الفترة قاضياً للبصرة [1] وفي دائرة المعارف الاسلامية يقال :

(١) الطبري جـ ٢ ص ٤٢٧ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة ص ٢٩١ .

« ان عامل علي أوفد الدؤلي ليعارض عائشة » ويوضح هذه المسألة قول ابن أبي الحديد[1] قال أبو مخنف وحدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : إن الزبير وطلحة أخذا السير بعائشة حتى انتهوا إلى حفر أبي موسى الاشعري ثم وصلوا إلى مكان قريب من البصرة وكتبا الى عثمان بن حنيف الانصاري وهو عامل علي على البصرة « اخل لنا دار الامارة » فلما وصل كتابها اليه ، بعث إلى الاحنف بن قيس، وقال له : ان هؤلاء القوم قدموا علينا، ومعهم زوجة الرسول والناس اليها سراع كما ترى فقال الاحنف : انهم جاءوك بها للطلب بدم عثمان، وهم الذين البوا على عثمان الناس وسفكوا دمه واراهم والله لا يزايلون حتى يلقوا العداوة بيننا ويسفكوا دماءنا واظنهم – والله – سيركبون منك خاصة ما لا قبل لك به ان لم تتأهب لهم بالنهوض اليهم فيمن معك من أهل البصرة فانك اليوم الوالي عليهم وأنت فيهم مطاع فسر اليهم بالناس وبادرهم قبل أن يكونوا معك في دار واحدة فيكون الناس لهم أطوع منهم لك » ..

فقال عثمان : الرأي ما رأيت ، لكني اكره الشر ، وان ابدأهم به وأرجو العافية والسلامة إلى أن يأتيني كتاب أمير المؤمنين ورأيه ، فأعمل به ، ثم أتاه بعد الاحنف حكيم بن جبلة فأقرأه كتاب طلحة والزبير فقال له : مثل قول الاحنف ، واجابه عثمان بمثل جوابه للاحنف ولما وصل كتاب علي – عليه السلام – إلى عثمان أرسل الى أبي الاسود الدؤلي ..وعمران بن حصين الخزاعي ، فأمرهما أن يسيرا حتى يأتياه بعلم القوم وما الذي أقدمهم . فانطلقا حتى أتيا حفر أبي موسى ، فدخلا على عائشة [2] ، فناشداها الله فقالت لهما :

القيا طلحة والزبير فقاما من عندها ولقيا الزبير ، فكلماه ، فقال لهما :

(١) ديوان ابي الأسود تحقيق عبد الكريم الدجيلي ص ٣٩ من كتاب نهج البلاغة ج ٢ ص٢٩٧ . .

(٢) يذكر الطبري ان عائشة قالت لابي الاسود : يا ابا الاسود اياك ان يقودك الهوى الى النار « كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » الا ان الدؤلي لم يتأثر بقول عائشة بدليل قوله لابن حنيف وحثه اياه على الحرب انظر تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٤٦٣ ..

أنا جئنا للطلب بدم عثمان ، وندعو الناس إلى أن يردوا أمر الخلافة شورى ليختار الناس لانفسهم ، فقالا له : ان عثمان لم يقتل بالبصرة ليطلب دمه فيها . وانت تعلم قتلة عثمان من هم ، وأين هم ، وأما اعادة أمر الخلافة شورى ، فكيف قد بايعتم عليا غير مكرهين ، وأنت يا أبا عبد الله لم يبعد العهد بقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله ﷺ وآله . وانت آخذ قائم سيفك تقول : ما أحد أحق بالخلافة منه ، ولا أولى بها عنه ، وامتنعت من بيعة أبي بكر فأين ذلك الفعل من هذا القول ؟

فقال لهما : اذهبا فالقيا طلحة ، فقاما الى طلحة فوجداه اخشن الملمس ، شديد العريكة قوى العزم في أثارة الفتنة ، واضرام نار الحرب ، فانصرفا الى عثمان بن حنيف وأخبراه وقال أبو الأسود [1] :

يا بن حنيف قد أتيت فانفـــر وطاعن القوم وجالـــــد واصبر
وابرزْ لها مستلئماً وشَمِّر

فقال ابن حنيف : «أي والحرمين لأفعلن ، وأمر مناديه ، فنادى في الناس .. السلاح .. السلاح فاجتمعوا اليه» وقال أبو الاسود موضحاً موقف الزبير وطلحة :

أتينا الزبـــير فدانى الكلام وطلحة كالنجـــــم أو أبعـــد
وأحسن قوليهمـــا فـــــادح يضيق به الخطب مستنكـــــد
وقد أوعدونا بجهد الوعيـــــد فأهون علينا بما أوعـــــدوا

أما دور أبي الاسود في صفين ، فقد اتفقت معظم الروايات [2] ان أبا الاسود الدؤلي اشترك في معركة صفين غير الطبري [3] الذي نفى ذهاب أبي الاسود

(١) انظر الطبري ج ٤ ص ٤٦٣ .
(٢) معجم الأدباء ياقوت الحموي ج ١٤ ص ٣٤ وفيات الاعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٤ دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٢٧ . .
(٣) وقعة صفين لنصر بن مزاحم تحقيق عبد السلام هارون ص ٢٢ ط ٢ مصر . .

الى هناك وقال في ذلك « ان أبا الاسود لم يذهب الى صفين بل كلف بادارة البصرة خلفا لابن عباس » . ولكننا نشك في صحة تلك الرواية الوحيدة لانها تخالف ما جاءت به الروايات الاخرى التي تؤكد ذهابه فقد كان لابي الاسود الدؤلي دور ايجابي في صفين حيث نصح الامام علياً ألا يقبل أبا موسى الاشعرى حكماً ..

ويصور المرتضي في أماليه [1] ما دار بين الامام وأبي الاسود الدؤلي في هذا الشأن «ان أبا الاسود قال للامام يا أمير المؤمنين لا ترضى بأبي موسى فأني قد عجمت الرجل وبلوته ، فخليت أشطره ، فوجدته قريب القعر ، مع أنه يمان ، وما أدري ما يبلغ نصحه فابعثني ، فانه لا يحل عقدة الا عقدت له أشد منها .

قيل : إنه لا صحبة لي ، فأجعلني ثاني اثنين ، فليس صاحبهم الا من تقرب وكان في الخلاف عليهم كالنجم .. فابى عليه السلام ..

ولكن صاحب العقد الفريد يروي أن الامام قبل أبا الاسود الدؤلي أن يكون حكما . ولكن قوم الامام هم الذين رفضوا أبا الاسود [2] ..

وانتهت صفين كما هو معروف بخلع الامام علي في التحكيم ، وظهرت بعد ذلك طائفة الخوارج .

وقيل أن [3] « أباالاسود كان على رأس الجيش الذي أرسله ابن عباس لقتال الخوارج » ..

ولكننا لا نعرف تفصيلا لتلك المعركة التي قادها أبو الاسود ضد الخوارج ، على الرغم من بحثنا عن معارك الخوارج كلها ، وبعد ذلك عاد أبو الاسود إلى البصرة حيث جاء اليه نعي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وبيعة الحسن عليه السلام ..

ويصور أبو الفرج [4] ما فعله أبو الاسود عند سماعه نبا وفاة الامام ، اذ

(١) امالي المرتضى للشريف المرتضى تحقيق محمد أبو الفضل ص ٢٩٢ ط ١ / ١٩٥٤ م .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ص ٣٠٧
(٣) الأغاني ١١٦/١١ وانظر أسد الغابة ٦٩/٣
(٤) الأغاني ١١٦/١١ وما بعدها .

كان حينذاك في المسجد ، فقام على المنبر ، فخطب الناس ، ونعى لهم علياً عليه السلام ،فقال في خطبته : « ان رجلا من أعداء الله المارقة عن دينه ، اغتال أمير المؤمنين عليا ، كرم الله وجهه ومثواه ، في مسجده وهو خارج للصلاة ، في ليلة يرجى فيها مصادفة ليلة القدر ، فقتله ، فيالله هو قتيل وأكرم به وبمقتله . وروحه من روح عرجت إلى الله تعالى بالبر والتقى ، والايمان والاحسان ، لقد أطفأ منه نور الله في أرض لا دين بعده أبداً ، وهدم ركنا من أركان الله تعالى لا يشاد مثله . فأنا لله وانا اليه راجعون وعند الله نحتسب مصيبتنا يا أمير المؤمنين وعليه السلام يوم ولد ويوم قتل ويوم يبعث حياً» ثم بكى حتى اختلت أضلاعه.

وقال : « وقد أوصى بعده الى ابن بنت رسول الله ﷺ وابنه وسليله وشبيهه في خلقه وهديه ، واني لا رجوان يجبر الله عز وجل به ما وهى ، ويسد به ما انثلم ، ويجمع به الشمل ، ويطفيء به نيران الفتنة ، فبايعوه ترشدوا فبايعت الشيعة كلها وتوقف ناس ممن كان يرى رأي العثمانية ، ولم يظهروا انفسهم بذلك ، وهربوا إلى معاوية . فكتب اليه معاوية ، وارسل إليه رسولاً يعلمه أن الحسن عليه السلام قد راسله في الصلح ، ويدعوه إلى أخذ البيعة له بالبصرة ويعده ويمنيه » ..

وروي أن أبا الاسود قال لمعاوية بن أبي سفيان حين أصيب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قصيدة نختار منها هذه الابيات :

الا أبلغ معاوية بن حرب ... فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا ... وخيّسها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ... ومن قرأ المثاني والمئينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين ... رأيت البدر راق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت ... بأنك خيرهم حسبا ودينا

ويقي أبو الاسود مخلصاً للامام ومتشيعاً له ومن المتحققين بمحبته ومحبة

ولد [١] بل كان من وجوه شيعته [٢] ، وقد دافع عن عقيدته دفاع المؤمن الشجاع ، وليس تشيع أبي الاسود يحتاج إلى برهان أو دليل وقلما نجد كتاباً الا يروي خبر تشيعه ..

ويروى أنه كان نازلا في بني قشير [٣] بالبصرة . وكانوا يرجمونه بالليل لمحبته لعلي وولده فاذا أصبح ، وذكر رجمهم ، قالوا : الله يرجمك فيقول لهم : تكذبون لو رجمني الله لاصابني وأنتم ترجمون فلا مصيب ، وقال في ذلك :

يقول الارذلون بنو قشير ... طوال الدهر لا تنسى عليا
أحب محمداً حباً شديداً ... وعباسا وحمزة والوصيا
فإن يك حبهم رشدا أُصِبْهُ ... ولست بمخطىء أن كان غيا

« وكان له صديق يقال له الحارث بن خليد ، وكان في شرف من العطاء فقال لابي الاسود : « ما يمنعك من طلب الديوان ، فإن فيه غنى وخيرا فقال له ابو الاسود . : قد اغناني الله بالقناعة والتجمل فقال :

« كلا ولكنك تتركه اقامة على محبة ابن أبي طالب وبغض هؤلاء القوم . وزاد بينهما الكلام حتى أغلظ له الحارث فهجره أبو الاسود » [٤] ..

---

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١١ وانظر انباة الرواة للقفطي ج ١ ص ١٤ .
(٢) خزانة الأدب البغدادي ص ٢٥٦ وسمط اللآلىء الأونبي ص ٦٦ وسرح العيون لابن نباتة المصري ص ٢٧٧ والطبقات الكبرى لابن سعد ص ٩٩ ج ٧ والأغاني ج ١١ ص ١٧١ . .
(٣) أخبار النحويين البصريين السيرافي ص ١١ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ١٣ وانظر أمالي المرتضى تحقيق محمد ابو الفضل ص ٢٩٣ ط . أولى ١٩٥٤ الحلبي مصر . .
(٤) الأغاني لأبي فرج الأصبهاني ج ١١ ص ١٠١ .

أبو الأسود الدؤلي في عهد بني أمية

(٦٦١ م – ٦٨٨ م ، (٤١ هـ ٦٩ هـ)

تغيرت الاوضاع السياسية والاجتماعية في عهد بني أمية تغيراً شاملا ، وبخاصة أوضاع الشيعة ، الذين قل حظهم وأصبحوا مهددين في حلهم وترحالهم ، كما خمدت روح التشيع [1] في نفوس اكثرهم وكان أبو الاسود بين هؤلاء المهددين وأول ما أصابه من سوء طرده من وظيفته ..

ويصور ابن بدران ما دار بينه وبين معاوية في أول لقاء تم بينهما ويقول[2] : « قال معاوية لابي الاسود لما وفد عليه حين بويع : أنت القائل لعلي بن أبي طالب اجعلني حكما ، فوالله ما أنت هناك انك لتي المحاورة عيّ بالجواب فكيف كنت صانعاً .قال : كنت أنظر رهطاً من المهاجرين ورهطاً من الانصار فأقول لهم : أناشدكم الله ، هل المهاجرون أحق بالخلافة أم الطلقاء ؟ فقال له معاوية : أقسمت عليك لا تذكر هذا الحديث ما عشت ثم قال : « قاتله الله لقد خلعني خلع الوصيف » . ولكننا نجد العداوة بينهما تقل تدريجياً ، ويحاول معاوية ارضاء أبي الاسود ليستميله إلى جانبه ويبدأ معه عهداً جديداً وفي هذه الرواية نرى صورة جديدة لهذا التقارب ، قال القاضي نور الدين المرعشي في مجالس المؤمنين : [3] « بعث معاوية لابي الاسود هدايا فيها حلوى فنظرت اليها بنت أبي الاسود فقالت لابيها : من أين هذه الهدية؟ قال: بعث بها معاوية يخدعنا عن ديننا فقالت البنت على البديهة :

أبا الشهد المزعفر بابن حـــرب ... نبيع عليك أحسابا ودينـــا
معاذ الله كيف يكون هـــذا ... ومولانا أمير المؤمنينـــا

(١) تاريخ الاسلام ج ١ ص ٣٦٧ دكتور حسن ابراهيم ط ٧ / ١٩٦٤ مصر .
(٢) تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ١٠٧ روضات الجنات ص ٣٤٣ مع اختلاف يسير وانظر العقد الفريد ج ٤ ص ٣٤٩ . .
(٣) انباة الرواة القفطي ج ١ ص ٢٣ روضات الجنات ص ٣٤٣ .

ومما لا شك فيه أن الخلاف بين أبي الاسود ومعاوية سوي وانتهى وقامت بينهما علاقة صداقة ، وتصور لنا الروايات بعض هذه العلاقات اذ روى [1] : «دخل أبو الاسود على معاوية يوماً فبينما هو يخاطبه أذ ضرط أبو الاسود فضحك معاوية فقال له: يا امير المؤمنين لا تخبر بها أحدا فلما خرج من عنده دخل عمرو ابن العاص فأخبره معاوية بما كان من أبي الاسود فلما رآه عمرو قال له : أبا الاسود ضرطت بين يدي أمير المؤمنين ،فلما دخل على معاوية قال له : الم أسألك الا تخبر بها أحدا ؟ قال له معاوية : ما علم بها الا عمرو فقال اياه كنت أقصد وروى ابن عبد ربه قال [2] : » « دخل أبو الاسود على معاوية وقد خضب فقال : لقد اصبحت يا أبا الاسود جميلاً فلو علقت تميمة فأنشد أبو الاسود يقول :

أفنى الشبابُ الذي فارقتُ بهجته ... مَر الجديدين من آتٍ ومنطلق
لم يبقيا لي في طول اختلافهمـــا ... شيئا يُخافُ عليه لذعة الحَدَق

وفي هذه الرواية [3] نقاش صريح بين معاوية والدؤلي وعمرو بن العاص . يقول ابن بدران: روى الحافظ عن ابن دأب قال: «قدم أبو الاسود على معاوية بعد مقتل علي رضي الله عنه ، وقد استقامت لمعاوية البلاد ، فأدنى مجلسه وأعظم جائزته ، فحسده عمرو بن العاص ، فقدم على معاوية واستاذن عليه في غير وقت الاذن ، فأذن له فقال معاوية : يا أبا عبد الله ما أعجلك قبل وقت الاذن فقال : يا أمير المؤمنين ، أتيتك لامر قد أوجعني وأرقني وأغاظني ، وهو من بعد ذلك نصيحة لامير المؤمنين ، قال : وما ذاك يا عمرو؟ قال : يا أمير المؤمنين : إن أبا الاسود رجل مفوه ، له عقل وأدب ، من مثله الكلام يذكر ، وقد أذاع بمصرك من الذكر

(١) حياة الحيوان الدميري ج ١ ص ٣٩٥ والأغاني لأبي فرج ج ١٢ ص ٣٠٣ .
(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٤٩ .
(٣) تهذيب ابن عساكر ج ٧ ص ١٠٤ – ص ١١٣ ط ١ الترقي دمشق .

لعلي ، والبغض لعدوه ، وقد خشيت عـليك – أن يترى – في ذلك الحين يؤخذ لعنقك وقد رأيت أن ترسـل اليه ، فترهبه وترعبه وتسبره وتخبره ، فأنك من مسالته على أحدى خبرتين ، إما ان يبدي لك صفحته ، فتعرف مقالته ، واما أن يستقبلك فيقول ما ليس من رأيه ، فيحتمل ذلك عنه فيكون لك في ذلك عاقبة صلاح ان شاء الله تعالى . فقال له معـاوية . : انني امرؤ والله لقلما تركت رأيا لرأي امرىء قط الا كنت فيه بين أن أرى مـا أكره وبين بين ولكن أن أرسلت اليه فسألته ، فخرج من مسألتي بأمر لا أجد عليه مقدما ، ويملأني غيظا لمعرفتي بما يريد ، وان الامر فيه أن يقبل ما أبدى لفظه فليس لنا أن نشرح عن صدره ، وندع ما وراء ذلك يذهب جانباً . فقال عمرو : أنا صاحبك يوم رفع المصاحف بصفين – وقد عرفت رأيي ولست أدري خلافي وما ألوك خيراً فأرسل أليه ولا تفرش مهاد العجز فتتخذه مطئياً . فأرسل معاوية إلى أبي الاسود . فجاءه حتى دخل عليه ، فكان ثالثاً . فرحب به معاويه وقال : يا أبا الاسود خلوت أنا وعمرو فتناجزنا في أصحاب محمد – ﷺ – وقد أحببت أن أكون من رأيك على يقين . قال : سل يا أمير المؤمنين عما بدا لك ، فقال : يا أبا الاسود أيهم كان أحب إلى الرسول فقال : أشدهم كان حباً لرسول الله أوفاهم له بنفسه ، فنظر معاوية إلى عمرو وحرك رأسه ثم تمادى في مسألته فقال : يا أبا الاسود فأيهم كان أعلم ؟ قال : أقولهم للصواب وأفضلهم للخطاب . قال : يا أبا الاسود فأيهم كان أشجع – ؟ قال : أعظمهم بلاءً وأحسنهم غناءً ، وأصبرهم على اللقاء . قال : فأيهم كان اوثق عنده ؟ قال من أوصى اليه فيما بعده . قال فأيهم كان للنبي صديقاً ؟ قال اولهم به تصديقاً فأقبل معاوية على عمرو وقال : لا جزاك الله خيراً ، هل تستطيع أن ترى مما قال شيئاً ؟ فقال أبو الاسود : أني قد عرفت من أين أتيت فهل تأذن لي فيه ؟ فقال : نعم فقل ما بدا لك ؟ : فقال يا أمير المؤمنين أن هذا الذي ترى هجا رسول الله بأبيات من الشعر . فقال رسول الله : اللهم أني لا أحسن أن أقول الشعر فالعن

عمرا بكل بيت لعنة » ..

أفتراه بعد هذا نائلا فلاحا أو مدركا رباحا ، وأيم الله أن أمرا لم يعرف الا بسهم أجيل عليه فجال لحقيق أن يكون كليل اللسان ، ضعيف الجنـان ، مستشعرا للاستكانة ، مقارنا للذل والمهانة ، غير ولوج فيما بين الرجال ، ولا ناظر في تسطير المقال ، أن قالت الرجال أصغى وأن قامت الكرام أقعى ، متعيص لعظيم دينه غير ناظر في أبهة الكرام ولا منازع لهم ثم لم يزل في وجنه ظلماء مع قلة حياء يعامل الناس بالمكر والخداع والمكر والخداع في النار ..

فقال عمرو : يا أخا بني الديل : والله أنك لانت الذليل القليل ولولا ما تمت به من حسب كنانه لاختطفتك من حولك اختطاف الأجدل الحدية غير انك بهم تطول وبهم تصول فلقد استطبت مع هذا لسانا قوالا سيصير عليك وبالا وأيم الله أنك لأعدى الناس لامير المؤمنين قديما وحديثا وما كنت قط بأشد عداوة له منك الساعة ، وانك توالي عدوه وتعادي وليه ، وتبغيه الغوائل ولئن أطاعني ليقطعن عنه لسانك ، وليخرجن من رأسك شيطانك ، فأنت العدو المطرق له أطراقة الافعوان في أصل الشجرة . قال : فتكلم معاوية فقال : يا أبا الأسود أغرقت في النزع ولم تدع رجعة لصلحك وقال لعمرو : فلم نغرق كما أغرقت ولم نبلغ ما بلغت غير أنه كان منه الأبتداء والاعتداء والباغي أظلم والثالث أحلم فانصرفا عن هذا القول الى غيره وقوما غير مطرودين فقام عمرو وهو يقول :

لعمري لقد أعيا القرون التي مضت لغش ثوى بين الفؤاد كميـن

وقام أبو الأسود وهو يقول :

ألا أن عمرا رام ليث خفيـة وكيف ينال الذئب ليث عرين

فانصرفا الى منازلهما وذاع حديثهما في البلاد ، فبينما أبو الأسود في بعض الطريق لقيه شاب من كلب يقال له : كليب بن مالك ، شديد البغض لعلي وأصحابه ، شديد الحب لمعاوية واصحابه ، فقال له يا أبا الأسود : انت

المنازع عمرا أمس بين يدي أمير المؤمنين أما والله لو شهدتك لاعرقت جبينك فقال له أبو الأسود من أنت يا ابن أخي الذي بلغ خطرك كل هذا ؟ وممن أنت؟ قال : أنا ممن لا ينكر ، أنا امرؤ من قضاعة ثم من كلب ثم أنا كليب بن مالك فقال أبو الأسود : أراك كلبا من كلب ولا أرى للكلب شيئا اذا هو نبح أفضل من أن يقطع باخا فاخا ثم أخطأ كلب فانصرف وخلاءه، فبلغ ذلك القول معاوية فأكثر العجب والضحك ثم أنهما اجتمعا بعد ذلك عنده فقال معاوية للكلبي : يا أخا كلب . ما كان أغناك عن منازعة أبي الأسود ، فقال ولم لا أنازعه ؟ والله لأنا أكثر نفيرا وأعز عشيرا وأطلق لسانا وان شاء لأنا فمره بين يديك . فقال معاوية : يا أخا كلب : ما صدقت في واحدة من ثلاث . فقال أبو الأسود : والله لولا هذا الجالس يعني يزيد وانكم أخواله لقطعت عني لسانك فقال يزيد : يا أبا الأسود قل ، فأعمامي أحب الي من أخوالي . فقال أبو الأسود : مثل هذا يا أمير المؤمنين بمن ينافرني بحمير أو بمعد ..

وفي الرواية الآتية نرى [1] قصة أخرى تدور بين معاوية وأبي الأسود « قال ابن بدران عن العتبي عن أبي جعديه : كان أبو الأسود من أبر الناس عند معاوية بن أبي سفيان ، وأقربهم منه مجلسا ، وكان لا ينطق الا بفعل ، ولا يتكلم الا بعد فهم ، فبينما هو ذات يوم جالس وعنده وجوه قريش ، وأشراف العرب ، إذ أقبلت امرأة أبي الأسود حتى حاذت معاوية وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أن الله جعلك خليفة في البلاد ، ورقيبا على العباد ، يستسقى بك المطر ، ويستنبت فيك الشجر وتؤلف بك الأهواء ، ويأمن بك الخائف ، ويودع بك الجانف ، فأنت خليفة المصطفى والإمام المرتضى ، فأسأل الله لك النعمة في غير تغيير ، والعافية من غير تعذير ، قد

(١) تهذيب ابن عساكر ج ٧ ص ١١٣ وذكر المرتضى في أماليه ص ٩٢ رواية شبيهة بالقصة : وقيل ان امرأة ابي الاسود خاصمته الى زياد في ولدها فقالت : أيها الامير ان هذا بغلبني على ولدي وقد كان بطني له وعاء وثديي له سقاء وحجري له فناء . . =

ألجاني اليك يا أمير المؤمنين أمر ضاق علي فيه المنهج ، وتفاقم علي منه المخرج ، لامر كرهت عاره لما خشيت أظهاره ، فينصفني أمير المؤمنين من الخصم ، فأني أعوذ بعتوته من العار الوبيل ، والأمر الجليل الذي يشتد على الحرائر ، ذات البعول الاجائر ، فقال لها معاوية : ومن بعلك الذي تصفين من أمره المنكر ، ومن فعله المشتهر قالت : هو أبو الأسود الدؤلي فالتفت إليه معاوية وقال : يا أبا الأسود ما تقول هذه المرأة . فقال أبو الأسود : هي تقول من الحق بعضا ، ولن يستطيع أحد نقضا ، أما ما ذكرت من طلاقها ، فهو حق ، وأنا مخبر عنه أمير المؤمنين ، بالصدق والله يا أمير المؤمنين ما طلقتها عن ريبة ظهرت ، ولا لاي هفوة حضرت ، ولكن كرهت شمائلها ، فقطعت عني حبائلها ، فقال معاوية : وأي شمائلها يا أبا الأسود كرهت ، فقال : يا أمير المؤمنين أنك مهيجها علي بجواب عنيد ، ولسان شديد، فقال معاوية : لا بد من محاورتها فاردد عليها قولها عن مراجعتها . فقال أبو الأسود : يا أمير المؤمنين ، أنها كثيرة الصخب دائمة الذرب [1] ، مهينة للأهل ، مؤذية للبعل ، مسيئة الى الجار ، مظهرة للعار ، أن رأت خيرا كتمته وأن رأت شرا أذاعته ، فقالت : والله لولا مكان أمير المؤمنين وبحضور من حضر من المسلمين لرددت عليه بوادر كلامك بنوافذ أفزع بها كل سهامك ، وأن كان لا يجمل بالمرأة الحرة أن تشتم بعلا ولا تظهر لأحد جهلا ، فقال معاوية : عزمت عليك لما اجبته فقالت : يا امير المؤمنين ما علمته الا مسئولا جهولا ، ملحا بخيلا أن قال فشر قائل ، وأن سكت فذود غائل ، ليث حين يأمن ، وثعلب حين يخاف ، شحيح حين يضاف ، إذا ذكر الجود انقمع لما يعرف من قصر رشائه ولؤم آبائه ، ضيفه جائع وجاره ضائع ، لايحفظ جارا ، ولا يحمي ذمارا ولا يترك نارا ،

= فقال أبو الاسود أبهذا تريدين أن تغلبيني على ابني : فوالله لقد حملته قبل ان تحمليه ووضعته قبل أن تضعيه فقالت : ولا سواء انك حملته خفاً وحملته ثقلا ووضعته شهوة ووضعته كرها فقال له زياد : انها امرأة عاقلة يا ابا الأسود فادفع ابنها اليها فاخلق أن تحسن أدبه . .

(١) الذرب حدة اللسان :

أكرم الناس عليه من أهانه ، وأهونهم عليه من أكرمه، فقال معاوية : سبحان الله لما تأتي به هذه المرأة من السجع فقال أبو الأسود : أصلح الله أمير المؤمنين ، أنها مطلقة ، ومن أكثر كلاما من مطلقة ، ثم قال لها معاوية : أن كان رواحا فتعالي أفصل بينك وبينه بالقضاء . فلما كان الرواح ، جاءت ومعها ابنها قد احتضنته ، فلما رآها أبو الأسود ، قام اليها لينتزع أبنه منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود ، لا تعجل المرأة ان المرأة تنطق بحجتها . فقال يا أمير المؤمنين : حملته قبل أن تحمله . فقالت . صدق والله يا أمير المؤمنين حمله خُفاً وحملته ثقلاً ان بطني لوعاؤه وإن ثديي لسقاؤه ، وأن حجري لفناؤه . فقال معاوية : سبحان الله لما تأتي به هذه المرأة. ثم قال لأبي الأسود أنها غلبتك في الكلام فتكلف لها أبياتاً لعلك تغلبها فأنشد يقول :

مرحبا بالتي تجور علينـــــا ثم سهلا بالحامل المحمـــــول
أغلقت بابها علي وقالـــــت إن خير النساء ذات البعـــول
شغلت نفسها عـــلي فراغـــا هل سمعتم بالفارغ المشغول ؟

فأجابته :

ليس من قال بالصوا ب وبالحق كمن جار عن منار السبيـــل
كان ثديي سقاءه حين يضحى ثم حجري فناءه بالأصيـــل
لست أبغي بواحدى يا بن حـــرب بدلا ما علمته والخليـــل

فقال لها معاوية مجيبا :

لست من قد غذاه حينا صغيرا ثم سقاه ثديـــه بجـــدول
هي أولى به وأقرب رحمـــاً من أبيه وفي قضـــاء الرسول
أما ما حنت عليـــه وقامـــت هي أولى بحمل هذا الفصيـــل

فقضى لها معاوية عليه واحتملت أبنها وانصرفت وفي رواية فلعنت أبا الأسود وحملت أبنها وانصرفت ..

واذا تحققنا في هذه الروايات نجد أن الشك يحيط بها وخاصة في الرواية التي فيها لقاء معاوية وأبي الاسود مع عمرو بن العاص لانه لا يستطيع ابو الاسود مهاجمة معاوية في وجهه ، او اظهار عداوة لصديقه عمرو بن العاص وربما تم اللقاء ولم يكن على هذه الصورة وجاء احد كتاب الشيعة وصاغها على هذه الشاكلة ، والرواية الثانية حكاية زوجة الدؤلي اننا لا نعرف أن الدؤلي ذهب إلى الشام وتزوج امرأة شامية . هذا من جهة ومن جهة أُخرى لا نعتقد أن معاوية يقول للدؤلي تكلف لها ابياتاً لعلك تغلبها ، واما الذي نستطيع قوله في هذا الشأن أن أبا الاسود ضعفت شخصيته في عهد بني أمية وآله حكمهم ولكن أراد أن يعيش ، وكان كبير السن وفي عهد معاوية كان في العقد السابع من العمر . ومما يدل على ذلك قوله لزياد بن أبيه أن كنت تريدني للمصارعة فلا قوة لي بذلك ، وهكذا كانت حياة أبي الاسود في عهد الامويين [1] ..

وتوفي أبو الاسود في عهد عبد الملك بن مروان وحتى آخر أيامه ، ولم نجد له أخباراً ويقال : أن آخر حادث أشار اليه في اشعاره كان عام ٦٢ هـ ، أي قبل وفاته بسبع سنوات وقد أصيب في آخر حياته بالفالج كما يقال ، ثم توفي في الطاعون الجارف الذي حدث في البصرة عام ٦٩ هـ ..

وقبل أن ننتهي من حديثنا عن أبي الاسود والامويين نحب أن نشير إلى علاقة أبي الاسود بوالي البصرة من طرف معاوية، وهوزياد بن أبيه: قبل أن يتولى زياد امارة البصرة من طرف الامويين عين معاوية أربعة ولاة على البصرة وهم على التوالي [2] : حمران بن أبان سنة ٤١ هـ ، زيد بن أرطاه سنة ٤١ هـ ، وعبد الله بن عامر (٤٢ –٤٤ هـ) ،والحارث بن عبد الله الازدي (٤٤ هـ) ثم جاء زياد بن أبيه ٤٤ – ٥٣ هـ ..

وقد حاولنا أن نجد علاقة ما بين أبي الاسود وهؤلاء الولاة الاربعة السابقين الذين سبقوا زياد بن أبيه إلى أمارة البصرة فلم نجد إلى ذلك سبيلا ، فالواقع أن أبا

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ج ١ ص ٢٨٥ .
(٢) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية البصرة صالح العلي ص ٢٩٦ .

الاسود الدؤلي أصيب بنكسة هائلة وصدمة عنيفة جعلته يعيش بعيداً فترة عن هؤلاء . وهذه الفترة تمتد من سنة ٤١ هـ إلى ٤٤ هـ حتى عين زياد بن أبيه والياً على البصرة فنرى أبا الاسود يحاول أن يستميل زياد بن أبيه إلى جانبه ، وينهي ما كان بينهما من خلافات قديمة تعود الى عهد الامام علي بن أبي طالب ، عندما استعمل الامام علي أبا الاسود على البصرة وأستكتب زياداً على ديوان الخراج ، ويذكر الرواة أن خلافاً شديداً وقع بين أبي الاسود الدؤلي وبين زياد بن أبيه ، ويصور أبو الفرج [1] هذا الخلاف ويقول : « ان زيادا كان يسبع أبا الاسود عند علي ويقع فيه ويبغي عليه فلما بلغ أبا الاسود ذلك قال فيه شعراً حيث اتهمه بالجهل ودناءة أهله وفي هذا الشأن قال أبو الاسود قصيدة طويلة اخترت منها هذه الابيات :

رأيت زيادا ينتحيني بشرة ... وأعرض عنه وهو باد مقاتله
وكل امريء والله بالناس عالم ... له عادة قامت عليها شمائله
يقودها فيما مضى من شبابه ... كذلك يدعو كل امريء أوائله
ويعجبه صفحي له وتجملي ... وذوالجهل يحذوالجهل من لايعالجه

والواقع أن زيادا لم ينس ما فعله أبو الاسود زمن الامام وبقي حاقداً على أبو الاسود فترة يرد طلبه ، ويعامله بقسوة ، ويصور أبو الاسود هذه المعاملة في شعره ويقول :

رأيت زيادا صد عني بوجهه ... ولم يك مردودا عن الخير سائله
ينفذ حاجات الرجال وحاجتي ... كداء الجوى في جوفه لا يزايله
فلا أنا ناس ما نسيت فآيس ... ولا أنا راء ما أريت ففاعله
وفي اليأس حزم للبيب وراحة ... من الأمر لا ينسى ولا المرء نائله

(١) ديوان أبي الأسود الدؤلي ص ١٢٤ والأغاني جـ ١٢ ص ٣٠٢ .

ولكننا نرى أبا الاسود يزيد في توده ويلح في اعتذاره لزياد ، ويعامله معاملة السيد وقال يعتذر له [1] :

أنني مجرم وأنت أحق الناس ... أن تقبل الغداة اعتذاري
فاعف عني فقد سفهت وأنت ... امرؤ تعفو عن الهنات والكبائر

والظاهر أن زيادا قبل أخيراً اعتذار أبي الاسود وعفا عنه ، وبدأت علاقة جديدة بينهما تقوم على أساس التعاون والتسامح ، وقال له : [2] لولا أنك كبير السن لاستعنت بك في بعض الأمور . قال: إذا كنت تريدني للمصارعة فهي من غير مقدوري وأن كنت تريد عقلي وأدبي فهو أكمل وأكثر من أيام الشباب » ..

وأخيرا نرى أبا الأسود يعلم أولاد زياد [3] . ويشك محقق الديوان [4] في هذه الرواية ويقول : « وأنا في شك من هذه الرواية لأن أبا الأسود يخالف ابن زياد في الرأي بل هو يبغضه فكيف يتنازل بأن يعلم أولاد زياد بن أبيه ؟ » . وأحب أن أرد على رأي الأستاذ المحقق بأن هذا ليس غريبا ولا يحتاج الى شك فقد كان زياد عاملا على البصرة ومسئولا عن الدؤلي وعن غيره وربما أعجب بعلم أبي الأسود وأجبره على تعليم أولاده ، ونرى أبا الأسود في القصيدة السابقة يستعطف زيادا ويطلب منه الصفح ونحن نعلم ما أصاب الدؤلي من شؤم في عهد الامويين ، فكان مجبرا أن يعمل أن لم يكن مختارا ، ولا نستبعد ذلك اذ نرى أبا الأسود يرحب بالعمل مع ابن زياد كما بينا سابقا ، ثم نراه أخيرا يتعاون مع زياد بن أبيه وينفذ رغبته في نقط المصحف كما سنبين ذلك فيما بعد..

(١) الديوان ص ١٠٦ الأغاني ١١ / ٢٣١ – ٢ .
(٢) وفيات الاعيان ، ابن خلكان جـ ١ ص ٢٤٠ .
(٣) الديوان عبد الكريم الدجيلي ص ٢٣ .
(٤) روضات الجنات للخونساري حج ١ ص ٣٣٣ وفي انباة الرواة ص ٢٠ جـ١ والديوان ص٥٠ .

(حياة أبي الأسود الدؤلي الخاصة)

١ – نساؤه :

اتفق معظم الرواة على أن أبا الأسود الدؤلي هاجر الى البصرة عازباً ثم تزوج بعد ذلك أربع نساء ، غير المحاولات التي حاول أن يحظى فيها بعض الجواري . فقد نزل الدؤلي لدى قبيلة عربية يقال لها بنو قشير ، وقد تزوج منها روجته الأولى – التي كانت تدعى أم عوف . ويتحدث لنا أبو الفرج عن هذه الزوجة ويقول [1] : « كان أبو الأسود الدؤلي نازلا في بني قشير وكانت بنو قشير عثمانية وكانت امرأته أم عوف منهم وكانوا يؤذونه ويسبونه وينالون من علي عليه السلام بحضرته ليغضبوه » ..

وقد غضب أبو الأسود من هذه المعاملة وقال فيهم قصيدته المشهورة التي مطلعها :

يقول الارذلون بنـــو قشـير طوال الدهر لا تنسى عليـــا

ولكن هذا العداء لم يؤثر على علاقته مع زوجته ، اذ بقي أبو الأسود مخلصا لها ، وقد أنجب منها أولاده عطاء وأبا حرب ، كما كان يميل اليها . ويصور لنا أبو الفرج هذا الميل ويقول : [2] « كان لأبي الأسود الدؤلي امرأة من بني قشير وامرأة من عبد القيس فأسن وضعف عما يطيقه الشباب من أمر النساء ، فأما القشيرية فكانت أقدسهم عنده وأسنهما فكانت موافقة له صابرة ، وهي أم عوف القشيرية التي يقول فيها :

أبى القلب الا أمَّ عوف وحبهـا عجوزا ومن يحبب عجوزا يفندِ
سحق اليماني قد تقادم عهـده ورقعته ما شئت في العين واليد

(١) الأغاني ج ١٢ ص ٣٢٦ وانظر سمط اللآلىء ج ٢ ص ٦٤٣ .
(٢) الأغاني ج ١٢ ص ٣٢٦ الديوان ص ٥٣ .

وقد حاولنا معرفة أسم أم عوف [1] فلم نعرف سببا لهذا الأسم فهل لها ولد أسمه عوف ؟ .. في الواقع لم نجد له ولدا بهذا الأسم ، واغلب الظن أنه لقب أطلقه زوجها أبو الأسود عليها أو أهلها ، لأننا إذا تعرضنا الى نشأة الاسم ، نجد أن الأب يطلق على ابنه عدة أسماء ويلازمه في نشأة حياته بعضها يبقى ويسقط الآخر ، أما الزوجة الثانية فكان أسمها فاطمة من عبد القيس وكانت على قدر كبير من الجمال ، وأصغر عمرا منه . فيقول أبو الفرج عنها :

« أما الأخرى ، فهي من عبد القيس ، فهي فاطمة بنت دعي . وكانت أشبّهما وأجملهما فالتوت عليه لما أسن وتنكرت له وساءت عشرتها معه ..

وأخلطت بعض الروايات بين الزوجة الأولى والثانية [2] « وقيل أنها من عبد القيس وقال بعضهم : لابل هي القشيرية » والحقيقة أنها من عبد القيس لان معظم الروايات تذكر ذلك ..

وكان أبو الأسود بها معجبا ، فلما تقدم به السن ، تنكرت له وبدا له منها جفاء . وقال أبو الأسود يعاتبها :

تعاتبني عرسي على أن أطيعهـــا لقد كذبتها نفسها ما تمنت
وظنت بأني كل ما رضيت بـــه رضيت به يا جهلها كيف ظنت
وقد غرها مني على الشيب والبلى جنوني بها جنت حيالي وحنت

وكانت كثيرة الشكوى الى جاراتها وتتجنى عليه كثيرا ويصور ذلك في قوله :

تشكى الى جـــاراتهـــا وبناتهـا إذا لم تجد ذنبا علينـــا تجنت

وكثيرا كان يعاتبها على تصرفاتها ويقول :

(١) الأغاني لأبي فرج الأصبهاني ج ١٢ ص ٣٢٦ – ٣٢٧ .
(٢) الديوان آل ياسين ص ٣١ – ٣٣ .

الا تلك عرسي أم سكن تنكرت خلائقها لي والخطـــوب تقلب
تعرض أحيانا وأزعم أنهـــا تحوط أمراً عنده تتقـــرب

أما حكاية اللقب « أم سكن » فلم يذكر المؤرخون أن لها بنتا بهذا الاسم أو غيره ولم يذكروا أيضا أن لأبي الأسود بنتا اسمها سكن ، ولكن الحقيقة كان لأبي الأسود الدؤلي بنات لم يذكر المؤرخون أسماءهن ..

الزواج الثالث : الزوجة الشامية :

أما زوجته الشامية فلا نعرف أسمها ، ولا نجد غير المحاورة التي دارت بينها وبين الدؤلي . فكان يبغضها بغضا شديدا . وقد طلقها أبو الأسود كما يقول الرواة ، وكان الخلاف بينهما على المولود ، وقد حكم معاوية لها الحق ان تأخذ ابنها وانصرفت ولم نجد ذكرا لهذه الحادثة في ديوانه اطلاقا ..

الزواج الرابع : قال أبو الفرج [1] : « كان أبو الأسود يجلس الى فناء امرأة بالبصرة فيتحدث اليها ، وكانت برزة جميلة ، فقالت له : يا أبا الأسود هل لك في أن أتزوجك فأني صناع الكف ، حسنة التدبير ، قانعة الميسور ؟ ، قال : نعم ، فجمعت أهلها فتزوجته فوجد عندها خلاف ما قدره ، وأسرعت في ماله ، ومدت يدها الى خيانته وأفشت سره فغدا على من كان حضر تزويجه أياها ، فسألهم أن يجتمعوا عنده ففعلوا فقال لهم :

أريت امرءا كنت لم أبلـــه أتاني فقال : اتخذني خليلا
فخاللتُه ثم أكرمتـــه فلم أستفد من لدنه فتيـــلا
وألفيته حـــين جربتـــه كذوب الحديثِ سروقا بخيـــلا

فقالوا : بلى والله يا أبا الأسود ، قال : تلك صاحبتكم وقد طلقتها لكم وأنا أحب أن أستر ما أنكرته من أمرها ، فانصرفت معهم » ..

(١) الأغاني ١١ / ٢١٠ وانظر ديوان الدؤلي ص ١٢٢ .

نساء في حياته

واذا نظرنا الى شعر الدؤلي في ديوانه نجد أنه يذكر بعض النساء اللاتي خطبهن ولكنه فشل في التزوج منهن ..

وحاول أبو الأسود أن يخطب امرأة من بني حنيفة [1] ، ولكن ابن عمها منعها عنه واسمها سلمى . وكان أبو الأسود على ما يبدو من قصيدته مولعا بحبها ، وقال :

ذروا آل سلمـــى ظنّتي وتعتبي وما زلّ مني ان ما فات فائت
ولا تهلكوني باللامـــــة إنما نطقت قليلا ثم اني لساكت
سأسكت حتى تحسبوني كأنني من الجهد في مرضاتكم مُتماوت
ألم يكفكم أن قد منعتم بيوتكم كما منع الغيلَ الأسودُ النواهتُ

كما خطب أبو الأسود الدؤلي امرأة من عبد القيس [2] يقال لها أسماء بنت زياد بن غنيم ، فأسر أمرها الى صديق له من الأزد ، يقال له : الهيثم بن زياد ، فحدث ابن عم لها كان يخطبها ، وكان لهـــا مال عند أهلها **فخشي ابن عمها الخاطب لها الى أهلها ما لها عندهم** فأخبرهم خبر أبي الأسود وسألهم أن يمنعوها من نكاحه ومن مالها الذي في أيديهم ، ففعلوا ذلك ، وضاروها حتى تزوجت ابن عمها . فقال أبو الأسود الدؤلي في ذلك :

لعمري فقد أفشيت يومـــا فخانني الى بعض من لم أخش سرا ممنعا
فمزقه مزق العمى وهـــو غافل ونادى بما أخفيت منه فاسمعـــا
ولست بجازيك الملامـــــة انني أرى العفو أدنى للرشاد وأوسعا

(٢) الديوان ص ١٣٥ آل ياسين والأغاني جـ ١٢ ص ٣١٦ .
(١) الأغاني جـ ١٢ ص ٥ ٣ ديوان ص ١١٥ .

ثم اشترى أبو الأسود جارية [1] أعجبته وكانت حولاء ، فعابه أهله على ذلك ولكن أبا الأسود لم يكترث لعيبهم وقال فيها متغزلا :

يعيبونهـــا عندي ولا عيب عندهـــا ... سوى أن في العينين بعض التأخـــرِ
فـــان يك في العينين سوءٌ فانهـــا ... مهفهةُ الأعلى رداح المؤخـــــرِ

وآخر الجواري في حياته ، هي لطيفة . وكان أبو الأسود قد اشتراهـــا للخدمة فجعلت الجارية تعرض للنكاح ، وتطيب وتشتمل بثوبها . فدعاها أبو الأسود فقال : انما اشتريتك للعمل ولم أشترك لغير ذلك ثم أشار يقول :

أصلاح اني لا أريـــدك للصبا ... فدعي التشمل حولنا وتبذلي
اني أريدك للعجـــين وللرحى ... ولحمل قربتنا وطبخ المرجـــل
واذا تروح ضيف أهلك أو غدا ... فخذي لآخر نحو أهلك مقبل

أولاد أبو الأسود :

بعد أن تعرضنا لنساء الدؤلي لزم علينا أن نشير الى أولاده ، واذا حققنا في هذا الموضوع نجد أن أبا الأسود ترك لنا ولدين وبعض البنات اللائي لم نعرف أسماءهن . أما أولاده فهما عطاء وأبو حرب ، وهما من أم عوف القشيرية . وكان أبو حرب أغزر علما من أخيه وجاء ذكره أكثر من عطاء، واذا تعرضنا الى حياة أبي حرب نجده تثقف على يد والده أبي الأسود . كما كان أبو حرب معروفا بين الناس [2] وله أحاديث كما نراه يصل الى مركز هام في عهـــد الأمويين . وفي الانباة يقول القفطي [3] : « وأما أبو حرب بن أبي الأسود

(١) الأغاني ج ١٢ ص ٣٠٦ الديوان ص ٥٢ .
(٢) سمط اللآلىء ج١٢ ص ٦٤٣ وفيات الأعيان ج ١٢ ص ٢١٨ .
(٣) الطبقات الكبرى ابن سعد ج ٧ ص ٣٦ .

فكان شجاعا عاقلا ولاه الحجاج جوخا [1] » وهي كورة واسعة في سواد بغداد بالجانب الشرقي . وقال الحموي عنها : « لم يكن ببغداد مثل كورة جوخا وكان خراجها ثمانين ألف درهم . وهذا مما يدل على مكانته وقال له الحجاج : « أما والله لو أدركت أباك لقتلته لأنه كان شيعيا » . .

وكان أبو الأسود يحث أبا حرب على طلب الرزق اذ قيل : « كان أبو حرب بن أبي الأسود الدؤلي [2] قد لزم منزل أبيه بالبصرة لا ينتجع أرضا ، ولا يطلب الرزق في تجارة ولا غيرها ، فعاقبه أبوه على ذلك . فقال أبو حرب : « ان كان لي رزق فسيأتيني » فقال له أبياتاً من الشعر رسم له طريق الحياة ، مؤمناً بالله راداً على ابنه رداً مقنعاً . ويقول في ذلك :

ومـــا طلب المعيشة بـــالتمني ... ولكن الق دلوك في الـــدلاء
تجيىء بملئهـــاً يومـــــاً ويوما ... تجيء بحمأة وقليل مـــــاء
ولا تقعـــد على كسل التمني ... تحيل على المقادر والقضاء
فان مقادر الرحمـــن تجـــري ... بأرزاق الرجال من السماء
مقـــدرة بقبض أو ببســـــط ... وعجز المرء أسباب البلاء

وأما ابنه الثاني فهو عطاء بن أبي الأسود ، ولم نجد في ديوان أبيه شيئا يذكر عنه واعتقد أنه كان أصغر سنا من أبي حرب ، ونرى ابنه عطاء فيما بعـــد يحاول [3] أن يتمم ما جاء به أبوه في النحو العربي ..

أما بنات أبي الأسود الدؤلي فلم نعرف عنهن شيئا. وكل ما ذكره المؤرخون في هذا الشأن اشارات سريعة وذكر الرواة خبر ابنته التي لحنت في حضرته عندما قالت له : أبت ما أجمل السماء ، ولم يذكروا اسمها ، كما وجدنا في أخباره أن

(١) أنباة الرواة القفطي ج ١ ص ٢١ وانظر معجم البلدان ج ١٨ ص ٤٦ .
(٢) الأغاني ج ١٢ ص ٣٢٩ وخزانة الأدب ١ / ١٣٨ وتهذيب ابن عساكر ج ٧ / ١١٥ .
(٣) روضات الجنات للخوانساري ج ١ ص ٣٣٤ .

له بنتا تقرض الشعر ولا ندري هل هي البنت نفسها التي جاء ذكرها في النحو ؟ أم لا ؟ وقد غضبت عندما أرسل معاوية الهدايا لوالدها ، ورفضتها ، ويذكر المؤرخون أن أبا الأسود كان ينصحها ويرشدها الى الطريق السليم ، ويبين لها بأن جمال المرأة بالأخلاق ، ثم بالزينة . ويقول لها : « اياك والغيرة ، فانها مفتاح الطلاق ، وعليك بالزينة ، وأزين الزينة الكحل ، وعليك بالطيب وأطيب الطيب أسباغ وضوء ، وكوني كما قلت لأمك في بعض الأحايين » :

خذي العفو مني تستديمـــي مودتي ... ولا تنطقي في سورتي حين أغضب
فاني وجدت الحب في الصدر والأذى ... اذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

وفي هذه الرواية نجد ابنته تخاف عليه من السفر والبرد وتقول :

« أراد أبو الأسود الدؤلي الخروج الى فارس [1] فقالت له ابنته : يا أبت انك قد كبرت وهذا صميم الشتاء فانتظر حتى ينصرم ، وتسلك الطريق آمنا فاني أخشى عليك .

فقال أبو الأسود :

اذا كنت معنياً بأمـــر تريده ... فما للمضاء والتوكل من مثل
توكل وحمل أمرك الله انمـــا ... تُرادبه آتيك فاقنع بذي الفضل
ولا تحسبن السير أقرب للردى ... من الخفض في دار المقامة والثمل
ولا تحسبيني يا ابنتي عز مذهبي ... بظنك أن الظن يكذب ذا الغُفَل
واني ملاق ما قضى الله فاصبري ... ولا تجعلي العلم المحقق كالجهل
وانك لا تدرين هل مـــا أخافه ... أبعدي يأتي في رحيلي أو قبـــلي
وكم قد رأيت حاذرا متحفظا ... أصيب وألفته المنيـــة في الأهل

وهكذا نلاحظ أن ابنته هذه كانت على قدر لا بأس به من الثقافة ، وكانت

(١) الديوان آل ياسين ص ١٢٠ والأغاني ج ١٢ ص ٣٠٨ .

متشيعة مثله . وأما الفتاة الثانية ابنة الشامية المطلقة ، فلم نسمع عنها سوى رواية ابن عساكر في تهذيبه . .

(صفات أبي الأسود الدؤلي)

نعتت كتب الأدب والسير أبا الأسود بنعوت مختلفة منها نعوت حسية وأخرى معنوية ونحب في هذا المجال أن نستعرض هذه الصفات كي نقف على حقيقتهـــا . .

أولا : نعوت حسية :

كان أبو الأسود الدؤلي أصلع الرأس ، كما كان أبخر الفم ، أما صفة الصلع فلم يذكرها سوى الجاحظ [1] ، أما حكاية البخر فتدل عليها الرواية التي ذكرها أبو الفرج [2] قال : « ان أبا الأسود سأل معاوية بن أبي سفيان شيئا ، فأصغى اليه ممسكا بكفه على أنفه ، فنحى أبو الأسود يده على أنفه وقال : لا والله لا يسود حتى تصبر على سوار المشايخ البخر » . .

وذكرت بعض الكتب التي نقلت لنا أنباء أبي الأسود أنه كان مفلوجا . ويصور ابن خلكان ذلك ويقول : « يحكى أنه أصابه الفالج ، فكان يخرج الى السوق يجر رجله [3] ، وكان موسرا ذا عبيد واماء فقيل له : قد أغناك الله عن السعي في حاجتك ، فلو جلست في بيتك ؟ فقال : لا : أخرج وأدخل حتى يقول الصبي قد جاء : ولو جلست في البيت وبالت على الشاة ما منعها أحد

(١) البيان والتبيين الجاحظ ج ١ ص ١٠٤ تحقيق عبد السلام هارون .
(٢) الأغاني لأبي فرج الأصبهاني ج ١٢ ص ٣٤٤ وذكر البخر أيضا الجاحظ ج ١ ص ١٠٤ بيـــان .
(٣) وفيات الاعيان ابن خلكان ج ٢ ص ٢١٨ البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٥ روضات الجنات ج ١ ص ٣٣٣ .

عني » . وقد أشار أبو العلاء المعري [1] الى عرجه عندما تحدث عن العاهات ..

ثانيا : صفات معنوية :

أما الصفات المعنوية فقد تركزت على ظاهرة البخل ، ولن نبالغ اذ نقول لا يمكن أي ناقل لأخباره أن يهمل الاشارة الى هذه الظاهرة ، حتى بالغ بعض الكتاب واعتبروه من مشاهير البخلاء ، كقول أبي الفرج [2] « بخلاء العرب أربعة : الحطيئة وحميد الأرقط — وأبو الأسود الدؤلي وخالد بن صفوان » ، أو وصف المعري [3] له « بالبخيل المتناور » ، وقد روي كثير من القصص التي تشير الى ظاهرة البخل الا أنها تمتاز بنوع من المبالغة كما يظهر عليها روح الفكاهة والنكتة والوضع . . . ومن هذه القصص يروى [4] أن أبا الأسودسمع رجلا وهو يقول : من يعشي الجائع ؟ فقال أبو الأسود علي به فأتاه بعشاء كثير وقال : كل حتى تشبع ، فلما أكل ذهب ليخرج قال : الى أين تريد ؟ قال أريد أهلي ، قال : لا أدعك تؤذي المسلمين الليلة بسؤالك ، اطرحوه في الأدهم . فبات عنده مكبلا حتى أصبح » ، واذا حققنا في القصة السابقة وفكرنا قليلا نجدها لا تدل على البخل وأعتقد أنها منتحلة لأن أباالأسود لا يمكن أن يصنع معروفا ، وينتهي الى هذا الحد بأن يلقيه مكبلا حتى الصباح . ولو كان بخيلا حقا ما دعاه الى طعام قط ولماذا يدعه مكبلا في الحديد حتى الصباح ، وما فائدة ذلك : وكيف يفعل أبو الأسود مثل هذا الفعل المنكر وينسى قوله تعالى : « قول معروف خير من صدقة يتبعها أذى » وهو المأثور بالسيرة الحميدة المتدينة . .

(١) رسالة الغفران ص ٤٠٠ تحقيق عائشة عبد الرحمن سنة ١٩٥٠ .
(٢) الأغاني ج ١٢ ص ٣٠٢ .
(٣) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ص ٤٠٠ تحقيق بنت الشاطىء .
(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ٣١ والعقد الفريد ج ٦ / ١٨٥ وحياة الحيوان للدميري ج ١ ص ٣٩٥ مع اختلاف الألفاظ . .

وهذه قصة ثانية رواها أبو الفرج [1] قال : « كان أبو الأسود له على باب داره دكان وكان يجلس على مرتفع من الأرض الى قدر صدر الرجل ، فكان يوضع بين يديه خوان على قدر الدكان ، فاذا مر به مار ، فدعاه الى الأكل ، لم يجد موضعا يجلس فيه . فمر به ذات يوم فتى ، فدعاه للغداء فأقبل ، فتناول الخوان فوضعه أسفل ، ثم قال له : يا أبا الأسود ، ان عزمت على الغداء فانزل : فنزل أبو الأسود — فجعل يأكل وأبو الأسود ينظر اليه مغتاظاً حتى أتى على الطعام ، فقال أبو الاسود : ما اسمك يا فتى فقال : لقمان : قال : لقد أصاب أهلك حقيقة اسمك » . .

في الواقع انني أشك في القصة السابقة لعدة أسباب :

أولا : ليس من المعقول أن يعزم شخص على الآخر ويكون المعزوم وقحا بالشكل الذي رأيناه في القصة ويقول للمضيف انزل ثم يبدأ بالأكل منفردا دون المضيف . .

ثانيا : ليست المسألة وليدة الصدف بأن يكون المعزوم لقمان ، انما الراوي أراد أن يثير القارىء أو السامع ويحبك القصة حسب أهوائه حتى ينتهي من روايته بسجع مناسب كما بدأها بذلك . اذ قال : — يوضع بين يديه خوان ، على قدر الامكان ، كما لم نجد أن أبا الأسود كان يملك دكانا قط ، بالاضافة الى النكتة التي حبكت في النهاية . .

ويتابع المؤرخون والرواة سرد قصص البخل عن أبي الأسود ويذكر الجاحظ [2] قصصا في هذا الشأن ويقول : « خرج أبو الأسود الدؤلي ومعه جماعة من أصحاب له ، فجاء اعرابي فقال له : السلام عليك فقال له أبو

(١) الأغاني ج ١١ / ١١٣ والبخلاء الجاحظ ص ١٤٠ .
(٢) البخلاء ص ١٥٣ والاغاني ج ١٢ ص ٣٠٦ . انظر العقد الفريد ج ٦ ص ١٨٥ وعيون الأخبار ج ٢ ص ٣١ وحياة الحيوان للدميري ج ٦ ص ١٨٥ هذه الرواية مذكورة في وفيات الأعيان . .

الأسود : كلمة مقولة ، فقال : ادخل ؟ فقال : وراءك أوسع لك . قال : ان الرمضاء أحرقت رجلي . قال : بل عليها ، أو أقصد الجبل ينمي عليك قال : هل عندك شيء تطعمينه ؟ قال : نأكل ونطعم العيال ، فان فضل شيء فأنت أحق به من الكلب فقال : ما رأيت قط الأم منك ، فقال أبو الأسود : بلى قد رأيتك . وفي رواية [1] أخرى ذكرت اسم الرجل ويدعى ابن أبي حمامة وكان أبو الأسود يأكل رطبا وقال له : ألا أطعمتني مما تأكل ؟ فألقى اليه أبو الأسود ثلاث رطبات فوقعت احداهن في التراب فأخذها فمسحها بثوبه وقال أبو الأسود : دعها فان الذي تمسحها منه أنظف من الذي تمسحها به ، فقال : انما كرهت أن أدعها للشيطان فقال ، : ولا لجبريل وميكائيل تدعها .. فانصرف عنـــه . .

ويبدو على الرواية السابقة روح الفكاهة والنكتة وخاصة عندما يطلب الرجل أن يستريح مما أصابه من تعب وإعياء ثم يرفض أبو الأسود الطلب ويقول له : بل على أقدامك أنت أحق من الكلب الى آخر الرواية فهي في الواقع تدل على النكتة أكثر من مدلولها على البخل . .

وقد ذكر بعض الرواة قصصا كثيرة تدل على بخله في رأيهم ويقول ابن قتيبة [2] ، وكان يقول لأولاده : « لا تجاودوا الله فانه أجود وأنجد ، ولو شاء الله أن يوسع على الناس كلهم حتى لا يكون محتاج لفعل » ويعقب الأستاذ أحمد شاكر [3] على هذا الخبر بقول معقول : « هذا من أعجب المغالطات في الاحتجاج للبخل والحض عليه » . ويروي ابن عساكر [4] القصة الآتية ويقول : « وقف عليه أعرابي فقال له : أصلحك الله شيخ هم ، غابر ماضين ، ووافد محتاجين ،

(١) ديوان أبي الأسود الدؤلي تحقيق عبد الكريم الدجيلي وتهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ١١٣ .
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ٢ ص ٧٢٩ وفيات الأعيان ج ٢ ص ١١٨ وحياة الحيوان للدميري ج ١ ص ٣٥٩ وعيون الأخبار ج ١ ص ٣١ .
(٣) الاستاذ أحمد شاكر محقق الشعر والشعراء .
(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ١١٢ .

أكله الدهر ، وأذاه الفقر ، فاعن مسيفا [1] ضعيفا ، فناوله أبو الأسود تمرة ، فرمى بها الاعرابي في وجهه ، وقال له : جعلها الله حظك من حظك عنده ، وألجأك الي كما ألجأني اليك ، ليبلوك بي كما بلاني بك » . والرواية السابقة يبدو عليها الوضع ، وخاصة عندما يلقي رجل كأبي الأسود حبة واحدة لا تسمن ولا تغني من جوع ، وليس معقولا أن يلقي أبو الأسود حبة واحدة ، ثم الاعرابي يقذفها مرة ثانية . .

وذكر أبو الفرج قال [2] : « سأل رجل أبا الأسود شيئا فمنعه فقال له يا أبا الأسود : ما أصبحت حاتميا قال : بلى أصبحت حاتميا من حيث لا تدري أليس حاتم الذي يقول :

أماوي أما مـــانع فمبيـــن واما عطاء لا ينهنهه زجر

نلاحظ على الرواية السابقة روح النكتة والفكاهة . .

وهذه قصة أخرى رواها أبو الفرج [3] : « قال حدثنا أبو عكرمة كان بين بني الديل وبين بني ليث منازعة فقتل بنو الديل منهم رجلا ثم اصطلحوا بعد ذلك على أن يؤدوا دية فاجتمعوا الى أبي الأسود يسألونه المعونة على أدائها ، وألح عليه غلام ذوبيان وعارضة فقال له : يا أبا الأسود أنت شيخ العشيرة ، وسيدهم ، وما يمنعك من معونتهم قلة ذات يد ، ولا سؤدد ، فلما أكثر ، أقبل عليه أبو الأسود ثم قال له : لقد أكثرت يا ابن أخي فاستمع مني : ان الرجل — والله ما يعطي ماله الا لاحدى ثلاث خلال : اما رجل أعطى ماله مكافأة مم يعطيه ، أو رجل خاف على نفسه فوقاها بماله ، أو رجل أراد وجه الله وما عنده في الآخرة ، أو رجل أحمق [4] خدع في ماله . والله ما أنتم احدى هذه الطبقات

(١) مسيفا من أساف الرجل اذا وهب ماله وأصله من السواف وهو داء يصيب الابل . .
(٢) الأغاني ج ١١ ص ١٠٣ .
(٣) الأغاني ج ٢ ص ٣٠٢ .
(٤) يتضح من التقسيم أنها أربعة مع أن صدر الرواية تقول ثلاثة فلعل الراوي أو الناسخ قد أخطأ

ولا جئتم بشيء من هذا ولا عمك الرجل الحاجز فينخدع لهؤلاء ، ولما أخرتك اياه في عقلك خير لك من مال أبي الأسود لو وصل الى بني الديل ، فقوموا اذا شئتم . فقاموا يبادرون الباب » . واذا وقفنا قليلا مع القصة السابقة نجد الذي قاله أبو الأسود لا يدل على بخله ، بل على تعمق أبي الأسود في فهم الحياة ورأى قومه لا يحتاجون للمساعدة فرفض اعطاءهم المال ، لأن أبا الأسود لم يكن لئيما حتى يقابل قومه هذه المقابلة ، وخاصة عندما تعرضوا لخطر يداهمهم ، وطبيعي أنه لا يحب أن يرى قومه أذلاء وهو القائل [1] : ليس من العز أن تتعرض للذل ، ولا من الكرم أن تستدعي اللؤم » . وقال لابنه :

أكرم صديق أبيك حيث لقيته واحبُ الكرامة من بدا فحباكها

وهذا رأي أبي الأسود في المال وجمعه :

قد يجمع المال شخصا ثم يحرمه عما قليل فيلقى الذل والحربا

ويقول في موضع آخر عن المال حيث نراه يتوكل على الله ولا يطمع في مال قريب أو غيره :

ولا تطمعن في مال جار لقربه فكل قريب لا ينال بعيد
ولا تشعرن النفس يأسا وانما يعيش بجد عاجز وبليد

وهو القائل لابنه :

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن الق دلوّك في الدلاء
تجئك بملئها يوما ويوما تجيء بحمأة وقليل ماء

وبعد هذا العرض الذي تتبعنا فيه ظاهرة البخل عند أبي الأسود الدؤلي وذكرنا كل ما قيل في هذا الموضوع ، نحب أن نشير الى حقيقة واضحة ، وهي

---

(١) البخلاء الجاحظ ص ٨٨ .

أن هذه القصص التي تشنع على أبي الأسود بالبخل والشح تبدو ضعيفة مهلهلة لا تقف أمام الناقد . وتشير معظمها الى المبالغة ، ويبدو عليها الوضع من كل جوانبها . .

ولم يكن غرضي نفي هذه التهمة أو أدافع عن شيء باطل لأكون متحيزا لأبي الأسود ، بل الأمانة العلمية لها حقها اذ اننا نقول الحق : ان الدؤلي لم يكن كريما كما يقول ولم يكن بخيلا كما تقول الرواة فانه كان وسطا بين هؤلا وينطبق عليه قوله تعالى : « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ، وقوله تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما مدحورا » . .

انني وقفت هذا الموقف من هذا الموضوع وجعلت أبا الأسود في مركز الوسط ، ليس بخيلا ولا كريما كما دلتنا على ذلك آثاره الشعرية ، ومعاملته مع الخلفاء والولاة والبيع وغير ذلك . .

* * *

(شجاعة أبي الأسود الدؤلي)

كان أبو الأسود الدؤلي شجاعا ، قاد المعارك وحارب مع الامام في الجمل وصفين كما أرسل على رأس قوة [1] للخوارج واذا نظرنا في ديوانه نجده يفتخر بهذه الشجاعة ويقول :

أجيب اذا الداعي دعاني واحتمي بأبيض مصقولٍ ضريبته عضب
واني لمن قوم اذا حاربوا العدى أغاروا بفتيانٍ مغاويرَ كالشهب

وقد قابل أبو الأسود الشاعر المعروف عمر بن أبي ربيعة في مكة ، وقد

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٣٠٧ .

اشتهر عمر بن أبي الربيعة بتغزله في النساء ، وفي هذه الرواية يحاول عمر بن أبي ربيعة أن يغازل زوجة أبي الأسود الدؤلي ، والرواية تقول : « قال أبو الفرج [1] : «عن محمد بن خلف المزرباني عن مولى لزياد قال: حج أبو الأسود الدؤلي ومعه امرأته وكانت جميلة فبينما هي تطوف اذ عرض لها عمر بن أبي ربيعة فأتت أبا الأسود فأخبرته فأتاه أبو الأسود فعاتبه فقال له عمر : ما فعلت شيئا فلما عادت الى المسجد عاد فكلمها فأخبرت أبا الأسود ، فأتاه في المسجد وهو مع قومه جالس فقال له :

واني ليثنيني عن الجهل والخنا ... وعن شتم أقوام خلائق أربع
حياء واسلام وتقيا وانني ... كريم ومثلي قد يضر وينفع
وشتان ما بيني وبينك انني ... على كل حال أستقيم وتظلع

فقال له عمر : لست أعود – يا عم – لكلامها بعد هذا اليوم ، ثم عاد فكلمها فأتت أبا الأسود فأخبرته ، فجاء اليه فقال له :

أنت الفتى وابن الفتى وأخو الفتى ... وسيدنا لولا خلائق أربع
نكول عن الجلى ، وقرب من الخنا ... وبخل عن الجدوى وانك تبلع

ثم خرجت ، وخرج معها أبو الأسود مشتملا سيفه ، فلما رآها عمر أعرض فتمثل أبو الأسود بهذا البيت :

تعدو الذئابُ على من لا كلاب له ... وتتقي صولة المستأسد الضاري

(١) الأغاني ج ١٢ ص ٣٠٢ .

(ذكاء أبي الأسود)

كان أبو الأسود الدؤلي ذكيا ، سريع الجواب ، لا يعوقه عائق . كما كانت تظهر على اجابته سرعة البديهة ، واجادة النكتة ، وكثيرا ما أشارت الكتب [1] الى هذا الذكاء . ووصفوه بحاضر الجواب والدهاء، في روضات الجنات [2] ، قال الشعبي : « ما كان أعف أطرافه وأحضر جوابه » . .

ومن آثاره التي رويت عنه في هذا المضمار بعض النكت والفكاهة حيث تدل دلالة أكيدة على ذكائه وسرعة تصرفه في المواقف الحرجة وغيرها ..

وفي القصة الآتية يرد على صديق له سأله عن سبب لبسه قميصاً مرقعاً ، حيث نراه يتخلص من الموقف بسهولة : « نظر المنذر بن الجارود الى أبي الأسود الدؤلي [3] وعليه قميص مرقوع فقال له : ما أجبرك على هذا القميص فقال له : رب مملوك لا يستطاع فراقه فبعث اليه بعض الثياب فقال أبو الأسود :

كساني ولم أستكسه فحمدته ... أخ لك يعطيك الجزيل وناصر
وإن أحق الناس ان كنت شاكرا ... بحمدك من أعطاك والوجه وافر

والحديث الآتي يدل على ذكاء أبي الأسود وحسن تصرفه ..

قال أبو الأسود عن نفسه : « ما غلبني رجل [4] قط الا رجل أخذت منه ثوبا بعشرين ، ومررت بجماعة ، سألوني عنه ، فقلت : أخذته بأربعين فلما وفيت الرجل ، قال : ما آخذ الا أربعين وهؤلاء الشهود عليك . وقال عن

(١) تهذيب التهذيب ج ١٢ ص ١٢ وفيات الأعيان ٢ / ٢١٦ طبقات ابن سعد ٧ / ٩٩
أسد الغابة ج ٣ / ١١٥ البيان والتبيين ج ٢ ص ١٠٤ .
(٢) روضات الجنات للخوانساري ص ٣٤٣ وأمالي المرتضى ج ١ ص ٢١٢ .
(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٢٣٣ طبعة ثانية سنة ١٩٤٨ المنذر بن الجارود صديق أبي الأسود الدؤلي ، ديوان ص ٨٥ . .
(٤) أنباة الرواة القفطي ج ١ ص ٢٠ الأغاني ج ١٢ ص ٣١٨ .

العمامة [1] : « جنة في الحرب ، مكنه في الحر ومدفأة من البرد ، ووقار في الندى ، وواقية من الأحداث ، وزيادة في القامة ، وهي بعد عادة من عادات العرب » . .

وفي الانباة [2] قال القفطي : « بلغني أن أبا الأسود قال لرجل هنأه بتزويج : باليمن والبركة وشدة الحركة ، والظفر عند المعركة » .

وقيل [3] : « اشترى أبو الأسود حصانا بتسعة دنانير ، واجتاز به على رجل أعور فقال بكم اشتريته ؟ قال : قومه فقال قيمته أربعة دنانير ونصف ، فقال : معذور أنت ، لأنك نظرته بعين واحدة فقومته نصف قيمته . .

وهو القائل لابن قشير [4] : ما في العرب أحب الي طول بقاء منكم قالوا : ولم ذاك ؟ قال : لأنكم اذا ركبتم أمرا علمت أنه غي فاجتنبه واذا اجتنبتم أمرا علمت أنه رشد فاتبعه — ان الأعور قال لأبي الأسود ما الشيء ونصف الشيء ولا الشيء [5] ؟ . .

قال : أما الشيء فكالبعير أنا .. وأما لا شيء فالأعمى. وأما نصف الشيء فأنت الأعور » . .

قال : أبو الأسود لأولاده [6] : « أحسنت اليكم كبارا وصغارا وقبل أن تكونوا فقالوا : أحسنت الينا كبارا وصغارا فكيف أحسنت الينا قبل أن نكون ؟ فقال : لم أضعكم موضعا تستحون منه . .

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٠ تحقيق عبد السلام هارون .
(٢) انباة الرواة القفطي ج ١ ص ٢٣ وذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار ٣ / ٦٨ .
(٣) حياة الحيوان الدميري ج ١ ص ٣٩٥ .
(٤) الاصابة ج ٢ ص ٢٣٣ ديوان ص ٧٣ .
(٥) ابن بدران تهذيب ابن عساكر ج ٧ ص ١١٢ .
(٦) روضات الجنات ص ٣٤٢ ديوان الدجيلي ص ٧٤ .

وقيل له [1] : أنت والله ظرف لفظ وظرف علم ووعاء حلم غير انك بخيل ، فقال : وما خير ظرف لا يمسك ما فيه . .

مهن أبي الأسود الدؤلي

التجارة :

نزل أبو الأسود الدؤلي البصرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب كما ذكرت سابقا . وكانت الحياة الاقتصادية في البصرة مزدهرة لما نزل فيها من مهاجرين من جهة ومن أخرى قربها من البلاد المفتوحة . .

وقد لاحظنا أثناء دراستنا لديوان أبي الأسود الدؤلي أنه كان يعمل تاجراً يبيع ويشتري النياق والعيس ويعتز بتربيتها . ويذكر الرواة أنه استفاد من هذه التجارة اذ كان موسرا [2] ذا عبيد واماء ، ومن القصص التي تدلنا على تجارته ما رواه أبو الفرج .

قال : « كان لأبي الأسود مولى [3] يختلف الى الأهواز ببضاعة له وكان الغلام يصيب من الشراب ، فوجد عليه أبو الأسود في بضاعة كان استبضعه اياها وقد غضب أبو الأسود على هذا الرجل وقال فيه :

واني امرؤ قد قال في الحق خطة ... لملتمس تصديقها ببيانهـــا
دع الخمر تشربها الفواه فانني ... وجدت أخاها مجزيا لمكانها
فان لا يكنهـــا أو تكنه فانه ... أخ أرضعته أمه بلبانها [4]

---

(١) أمالي المرتضى ص ٢٩٤ .
(٢) روضات الجنات ص ٣٤٣ .
(٣) الأغاني ج ١٢ / ٢١٤ انظر ديوان أبـي الأسود ص ١٨٢ آل ياسين .
(٤) استشهد بهذا البيت سيبويه في كتابه ج ١ ص ٣٠٧ وانظر مخطوط على شرح الكتـــاب للسيرافي ص ٢٠٩ ..

ثم نجد في شعره كثيرا من هذه الاشارات التجارية ، وهذه قصة حدثت بينه وبين أحد الرجال « كان رجل من [1] خزاعة يقال له : « وثاق بن جابر » وكان رجلا يحب البداوة ويتخذ اللقاح ويضعها.فأتى أبا الأسود،وعندهلقحة مريء – أي لا ولد لها ، يقال لها : الصفوف . فقال وثاق : ما بلقحتك بأس لولا عيب كذا وكذا ، ولكن هل لك أن تبيعنيها ؟ قال أبو الأسود : على ما يذكر فيها من العيب ؟ قال وثاق : اني أغتفر ذلك لحاجتي الى البداوة فقال أبو الأسود : بئست الخلتان الحرص والخدع . أنا بعيب مالي أشد اغتفارا ، فقال أبو الأسود في ذلك :

يريد وثـــاق ناقتي ويعيبهـــا ... يخادعني عنها وثاق بن جابر
فقلت : تعلم يا وثاق بأنهـــــا ... عليك حمى أخرى الليالي الغوابر

كان لأبي الأسود [2] لقحة يقال لها « الطيفاء » يقول : ما ملكت مالا قط أحب الي منها ، فأتاه فيها رجل من بني سدوس يقال له أوس بن عامر فجعل يماكر أبا الأسود عنها ويعيبها ، فوافق أبا الأسود بصيرا بها منافسا عليها فنزل له بها ثمنا ما فأبى أبو الأسود فقال أبو الأسود في ذلك :

أتاني في الطيفاء أوس بن عامر ... ليخدعني عنها بحسن ضراسها
فنام قليلا يائســـا غير نـــاجز ... وأحضر نفسا واثقا بمكاسهـــا
فأقسمت لو أعطيتماسمت مثله ... وأنت حريص ما غدوت برأسها

(١) الأغاني ج ١٢ ص ٣١٥ وما بعدها .
(٢) الأغاني ج ١٢ ص ٣١٦ ، ديوان أبي الأسود آل ياسين ص ٢٨ . .

(أبو الأسود الدؤلي قاضي البصرة)

(٣٥ هـ – ٤٠ هـ)

وصل أبو الأسود الدؤلي الى أرفع المراكز في حياته ، وهي وظيفة القاضي . واذا استعرضنا هذه الوظيفة تاريخيا ومتى نشأت ، نجدها مستحدثة ، ولم يكن للمسلمين في عهد الرسول قاض سواه ، لقلة عدد القضايا المرفوعة اليه . وسار أبو بكر على نهج الرسول ، الا أنه أسند القضاء الى عمر بن الخطاب فظـــل سنتين [1] لا يأتيه متخاصمان ، وممكن القول بأن عمر هو الذي أنشأ هـــذا النظام ، وكان أول من عين القضاة في الولايات الإسلامية ، وكان القضاة يعينون من قبل الخليفة ، ويراعى في اختيارهم غزارة العلم والتقوى والورع والعدل والذكاء . ولذا كان القاضي في عهد الخلفاء الراشدين مستقلا ، محترم الجانب . وكان اختيار القضاة في الولايات يفوض أحيانا الى الولاة ، اما من ناحية القوانين التي يحكم بها قضاء ، فكان مرجعهم في الحكم القرآن الكريم والسنة ، وأصبح الاجتهاد مبدأ يعتد به في الاحكام القضائية . ولم يكن للقضاء كاتب يدون الاحكام ، لأنها كانت تنفذ على أثر صدورها، ويحكم القاضي في منزله ، ثم أصبح يعقد جلساته في المسجد ، وكانت المرتبات قليلة ، ويقال أن عمر بن الخطاب جعل لشريح قاضي البصرة مـــائة درهم . ثم ارتفعت في عهد بني أمية تبعا لزيادة موارد الدولة ، وكان القـــاضي ينظر في شئون الميراث وأحكام الطلاق والزواج واليتامى والارامل [2] ، وجاء أسم أبي الأسود في كثير من الروايات على أنه قاضي البصرة [3] وإذا نظرنا الى الروايات

(١) التاريخ الاسلامي العام ص ٥٢٣ الدكتور ابراهيم حسن .
(٢) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري دكتور صالح العلي ص ٩٢ .
(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٥ – ١٢ / ٣١١ طبقات القراء ص ٧٧٣ سرح العيون ص ٢٧٧ معجم الأدباء ج ١٢ ص ٣٤ تهذيب التهذيب ج ١٢ ص ١٤ وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤١ العبر في خبر من غبر الحافظ الذهبي ج ١ ص ٧٦ وكثيرا من الكتب من الصعب حصرها ..

التي قيلت في هذا الشأن نجدها مختلفة في تاريخ التعيين فقط .. الا أن معظمها يرى أنه عين في زمن الأمام علي بن أبي طالب الذي كان عامله عبد الله بن عباس وعلى القضاء أبو الأسود الدؤلي ..

وهذه رواية [1] يقول ناقلها «لما استخلف علي بن أبي طالب عليه السلام ولى عبد الله بن عباس البصرة . فولى عبدالله بن عباس عبد الرحمن بن يزيد الحداني القضاء ولم يزل عبد الرحمن عليها أيام علي بن أبي طالب حتى قدم معاويـــة فعزله ..

وهذه الرواية خاطئة لأنها تختلف مع معظم الروايات ، والفترة التي عين فيها عبد الرحمن بن يزيد على القضاء بدأت في الأربعين للهجرة ، كان أبو الأسود حينذاك عامل البصرة [2] ولم يبق عبد الرحمن سوى عام واحد فقط .. واختلط الأمر على الرواة أنفسهم ، حتى خلطوا بينه وبين الضحاك بن عبد الله الهلالي فمنهم من يرى الضحاك ومنهم من يرى عبد الرحمن ، وما زال الأمر مبهما بين الأثنين ، وخلال الفترة التي عمل بها أبو الأسود بالقضاء كان عبد الله بن عباس عاملا عليها . وكان يثق بأبي الأسود ويستخلفه على البصرة كلما خرج منها لقضاء بعض الحاجات ، فكان أحيانا المفتي والقاضي معا [3] .. ومن أحكام أبي الأسود عندما كان قاضيا هذه القصة: اختصم لابي الأسود رجلان ، فكان أحدهما نحيف الجسم وكان رجلا فهما والآخر جهيرا قدما فاستعلاه النحيف ولكن أبا الأسود له موقف خاص في الناس وأحوالهم أنه لا يهتم بالمناظر لان مكانة الإنسان وقدره ترتفع بخلقه وعمله لا بشكله . ويصور أبو الأسود الدؤلي رأيه ويقول بعد أن قضى بينهما بالعدل :

(١) ديوان أبي الأسود الدؤلي تحقيق عبد الكريم الدجيلي ص ٢٠ نقل عن أخبار القضاء للقاضي وكيـــع . .

(٢) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة صالح العلي ص ٢٩٦ .

(٣) الأغاني ج ١٢ ص ٣٠٠ ويذكر أبو الفرج من جمله أخباره عن أبي الأسود الدؤلي أن عمر وعثمان عليهما السلام قد استعملاه وقد بينا خطأ هذه الرواية . .

ترى الرجلَ النحيفَ فتزدريـــه ... وفي أثوابه رجـــل مريـــــــر
وما عِظَمُ الرجالِ لهم بزيـــن ... ولكـــــن مجدها زيـــن وخير

وقضي أبو الأسود على رجل ، فشكاه فبلغه ، فقال أبو الأسود في ذلك شعرا بعد أن قضى بالحق للمظلوم :

إذا كنت مظلوما فلاتلف راضيا ... عن القوم حتى تأخذ النصف واغضب
وان كنت أنت الغالب القوم فاطرح ... مقـــاتلهم وأشغب بهم كل مشغب

وبقي أبو الأسود الدؤلي قاضيا على البصرة حتى العام الثامن والثلاثين للهجرة حيث أضيف اليه وظيفة الوالي [1] . والقاضي معا ، وبقي في هذين المنصبين حتى قتل الإمام علي سنة ٤٠ هـ ..

(أبو الأسود الدؤلي عامل البصرة)

(٣٨ هـ – ٤٠ هـ)

كان يطلق على الحاكم المسئول عن مصر من الامصار عاملا ، فمثلا نرى الخليفة عمر يعين أبا موسى الأشعري على البصرة فيقال : عامل عمر . وكان بعض الكتاب يطلقون عليه لقب الامير . وعندما بحثنا الوظائف التي عمل بها أبو الأسود ، وجدناه أصبح عاملا للبصرة بعد عبد الله بن عباس مؤقتا ، ثم دائما . أما مؤقتا فقد حدث ذلك في زمن ابن عباس نفسه ، عندما كان يغيب في أجازة ما ، يعين أبا الأسود الدؤلي واليا عليها . وكان هذا التعيين مؤقتا يستمر

(١) في دائرة المعارف الاسلامية ص ٣٠٧ يقال : لم يكن أبو الأسود على الدوام موفقا في حياته » وهذا رأي خاطىء من ناحيتين أولا قد وفق أبو الأسود في حياته ونعم كثيرا من الرخاء زمن الامام علي وبعده حتى أعداءه في هذا المبدأ كانوا يحبونه والناحية الأخرى قلما تجد رجلا مهما وصل في دنياه أن يوفق في حياته على الدوام . .

فترة غياب ابن عباس عن البصرة [1] ..

أما التعيين الثابت فقد تم ذلك بعد حادثة بيت المال التي حدثت من أبن عباس عندما كان واليا على البصرة من طرف الإمام علي بن أبي طالب ، وأما الحادثة فقد اعتبرها الإمام علي وأبو الأسود الدؤلي وبعض القوم أنها سرقة من أموال المسلمين ، واختلف المؤرخون في عدد المبلغ المأخوذ فمنهم اعتبرها بستة آلاف درهم [2] وقيل ستة آلاف [3] ألف درهم

أما صاحب الشأن ابن عباس فاعتبرها حلالا له . فيروي ابن عبد ربه عن أبي بكر بن أبي شيبة قال : « فاستعمل ابن عباس الفيء على تأويل قوله تعالى : « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى » واستحله من قرابته من رسول الله ﷺ ، ثم حاول ابن عباس بعد الحادثة أن يخرج من البصرة ، واستخلف عليها أبا الأسود الدؤلي مؤقتا ، يقول ابن خلكان[4] : « وحكى خليفة بن خياط أن عبد الله بن عباس كان عاملا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه على البصرة، فلما ذهب الى الحجاز استخلف أبا اسود الدؤلي عليها ، فلما علم أبو الأسود بهذه الحادثة حاول في الواقع ان يمنعه ويعيده الى صوابه الا أن ابن عباس أبى ذلك وقال لأبي الأسود غاضبا [5] : « لو كنت من البهائم لكنت جملا ولو كنت راعياً ما بلغت المرعى » ..

ثم حاول الخروج من البصرة ويقول ابن عبد ربه في هذا الشأن : « فلما أراد عبد الله المسير من البصرة دعا أخواله من بني هلال بن عامر بن صعصعة ، فجاءه الضحاك بن عبد الله الهلالي فأجاره » ..

(١) ديوان أبي الأسود تحقيق الدجيلي ص ٢٠ .
(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٨٠ طبعة النجف – العراق .
(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٥٦ .
(٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤١ وطبقات ابن سعد ج ٧ ص ٩٩ .
(٥) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٥٤ .

ويتحدث أبو الفرج تفصيلا لما حدث ويقول [1] : « « أخبرني محمد بن العباس اليزيدي ، قال حدثنا اليعقوبي ، قال حدثنا علي بن الجعد ، قال حدثنا معلى بن هلال عن الشعبي ، وأخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار ، وقال حدثنا عمر بن شبة ، قال حدثني المدائني جميعا قالوا : « لما خرج ابن عباس رضي الله عنه الى المدينة من البصرة تبعه أبو الأسود في قومه ليرده فاعتصم عبدالله بأخواله من بني هلال فمنعوه ، وكادت تكون بينهم ، فقال لهم بنو هلال : ننشدكم الله الا تسفكوا بيننا دماءً تبقى معها العداوة الى آخر الأبد وأمير المؤمنين أولى بابن عمه ، فلا تدخلوا أنفسكم بينهما ورجعت كنانة عنه، وكتب أبو الأسود الى علي عليه السلام فأخبره بما جرى فولاه البصرة » ..

على ضوء الروايات السابقة نصل الى نتيجة وهي أن أبا الأسود الدؤلي حاول جاهدا أن يعيد الحق الى نصابه ، وان يرد عبدالله بن عباس الى رشده ، ولكنه فشل عندما استجار ابن عباس بأخواله من بني هلال ، وخاف أبو الأسود الدؤلي أن يحدث قتالا بين المسلمين ، ولذلك اضطر ان يخبر الأمام بما حدث وأرسل له رسالة يقول فيها : « أما بعد [2] فإن الله جل وعلا جعلك واليا مؤتمنا ، وراعيا مستوليا ، وقد بلوناك ووجدناك عظيم الأمانة ، ناصحا للرعية ، توفر لهم فيأهم ، وتظلف نفسك عن دنياهم ، ولا تأكل أموالهم ، ولا ترتشي في أحكامهم ، وأن ابن عمك قد أكل ما تحت يده بغير علمك ، فلم يسعني كتمان ذلك فانظر – رحمك الله – فيما هناك واكتب الي برأيك فيما أحببت أن شاء الله والسلام . » ..

وقد اهتم الأمام برسالة الدؤلي اهتماما كبيرا حيث أرسل جوابا لأبي الأسود هذا نصه : [3] « أما بعد . فمثلك نصح الأمام والأمة وأدى الأمانة ودل على

(١) الأغاني لأبي فرج ج ١٢ ص ٣٠١ .
(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي مخطوط بدار الكتب ص ٧ دائرة المعارف الاسلامية ج ٧ وانظر الفتنة الكبرى على وبنوه – ص ١٣٤ والعقد الفريد ج ٤ ص ٣٥٤ .
(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٥٥ علي وبنوه ص ١٣٤ مع اختلاف يسير في الألفاظ ..

الحق وقد كتب اليّ صاحبك فيما كتبت الي فيه من أمره ولم أعلمه بكتابك الي فيه فلا تدع اعلامي بما يكون بحضرتك مما النظر فيه للأمة صلاح ، فأنك بذلك محقوق ، وهو عليك واجب والسلام » ..

وقد أرسل الأمام علي في نفس الوقت جوابا الى ابن عمه عبد الله بن عباس ويقول فيه [1] « أما بعد . فقد بلغني عنك أمر ، أن كنت فعلته ، فقد أسخطت ربك ، واخربت أمانتك ، وعصيت إمامك ، وخنت المسلمين ، بلغني أنك جردت الأرض وأكلت ما تحت يديك ، فارفع الي حسابك وأعلم أن حساب الله أشد من حساب الناس » ..

والظاهران ابن عباس لم يستمع لرأي الأمام ثم عاد الإمام وأرسل له رسالة ثانية يقول فيها : « أما بعد[1] فإن المرء ليس يدرك ما لم يكن ليفوته ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه ، فما أتاك من الدنيا فلا تكثر به فرحا ، وما فاتك منها فلا تكثر عليه حزنا ، واجعل همك لما بعد الموت » ..

وهكذا نجد الخلاف قد اتسع بين الامام وابن عمه مما أدى الى عزل ابن عباس وتعيين أبي الأسود خلفا له .. وكان هذا التكليف مضافا الى جانب وظيفته الأساسية وهي القاضي ، فبقي يعمل في الوظيفتين حتى العام الأربعين للهجرة وزعم بعض المستشرقين أن وظيفة الوالي للبصرة بعيدة الاحتمال بالنسبة لأبي الأسود ويقول [3] : لان رجلا مثل أبي الأسود الدؤلي يصف نفسه في اشعاره بأنه على استعداد لتقبيل اليد التي تصفعه ، ويتابع قوله ويقول : لم يكن

(١) ملاحظة « رد ابن عباس على جواب الامام وهو ينفي هذه التهمة والرد كما هو : أما بعد فان الذي بلغك باطلا وأنا لما تحت يدي ضابط وحافظ فلا تصدق على الأظناء رحمك الله والسلام، « طه حسين علي وبنوه ص ١٣٥ »

(٢) خزانة الأدب للبغدادي ج ١ ص ١٣٦ طبعة بولاق .

(٣) دائرة الممارف الاسلامية ج ١ ص ٣٠٧ . .

كفوءا لولاية البصرة في الظروف العصبية التي كانت تمر بها » ..

اننا لا نقبل مثل هذه الأراء المدسوسة على الأمة العربية ، كما أننا وجدنا خلاف ما ذكرته دائرة المعارف ، فإن الدؤلي كما بينت سابقا كان ذا رأي وحزم حتى رشح نفسه بأن يكون حكما للأمام في صفين ، كما أن هذا الخبر يتنافى مع ما جاءت به الروايات العربية التي تؤكد أن الدؤلي أصبح عاملا للأمام على البصرة كما لا يوجد في أشعاره مثل هذا الوصف بأنه مستعد أن يقبل الأيادي ..

* * *

« الفصل الثالث »

« العـالم »

« الفصل الثالث »

« العـــالم »

تمهيد :

كثير من الرواة تحدثوا عن أبي الأسود العالم ، وأبرزوه بين المقدمين في العلم والمعرفة . كما وصفوه بأنه من أكمل الرجال رأيا . [1] ، وأسدهم عقلا . أو كقول الجاحظ : « كان قد جمع شدة العقل وصواب الرأي وجودة اللسان [2] وهو من سادات التابعين [3] ، أما عند المحدثين الدارسين لتاريخنا العربي فلـــن ينسى ، اذ لا يزال اسمه يتردد على ألسنـــة المثقفين ، ذاكرين فضله ، وغزارة علمه . ولكن الحقيقة أن هذه الذكرى ذكرى ضيقة ، سريعة لا تتعدى سطورا قلة ، ولعلني في هذه الدراسة ، أستطيع أن أبرز له صورة صادقة ، تمثل آثاره العلمية تمثيلا دقيقا . وأعتقد أن كثيرامن آثاره فقد مع ما فقد من التراث العربي الخلاق الذي ظهر في بدء الدعوة الإسلامية ..

كان أبو الأسود الدؤلي عالما ، يحب العلم ، ويفضله على كل نادر ثمين ،

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢١٦ .
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٥٨ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٠٤ .

وكان يؤمن أن للعالم مكانة رفيعة في المجتمع ، ترتفع عن الملوك ، ويقول في ذلك : « الملوك حكام الناس والعلماء حكام الملوك » [1] ..

ويقول أيضا :

يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه لا تعدلن به درا ولا ذهبا

شيوخه :

لم يذكر المؤرخون شيوخ أبي الأسود الدؤلي في النحو ، وكيف جاء اليه هذا العلم . اذ بعضهم يعتقد أنه مؤسس النحو ، والبعض الآخر يرى أن أستاذه في ذلك الأمام علي بن أبي طالب . أما شيوخه في القراءة والحديث فمعروفون ، سنتحدث عنهم في حينه . ونحن نعلم أن أبا الأسود الدؤلي قد عاصر بعض الصحابة عليهم السلام ، كما عاصر رهطا من العلماء البارزين أمثال أبي موسى الأشعري [2] صاحب الصوت الجميل في قراءة القرآن كما عاصر العالم عبد الله بن عباس الذي دعا له النبي عليه السلام ليزيده في الفقه ويعلمه التأويل [3] وكثيرا من التابعين ..

آثار أبي الأسود الدؤلي

أولا : النحو العربي :

لن أبالغ اذ أقول ، أن النحو العربي اقترن باسم أبي الأسود الدؤلي وأصبح اسمه يتردد على ألسنة الملايين من العلماء والمثقفين في أنحاء العالم . وقد وقف

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص ١٢١ ، والعقد الفريد ج ٢ ص ٢١٤ .
(٢) الفتنة الكبرى « عثمان » طه حسين ج ١ ص ٢١٤ .
(٣) فجر الاسلام ، أحمد أمين ص ١٤٧ .

بعض [1] العلماء والباحثين في العصر الحديث ينفون هذا العمل الجليل عن أبي الأسود ، لأسباب سأذكرها في آخر البحث . وأنا في هذه الدراسة أحاول أن أبعث الضوء على هذه القضية الهامة ، وأبين ما وصلت اليه في هذا الموضوع من نتائج . لا أريد أن أتعرض لسبب نشأة النحو العربي ، لأنني أفردت له بابا في أول البحث ، وأنني سأبين دور أبي الأسود في نشأة النحو فقط ، ولـــن أغالي اذ أقول : أنني قرأت خمس سنوات متتالية في أخبار أبي الأسود، وقد كلفني ذلك الجهد الكثير ، وقرأت آراء القدماء والمحدثين في هذا الباب وحاولت جاهدا أن أصل إلى رأي نحوي واحد منقول عن الدؤلي فلم أجد الى ذلك سبيلا ، واطلعت على كتاب سيبويه [2] وقرأته بدقة فلم أجد فيه رأيا للدؤلي وأنما وجدت أشعارا للدؤلي استشهد بها سيبويه في كتابه . وقرأت شرح السيرافي على كتاب سيبويه فلم أجد فيه غير شعر له يستشهد به . ولكني — أقولها للحقيقة والتاريخ : أن أبا الأسود الدؤلي هو الذي أسس النحو العربي ، وغرس بذوره الأولى في فجر الأسلام الحنيف . علما بأنني أعتمد في ذلك على آراء القدماء الذين أمسوا نبراسا صالحا أضاءوا لنا طريق العلم والمعرفة ، واقتدى بأثرهم كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وأخذوا يغرفون من علمهم الزاخر ، الذي غدا جنة وارفة الظلال ، شهية الثمر ، وهؤلاء الذين نقلوا لنا تراثا اسلاميا ، عربيا ، واسع الآفاق ، خصيب الجوانب ، تزخر صحائفه بمختلف ألوان الانتاج ، ويحفل تاريخه بفنون العبقريات والإلهام ، لم يخطئوا جميعا ، وقد وقف بعض العلماء في هذا العصر ينفون عن أبي الأسود هذا العمل الجليل ، يدعون ان سيبويه لم ينقل عنه ، ولم يكن في يوم من الأيام جهل الحقيقة يؤول الى نفيها . واستدل على ذلك أيضا بقول الأستاذ علي النجدي ناصف : « وإذا كان سيبويه لم يرو للدؤلي فهل نستطيع القطع بأن أحدا آخر لم

(١) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ابراهيم مصطفى ج ٢ وانظر تاريخ آداب العرب للرافعي ج ١ ص ٢٩١ والمدارس النحوية شوقي ضيف ص ٢٧ ودائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٣٠٨ ..
(٢) الكتاب سيبويه جزءان الطبعة الأولى ١٣١٦ هـ ..

يرو له » ، ثم يعقب : » وما كان جهل الحقيقة لينفي وجودها [1] ولاسيما حين تتصل بأمر تتظاهر له الأنباء وتتعدد عنه الروايات » ..

« آراء القدماء وجهود أبي الأسود في النحو »

عندما نستعرض آراء القدماء ، نجدها متكررة في الكتب مبعثرة ، هنا وهناك ، غير مبوبة ، حتى نجد في الكتاب الواحد ، عدة آراء متباينة ، متشابكة ومعظم هذه الآراء تنسب النحو لعلي بن أبي طالب ولأبي الأسود ، والبعض الآخر ينسبه الى تلامذة أبي الأسود الدؤلي . وقسمنا هذه الآراء الى ثلاثة أقسام . وتتبعنا في ذلك التقسيم الناحية التاريخية ، اذ اعتمدنا على قدم الرواية حيث نظرنا الى تاريخ وفاة الراوي أو المؤرخ كما جمعنا المتشابه منها ، وأشرنا الى ذلك في هامش البحث ..

القسم الأول :

وهو الذي ينسب النحو لأبي الأسود الدؤلي منفردا . يروي ابن سلام [2] المتوفى سنة ٢٣٢ هـ في هذا الشأن « وكان لأهل البصرة في العربية قدمه وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية وكان أول من أسس العربية وفتح بابها ونهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي حين اضطرب كلام العرب فغلبت

(١) سيبويه أمام النحاة لعلي النجدي ناصف .

(٢) طبقات الشعراء « ابن سلام » محمد بن سلام الجمحي ص ٥ طبعة ليدن ١٩١٣ معجم الأدباء ياقوت الحموي جـ ١٢ ص ٣٤ مطبوعات دار المأمون : رواية ابن سلام تتفق مع ما رواه أبو حرب الدؤلي عن والده أبي الأسود الدؤلي عندما قال : أول باب رسم أبي من النحو باب التعجب وقيل : باب الفاعل والمفعول والمضاف اليه وحروف الرفع والنصب والجر ، انظر الأغاني جـ ١٢ ص ٢٩٩ وأنباة الرواة جـ ١ ص ١٦ ..

السليقة ولم تكن نحوية فكان سراة الناس يلحنون فوضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم » ..

ويروي ابن قتيبة [1] المتوفى سنة ٢٧٦ هـ هذا الخبر : « أول من وضع علم النحو أبو الأسود الدؤلي بل أول من وضع في النحو كتابا لما كثر اللحن في المنطق » ..

ويقول أبو العباس المبرد [2] المتوفى سنة ٢٨٥ هـ : « أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود الدؤلي » ..

وهذا أبو الطيب اللغوي [3] المتوفى سنة ٣٥١ هـ يقول : « وضع أبو الأسود الدؤلي النحو بنفسه عندما سمع اللحن في قراءة القرآن كما يروى أن أبا الأسود وضعه — أي النحو — ليتعلمه بنو زياد » ويتحدث السيرافي [4] المتوفى سنة ٣٨٦ هـ عن جهود أبي الأسود الدؤلي في النحو ويقول : « وروى يحيى بن آدم ، عن أبي بكر بن عياش ، عن عاصم ، قال : أول من وضع العربية أبو الأسود الديلي » ويقال : أن أبا الأسود لما وضع باب الفاعل والمفعول زاد في ذلك الكتاب رجل من بني الليث أبوابا وذكر ابن النديم المتوفى سنة ٤٠٠ هـ [5] رواية هامة يقول فيها : « رأيت في احدى الخزائن بمدينة الحديثة ما يدل على أن النحو عن

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ ٢ ص ٧٢٩ وسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباته ص ٢٧٦ مطبعة المندني مصر سمط اللآلىء أبو عبيد البكري الأدنبي جـ ١ ص ٦٦ وأسد الغابة جـ ٣ ص ٧٠ المزهر للسيوطي جـ ٢ ص ٣٤٥ ، مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص ٨ تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٧ ص ١٠٤ وتهذيب التهذيب جـ ١٢ طبعة الهند ١٣٢٧ هـ وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٥ مخطوط بدار الكتب . .

(٢) أنظر الاصابة لابن حجر جـ ٢ ص ٢٤١ وطبقات الزبيدي ص ١٤ . .

(٣) مراتب النحويين واللغويين لأبي الطيب اللغوي ص ٨ وما بعدها . .

(٤) أخبار النحويين البصريين السيرافي ص ١٢ ص ١٧ ذكر هذه الرواية ياقوت الحموي معجم الأدباء جـ ١٢ ص ٣٤ رسالة السيوطي في التحفة البهية والطرفة الشهية ص ٥٢ انباة الرواة القفطي ص ٢٠ . .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٥٩ .

أبي الأسود ، وهذه حكايته : وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها « هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود الدؤلي رحمه الله بخط يحيى بن يعمر وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوي وتحته خط النضر بن شميل ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه فما سمعنا له خبراً ولا رأيت منه غير المصحف هذا على كثرة بحثي عنه » وهذه رواية للقفطي [1] المتوفى سنة ٦٤٦ هـ يؤكد فيها أن أبا الأسود أول من استنبط النحو ويقول في ذلك : « ومن الرواة من يقول أن أبا الأسود هو أول من استنبط النحو وأخرجه من العدم الى الوجود وأنه رأى بخطه ما استخرجه ولم يعزه الى أحد قبله » . .

وقد وجدنا روايتين تذكران أبا الأسود هو الذي وضع النحو العربي ولكنه فعل ذلك باستشارة الخليفة عمر بن الخطاب والعجيب أن ابن الأنباري المتوفى سنة ٥٧٧ أول من أورد ذكر عمر بن الخطاب في هذا المجال وعنه نقل ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ والسيوطي المتوفى سنة ٩١١ . والمهم في هذه الرواية أن أبا الأسود وضع النحو باستشارة عمر بن الخطاب . .

يقول ابن الأنباري [2] المتوفى سنة ٥٧٧ هـ : « روى أنه قدم أعرابي في خلافة عمر بن الخطاب فقال : من يقرؤني شيئا مما أنزل الله ، فأقرأه رجل — براءة — فقال : « ان الله بريء من المشركين ورسوله » فقال الاعرابي : أو قد برىء الله من رسوله فأنا أبرأ منه !! ، فبلغ عمر ذلك ، فدعاه وقال له : يا

(١) أنباة الرواة القفطي جـ ١ ص ١٦ ويذكر القفطي هذه الرواية ولم نجد شبيها لها وتقول : وقيل : وأتى أبو الأسود عبدالله بن عباس فقال : اني أرى ألسنة العرب قد فسدت فأردت أن أضع شيئا لهم يقومون به ألسنتهم قال : لعلك تريد النحو اما انه حق استعن بسورة يوسف والخلاف في الرواية : أنه يقول أن أبا الأسود استشار ابن عباس الذي كان عاملا لعلي على البصرة ولم نر مثيلا لهذه الرواية وهي مخالفة للروايات جميعها . .

(٢) نزهة الألباب للانباري ص ٩ وتهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٧ ص ١١٠ وانظر التحفة البهية والطرفة الشهية للسيوطي ، الرسالة الرابعة ص ٤٩ طبع القسطنطينية سنة ١٣٠٢ هـ . .

اعرابي ، أتبرأ من رسول الله ، فقال : يا أمير المؤمنين اني قدمت المدينة ، ولا علم لي بالقرآن ، فسألت ، من يقرؤني ؟ فأقرأني هذا سورة «براءة» — ان الله بريء من المشركين ورسوله — ان الله بريء منه فأنا أبرأ منه ، فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابي ، فقال : كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « ان الله بريء من المشركين ورسوله » فقال الاعرابي وأنا أبرأ ممن برىء الله ورسوله منهم فأمر عمر ألا يقرأ القرآن الا عالم ، وأمر أبا الأسود أن يضع النحو » . .

ويذكر القفطي خبرا شبيها بالرواية السابقة ويقول : « وقد كتب [1] عمر بن الخطاب الى أبي موسى الأشعري ، أما بعد فتفقهوا في الدين ، وتعلموا السنة وتعلموا طعن الدرية وأحسنوا عبارة الرؤيا وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الاعراب » ، ونحن نشك في صحة الروايتين السابقتين لأنهما تخالفان جمهور الرواة من جهة ، ومن جهة أخرى أن عمر بن الخطاب لم يزر البصرة طيلة حياته [2] ، كما لم يظهر النحو العربي في عصر الخليفة عمر بن الخطاب .والخلاصة التي نصل اليها من الروايات السابقة هي أن أبا الأسود الدؤلي هو الذي أسس علم النحو منفردا دون الاستعانة بأحد ، دفعه الى ذلك أسباب دينية واجتماعية وقومية . .

* * *

(١) انباة الرواة للقفطي جـ ١ ص ١٦ .

(٢) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة « القرن الأول الهجري » صالح العلي ص ٩٣ . .

القسم الثاني مـــن الروايات

وهي التي تسند أصوله الى الامام علي بن أبي طالب

نرى الروايات الآتية تسند أصول النحو من حيث النشأة والابتكار ، للامام علي ثم يأتي ابو الأسود الدؤلي ، وينفذ توصيات الامام وتعليماته ، وتنقسم هذه الروايات من حيث الموضوع الى قسمين :

القسم الأول : يروي أخبارا عن تلك الأصول النحوية وكيف تلقاها الدؤلي عن الامام علي . .

القسم الثاني : يتحدث عن الأصول النحوية التي ألقاها الامام لأبي الأسود الدؤلي . .

« القسم الأول »

وهي الروايات التي تذكر أخبارا عن دور الامام علي في نشأة النحو العربي دون التعرض للأصول ، عندما [1] تحدث أبو الطيب اللغوي عن أبي الأسود يقول : « كان أول من رسم للناس النحو أبو الأسود الدؤلي الذي أخذ ذلك عن

(١) مراتب النحويين ص ٦ والنحويون البصريون للسيرافي ص ١٢ .

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لأنه سمع لحنا ، وقال لأبي الأسود اجعل للناس حروفا ، وأشار له للرفع والجر والنصب » ، ثم يتابع حديثه ويقول « فلم يزل أبو الأسود ضنينا بما أخذه عن علي حتى قال له زياد قد فسدت ألسنة الناس وذلك أنهما سمعا رجلا يقول ستقطت عصاتي فوافقه أبو الأسود على ذلك » .وتحدث[1] ابن النديم المتوفى سنة ٤٠٠ هـ عن نشأة النحو قال : « زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي وأن أبا الأسود أخذه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » . ويتحدث [2] ابن الأنباري عن هذا الموضوع ، فيقول : « ان أول من وضع علم العربية وأسس قواعده وحد حدوده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي » . ثم يذكر جلال الدين القفطي [3] عدة أخبار عن دور الامام في نشأة النحو ويقول : « الجمهور من أهل الرواية على أن أول من وضع النحو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه » .. ويقول : « قال أبو الأسود : دخلت على أمير المؤمنين علي – عليه السلام – فرأيته مطرقا مفكرا فقلت فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ فقال : سمعت في بلدكم لحنا فأردت أن أضع كتابا في أصول العربية » . ويقول : « وأهل مصر قاطبة يروون بعد النقل والتصحيح أن أول من وضع النحو علي بن أبي طالب وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي » . ويقول : « وقد رأيت بمصر زمن الطلب بأيدي الوراقين جزءا فيه أبواب من نحو أبي الأسود يجمعون على أنها مقدمة علي بن أبي طالب التي أخذها عنه أبو الأسود الدؤلي » ..

ثم يروي الجزري عند ذكر أبي الأسود : « أول من وضع مسائل النحو باشارة علي رضي الله عنه، فلما عرضها على علي قال ما أحسن هذا النحو الذي

(١) الفهرست لابن النديم ص ٦٥ .
(٢) نزهة الالباب للانباري ص ١٠ .
(٣) أنباة الرواة ، القفطي ص ٤ – ٦ ط ١ تحقيق محمد أبو الفضل ج ١ سنة ١٥٩٠ ، القاهرة ..

نحوت ! فمن ثم سمي النحو نحوا » . وفي الحماسة [1] لأبي تمام يقول التبريزي عند ذكره لأبي الأسود : « وهو الأصل في بناء النحو وعقد أصوله برأي من علي بن أبي طالب رضي الله عنه . .

ويذكر السيوطي [2] بعض الأخبار ويقول : « ان أمير المؤمنين هو البادىء به والمنبه عليه والمنشىء والمشير اليه » «وكان أول من رسم للناس النحو أبو الأسود الدؤلي وكان أبو الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه » . ويقول السيوطي [3] : « وقيل لأبي الأسود من أين لك هذا العلم يعنون النحو قال : أخذت حدوده عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ». ويتحدث السيوطي عن هذه التعليقة التي ذكرها القفطي قال السيوطي : « قال ابن عساكر في تاريخه : كان ابو اسحاق ابراهيم بن عقيل النحوي الدمشقي المعروف بابن المكبري يذكر أن عنده تعليقة لأبي الأسود الدؤلي التي ألقاها الامام علي بن أبي طالب ، وكان كثيرا ما يعد بها أصحاب الحديث ، الى أن دفعها الى الفقيه أبي عباس أحمد بن منصور المالكي ، وكتبها عنه وسمعها منه سنة ٤٦٦ هـ الا أننا نجد نفيا لهذه الرواية عندما يتحدث ياقوت الحموي [4] عن ابراهيم بن عقيل ويقول : « ان التعليقة النحوية التي كانت عنده هي من أمالي أبي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي النحوي المعروف » . ووصف الأستاذ مصطفى صادق الرافعي [5] تعليقة أبي الأسود بأنها كتاب من وضع نصر بن

(١) طبقات القراء لابن الجزري شمس الدين ص٣٤٥ ، والشعر والشعراء الدينوري ص٢٨٠ ط٢ وشرح ديوان الحماسة لأبي تمام ج٢ . وذكر هذا الخبر في شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج ١ ص ٧٦ لأبي فلاح الحنبلي . .

(٢) المزهر للسيوطي ج ٢ ص ٤١٥ .

(٣) الأشباه والنظائر السيوطي ج ١ ص ٧ طبعة ثانية » ديوان أبي الأسود ص ٢٢ .

(٤) ياقوت الحموي ج ١٢ ص ٢٠٦ معجم الأدباء .

(٥) تاريخ آداب العرب مصطفى الرافعي ج ١ ص ٢٩١ ويذكر الرافعي في الصفحة نفسها : « ثم أول ما كتب في الأدب صحيفة أبي الأسود الدؤلي التي لم يكتب غيرها وكان أصحابه يكتبون عنه ، لم نجد اشارة من القدماء الى هذا الرأي اطلاقا . .

عاصم الليثي ويقول : وهي معروفة عند النحاة بتعليقة ابي الاسود » . .

والخلاصة من روايات القسم الأول وهي تتفق على أن الامام عليا هو المنبه والبادىء ، ثم يأتي أبو الأسود الدؤلي ويكمل الموضوع . .

« القسم الثاني »

وهي الروايات التي تحدثت عن الأصول : يروون عن أبي الأسود [1] أنه قال : « دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فرأيته مطرقا مفكرا فقلت : فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ قال : اني سمعت في بلدكم هذا لحنا فأردت أن أضع كتابا في أصول العربية ، فقلت : ان فعلت هذا ، أجمعتنا وبقيت فينا هذه اللغة ثم أتيته بعد أيام ، فألقى الي صحيفة فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » والكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم مـــا أنبأ عن مسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل . ثم قال لي : تتبعه وزد فيه ما وقع لك ، واعلم يا أبا الأسود ان الأشياء ثلاثة ، ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ، قال أبو الأسود : فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه فكان من ذلك حروف النصب ، فذكرت منها إن وأن وليت ولعل وكأن ولم أذكر لكن . فقال لي : لم تركتها فقلت لم أحسبها منها ، فقال بل هي منها فزدها فيهـــا » . .

ويتحدث عبد الرحمن الانباري [2] عن هذه الأصول ويروي عن أبي

(١) نزهة الألباب لابن الانباري ص ١٣ والأغاني ج ١٢ ص ٢٩٩ وانباة الرواة ج ١ ص ٤ رسالة السيوطي من كتاب التحفة البهية والطرفة الشهية – الرسالة الرابعة ص ٤٩ ، ص ٥٣ طبع في القسطنطينية سنة ١٣٠٢ هـ . .

(٢) انظر نزهة الألباب لابن الانباري ص ٤ وما بعدها ذكر هذا الخبر السيوطي في المزهر ج ٢ ص ٤١٥ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢١٦ الأغاني ج ١٢ ص ٢٩٨ ، أخبار النحويين البصريين السيرافي ص ١٢ ، نزهة الالباب الانباري ص ٣ – ص ٧ ، الشعر والشعراء ابن قتيبة أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل ص ٣٩٥ وخزانة الأدب البغدادي ج ١ ص ١٣ ، والجزري في طبقات القراء ص ٣٤٥ .

الأسود الدؤلي أنه قال : « دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام فوجدت في يده رقعة ، فقلت ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : اني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة الحمراء » . ثم ألقى اليه — الرقعة وفيها ما سبق وتحدثنا عنه . ثم يروي الانباري على لسان أبي الأسود فيقول : « ثم وضعت باب العطف والنعت ثم بابي التعجب والاستفهام ، ثم الى باب ان وأخواتها ما خلا لكن فلما عرضتها عليه أمر بضمها . وكنت كلما وضعت بابا من أبواب النحو ، عرضته عليه ، الى أن حصلت ما فيه الكفاية قال : ما أحسن هذا النحو الذي نحوت فسمي النحو » . أما صاحب أنباة الرواة فيقول [1] « وروي أيضا عن أبي الأسود الدؤلي أنه قال : «دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، فأخرج لي رقعة فيها الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى . قال : فقلت ما دعاك الى هذا قال : رأيت فسادا في كلام بعض أهلي ، فأحببت أن أرسم رسما يعرف به الصواب من الخطأ فأخذ أبو الأسود النحو عن علي — عليه السلام » أما أبو الفرج [2] فيذكر فيما رواه تفصيلا لهذا النحو الذي تلقاه أبو الأسود عن الامام ويقول : « أخبرنا أبو جعفر بن رستم الطبري النحوي عن عثمان المازني عن أبي عمر الجرمي عن أبي الحسن الأخفش عن سيبويه عن الخليل بن أحمد عن عيسى بن عمر عن عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي عن عنبسة الفيل وميمون الأقرن عن يحيى بن يعمر الليثي أن أبا الأسود الدؤلي رضي الله عنه دخل الى ابنته في البصرة فقالت له : يا أبة ما أشد الحر رفعت أشد فظنها تسأله وتستفهم منه أي أزمان الحر أشد فقال لها : شهر ناجر فقالت له : يا أبت أنا أخبرتك ولم أسألك . فأتى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . فقال له : يا أمير المؤمنين ، ذهبت لغة العرب لما خالطت العجم وأوشك إن تطاول عليها زمان أن تضمحل فقال له : وما ذلك فأخبره خبر ابنته فأمره ، فاشترى صحفا بدرهم وأملى عليه الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف

(١) أنباة الرواة للقفطي ج ١ ص ٥ . .

(٢) الأغاني ج ١١ ص ١٠١ طبعة ساسي ثم انظر التحفة البهية والطرفة الشهية ص ٥١ للسيوطي . .

لمعنى وهذا القول أول كتاب سيبويه ثم رسم أصول النحو كلها فنقلها النحويون وفرعوها . وقال أبو الفرج : هذا حفظه عن أبي جعفر وأنا حديث السن » . .

* * *

« روايات القسم الثالث »

نجد هذه الروايات تخالف ما جاء به الجمهور عن واضع النحو العربي ، وهي قليلة العدد . وتنسبه الى أشخاص غير أبي الأسود ، ظهروا بعده من الناحية الزمنية وأغلبهم من تلاميذ أبي الأسود . .

واذا تصفحنا هذه الروايات نجد أولها ما يذكره السيرافي [1] عندما قال : « اختلف الناس في أول من رسم النحو فقال قائلون أبو الأسود الدؤلي ، وقال آخرون : نصر بن عاصم الدؤلي ، ويقال الليثي ، وقال آخرون عبد الرحمن بن هرمز وأكثر الناس على أبي الأسود الدؤلي » . .

ويتابع السيرافي روايته ويقول [2] في موضع آخر عندما تحدث عن نصر بن عاصم : « وقد روى محبوب البكري عن خالد الحذاء قال : سألت نصر بن عاصم وهو أول من وضع العربية » وعندما يتكلم عن عبد الرحمن بن هرمز قال : كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية وكان أعلم الناس بأنساب قريش وأحد القراء [3] . .

(١) أخبار النحويين البصريين السيرافي ص ١٠ رواها المزهر ج ٢ ص ٦٥ ، نزهة الالباب للانباري ص ١٦ . .

(٢) نفس المرجع ص ١٥ رواها السيوطي في التحفة البهية ص ٥٤ والانباري ص ١٦ وابن النديم الفهرست ص ٦٨ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ١٠٧ .

(٣) أخبار النحويين البصريين ص ١٥ .

وفي نزهة الألباء [1] يروي الانباري هذا الخبر ويناقشه ويقول : « زعم قوم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، وزعم آخرون أن أول من وضع النحو نصر بن عاصم الليثي » . ثم يناقش الخبر فيقول « فأما من زعم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن نصر بن عاصم فليس بصحيح لأن عبد الرحمن أخذ عن أبي الأسود ويقال عن ميمون الأقرن والصحيح كما يعتقد الأنباري أن أول من وضع النحو علي بن أبي طالب » . ويعلل ذلك لأن الروايات كلها تستند لأبي الأسود وأبي الأسود يسند الى علي كرم الله وجهه . .

وفي الواقع عندما تتبعنا تلاميذ أبي الأسود لم نجد أثرا لعبد الرحمن بن هرمز لأنه سافر الى الاسكندرية ومات هناك بينما وجدنا محاولة لابنه عطاء ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم . أما ابن سلام فوضح هذا الخبر وقال [2] : « أخذ عن أبي الأسود يحيى بن يعمر ثم ميمون الأقرن وعنبسة الفيل ونصر بن عاصم الليثي والخلاصة من الروايات السابقة التي تخص القسم الثالث أن الرواة أنفسهم ناقشوا الأخبار السابقة ونقدوها وأثبتوا أن هذين العالمين نصر بن عاصم وعبد الرحمن ابن هرمز ليسا أولَ من أسس النحو العربي بل هما تلميذا أبي الأسود الدؤلي . .

* * *

« مناقشة الروايات التي تخص القسم الأول »

ان نظرنا الى روايات القسم الأول تفصيلا ، وجمعنا المتشابهة فيها ، نجدها تتفق جميعها أن أبا الأسود هو الذي أنشأ النحو العربي ، أما بدافع من نفسه ، أو

(١) نزهة الالباء للانباري ص ١٣ ويصف عبد الرحمن بن هرمز تلميذ الدؤلي بالأعرج ولم أشاهد أحد الكتاب يصفه بهذه الصفة . انظر الفهرست لابن النديم ص ٦٦ وجاء في تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ١١١ الطبعة الأولى دمشق بأن المؤلف أطلق على ميمون الأقرن ميمون الافريقي . .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ، ص ١٢ . .

بدافع ديني أو قومي ، ونحن في هذا الصدد ، نقرر بل نؤكد أن أبا الأسود هو الذي وضع علم النحو العربي وغرس بذوره الأولى ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا : اتفاق جمهور الرواة من القدماء على أن أبا الأسود الدؤلي هو الذي أنشأ النحو العربي وأخرجه من العدم . ومن الممكن أن نقبل الروايات التي أسندت النحو لأبي الأسود دون تجريح فهي متفقة على الرجل على الرغم من اختلافها في الأسباب . واذا حاولنا التعقيب حول الأسباب التي ذكرها الرواة نجدها أسبابا معقولة ، تدفع أبا الأسود للقيام بهذا العمل . وليس عجبا أو مستبعدا أن يقوم أبو الأسود الدؤلي وهو المشهور بالعلم والذكاء والمعرفة بعمل يخدم به دينه ومجتمعه ولغته عندما يسمع اللحن في كتاب الله أو يرى اللحن منتشرا في بيئته بل في منزله وعلى لسان ابنته . .

ثانيا : الآثار المادية :

ذكر ابن النديم أنه رأى نحو أبي الأسود نفسه ، كما تحدث عن فقدانه بنفسه وهل تكون مثل هذه الرواية موضعا للشك ؟ كلا لأنها شهادة من رجل نثق فيه ونعتمد عليه في معرفة الكثير عن تراثنا الفكري في القرون الأولى . وهو من الرواة الثقات . وتصفه العالمة الألمانية [1] سيجريد هونكة وتقول : « وهو من أشهر تجار الكتب كما كان من كبار العلماء ، وكان على جانب عظيم من العلم والمعرفة ، فقد حضر محاضرات مشاهير عصره كما تزاور معهم وكان على صلة قوية بهم وبمختلف الجهات العلمية في عصره . وكان صديقا لكثير من العلماء » . .

وليست هذه الشهادة فقط انما هناك شهادات أخرى وهي شهادة القفطي [2]

(١) فضل العرب على أوربا سيجريد هونكه ص ٢٩٤ ترجمة فؤاد حسنين علي . .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٦٦ وهذه الرواية صادقة ومطابقة كثيرا من الروايات الخاصة في المحتويات ، السيرافي أخبار النحويين ص ١٧ . .

عندما يقول، بل يؤكد، أن أبا الأسود استنبط النحو وأخرجه من العدم الى الوجود وأنه رأى بخطه ما استخرجه ولم يعزه الى أحد قبله . .

الشكل :

أما الأثر المادي الآخر فهو المصحف الذي لا تزال آثاره موجودة حتى الآن في دار الكتب المصرية . وهو المصحف الكوفي المخطوط وهو مشكل بالطريقة التي سار عليها أبو الأسود الدؤلي ، وقد أجمع الرواة دون استثناء أن أبا الأسود الدؤلي هو الذي قام بتشكيل المصحف فهذا العمل في اعتقادنا يخص النحو العربي دون سواه ، ولعله أعظم خدمة قدمت للعربية حتى الآن . .

ثالثا : شهادة أولاد أبي الأسود الدؤلي :

وهي تطابق ما قاله ابن النديم في الفهرست تقريبا من حيث الموضوع . ويقول ابن النديم عن أوراق أبي الأسود الدؤلي « فيها الفاعل والمفعول به » ويقول أبو حرب الدؤلي : « أول باب رسمه أبي باب التعجب ، وقيل باب الفاعل والمفعول » . وهذا ما يوافق ما شاهده ابن النديم عند صاحبه الذي مات » . .

رابعا : كما نلاحظ أن قول الامام علي لأبي الأسود الدؤلي : ما أحسن هذا النحو الذي نحوت تدل دلالة أكيدة على أن النحو من جهد الدؤلي حيث لا تدع مجالا للريب في هذا الشأن . .

خامسا : نرى الروايات الأخرى التي تخص الامام عليا رضي الله عنه وتجعله مؤسسا للنحو العربي غير دقيقة ومضطربة من الممكن أن تناقش وان تجرح وتفسر تفسيرا آخر ربما كان أقرب الى الصواب من تفسيرها بأولية وضع النحو ، وسنبين ذلك عندما نتحدث عن روايات القسم الثاني . .

« مناقشة روايات القسم الثاني »

قبل أن نعقب على الروايات التي تخص الامام وتجعله المؤسس لعلم النحو . نحب أن نقرر مبدئيا أن الامام عليا لم يشترك في تأليف النحو ، وكل ما فعله في هذا الشأن هو أنه أيد وشجع أبا الأسود الدؤلي فقط ، لقيامه بهذا العمل . ونعلل ذلك بالأسباب الآتية :

أولا : اذا نظرنا الى تلك الأصول التي تحدث عنها الرواة ونسبوها للامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه على أنه ألقاها لأبي الأسود الدؤلي نجدها تحتوي على تفصيلات دقيقة كقول الامام : « الكلام كله اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن مسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل ، وان الأشياء ثلاثة ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر » . .

فنحن نشك بهذه التقسيمات الدقيقة ، لأن طبيعة العرب والنشأة معا لم تكونا مهيئتين لمثل هذه التقسيمات أو التبويبات من جهة ، إذ لا يمكن لعلم كالنحو أن ينشأ بهذه الدقة التي ذكرها الرواة ، كما أن نظرة فاحصة الى نشأة العلوم الأخرى تميل بنا الى أن النحو العربي كغيره من العلوم نشأ وليدا ثم نما وترعرع فيما بعـــد . .

أما التقسيم السابق فقد ورد عند سيبويه المتوفى سنة ١٤٩ هـ [1] الذي يبعد عن الامام والنشأة أكثر من مائة عام والذي ثبت يقينا أنه لم يرو لأبي الأسود شيئا . يقول سيبويه في أول كتابه [2] : « فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى » . .

ومن جهة أخرى لم يكن الامام علي مجهزا أو مستعدا لهذا العمل أو لمثيله قط لأنه عندما جاء البصرة كان مشغولا بحرب الجمل كما أن الحروب والفتن لم تعط الامام وقتا يفرغ فيه للتأليف في العلوم وتنقيحها أو اختراعها ولو كان

(١) سيبويه حياته وكتابه ، الدكتور أحمد بدوي ص ٧ ط ٢ .
(٢) الكتاب لسيبويه ، انظر أول الكتاب ص ٣ ط ١ / ١٣١٦ هـ بولاق . .

الامام هو المنشىء له فلماذا لم يظهر في الكوفة مثلا وهي موطن الامام وموطن حكمه ؟ وكان فيها من العلماء من هم أقدر من أبي الاسود الدؤلي ؟ والبصرة نشأت قبل الكوفة بعامين فقط ولم يكن الفارق الزمني بعيداً بين انشاء المدينتين حتى ينشأ النحو في البصرة ، لولا ارتباطه بأبي الاسود الدؤلي ، واذن فالروايات السابقة غير صحيحة ..

ثانيا : اضطراب الروايات التي ذكرت أخبارا موجزة :

نلاحظ أن الروايات التي خصت الامام بنشأة النحو وذكرت أخبارا موجزة عنه مضطربة ، غير محدودة الالفاظ ، فمعظمها تطلق الالفاظ الاتية : المنبه — المشير — الموجه ولو دققنا النظر في هذه المعاني فالمنبه مثلا ليس معناها مؤسس الشيء أو صانعه ، فنقول نبه القائد جيشه بملاحظة العدو ويقال : نبهه أيضاً على الشيء بمعنى أرشده . أما المشير اليه فهي من « شور » أشار ونقول: أشار اليه باليد وأشار عليه بالرأي والموجه تشير إلى الارشاد فأقول وجهني الدكتور إلى الاهتمام بالتاريخ الهجري فهذه الاحكام وان خصت الامام في الظاهر ، الا انها تشير إلى أبي الاسود في الواقع عملا وقولا . وقبل أن نتهي من موضوعنا عن النحو والامام لنا أن نتساءل : ما دور الامام علي بن أبي طالب في نشأة النحو ؟ .. لماذا جاءت الروايات متشابكة ؟ واشركت الامام والدؤلي معا ؟ .. نعتقد أن هناك أسباباً هامة جعلت هذا الاشتراك التزاما طبيعياً لا بد أن يوجد ونعلله بالاسباب الاتية :

١ — التعصب الشديد للامام علي وخاصة من الشيعة : نحن نعلم أن الشيعة يتعصبون للامام علي ، ويحاولون بكل وسيلة أن ينسبوا اليه كثيراً من العلوم والاحاديث وغير ذلك، فالرجل الذي ألف النحو العربي أبو الاسود الدؤلي من أنصار الامام وشيعته ، وكان على علاقة طيبة مع الامام ، ومن يدري ، لعل أبا الاسود نفسه هو الذي نسب ذلك إلى الامام علي ارضاء لنزعته الشيعية من

جهة ، ومن جهة أخرى ، أن نسب العلم للامام وموافقته عليه يكتب له التأييد والقبول وقد يطمئن أبو الاسود لهذا العلم من حيث صحته بالاضافة إلى ذلك قد يكسب رأي الجماهير الاسلامية ، لانه صادر بارادة الامام، وعدم معارضته وخاصة بمدينة كالبصرة التي كانت تسير في حياة عصبية أقرب إلى الجاهلية منها إلى الاسلام ..

٢ — كان الامام هو الحاكم المسئول عن البصرة فيجب أن يطلع على كل عمل أو فكر يقام بها ، وخاصة أن هذا عمل يخص الدين فقد اختلف الخلفاء الراشدون في جمع القرآن نفسه فمنهم من رأى أن يتركه كما تركه الرسول ، ومنهم من رأي جمعه وحتى كتابه الحديث ، كانت ممنوعة في بدء الدعوة فكيف يقوم أبو الاسود بهذا العمل دون الرجوع للدوائر المختصة ، ونلاحظ حتى يومنا هذا لا يستطيع أي باحث أن أن ينشر شيئاً الا أن يخضع لما يسمى بالرقيب وعلى هذا الاساس كانت علاقة الامام وارتباطها بالنحو علاقة طبيعية لا بد أن توجد ..

٣ — طموح أبي الأسود الدؤلي :

كان أبو الاسود الدؤلي طموحاً في الحصول على وظائف رفيعة في البصرة . فقد كان قاضياً لها . وقد أصبح مركز الامارة خالياً ، وذلك بعد طرد ابن عباس من ولايتها إذ نرى أبا الاسود يراقب الموقف عن كثب ، ويطمح في ذلك المركز الجديد ، وأراد أن يفعل شيئاً كثيراً حتى يرتفع في عين الامام فقام وجهز ما فعله من نحو، وانتهز فرصة الانتهاء من حرب الجمل، وعرضه على الامام الذي وافقه على رأيه ، كما نرى ابا الاسود قبل حرب الجمل يقوم بمحاولات هامة للصلح بين الاطراف المعنية ، إذ يذهب إلى عائشه ، ويجادل طلحة والزبير ، ويحاول أن يمنعهما عن هذه الحرب ، الا أنه فشل في ذلك . إذ نراه بعد الحرب ، يلتقي بالامام علي ، وكان مجهزاً أوراقه في النحو . وفي اللقاء

الذي تم بينهما في البصرة ، وخاصة بعد انتصار الامام في حرب الجمل ، عرض أبو الاسود الفكرة على الامام، وأوضح له خطرها على الدين وقراءة القرآن . وكانت الاوراق جاهزة مع أبي الاسود فلما رآها الامام القى عليها نظرة ، وأيده في الموضوع ، وقال له انح هذا النحو . وهي الاربع الورقات التي ذكرها ابن النديم وذكرها آخرون بأنها كتاب في النحو . وهذا في رأينا هو السبب في التشابك بين الروايات ، واشراك الامام علي رضى الله عنه في هذه المسألة ، وهذا ما وجدناه في بعض الروايات التي تشير إلى الامام علي أنه الموجه والمشير ..

ثالثاً : اضطراب الروايات التي تحدثت عن الاصول :

نلاحظ أن الروايات التي تحدثت عن الاصول مضطربة . ومختلفة . فالرواية الاولى ذكرت أن أبا الاسود دخل على الامام ، وهو مطرق ، مفكر ، غاضب لما سمع لحناً ، ثم فجأة يخرج ورقة من جيبه ويلقي بها إلى أبي الاسود ، ولو كانت هذه الرواية صحيحة لاحتاجت إلى ترو وتفكير أطول من الامام حتى يبدأ بالتأليف . ولو كان الامام جاهزاً لعمل شيء ما ، لا يحتاج الامر إلى التفكير والاطراق والغضب ..أما الرواية الثانية فجاءت بشكل آخر إذ تذكر أن أبا الاسود دخل على الامام علي فوجد في يده ورقة جاهزة ، بها كثير من أبواب النحو ، ثم جاء أبو الاسود وزاد عليها كثيراً من أبواب النحو كالعطف والنعت ثم بابي التعجب والاستفهام إلى باب ان واخواتها ما خلا لكن ثم عاد أبو الاسود فعرضها على الامام ، فأمره بضمها إلى أن حصل أبو الاسود بما فيه الكفاية . ونحن نعلم أن هذه الابواب التي تتحدث عنها الرواية السابقة ظهرت فيمابعد الامام وأبي الاسود .. أما الرواية الثالثة فلها رأي آخر إذ تذكر على لسان أبي الاسود أنه عندما دخل على الامام ، أخرج له الامام رقعة فيها التقسيم الذي ذكرناه سابقاً . فالروايات السابقة كما نلاحظ مضطربة مختلفة نعتقد أنها من خلق وابتكار الشيعة ..

« مناقشة روايات القسم الثالث »

أما هذه الروايات التي تخص القسم الثالث فهي روايات صادقة ، لانها في الواقع لا تخص نشأة النحو المقترن بأبي الاسود ، لأن هؤلاء متأخرون عنه، وكانوا من تلاميذه .والعمل الذي قاموا به أنهم توسعوا في الاصل الذي جاء به أبو الاسود ، أمثال نصر بن عاصم الليثي ويحيي بن يعمر ..

والخلاصة في هذه الاعمال اننا نصل الى أن أبا الاسود الدؤلي وورقاته الاربعة تمثل النشاط البدائي في التأليف النحوي ثم جاء دور تلاميذه وبدأوا يحاولون تكملة ما رسمه لهم أستاذهم أبو الاسود ..

تلاميذ أبي الأسود ورجال مدرسته

قبل التحدث عن التكملة التي أنشأها تلاميذه يجب أن نذكر شيئاً عن هذه المدرسة .

ذكرت الكتب الادبية والتاريخية تلاميذ أبي الاسود الدؤلي ، ورجال مدرسته الاولى . وقد جاء في بعض هذه الروايات ، بعض التقديم والتأخير ، واذا استعرضنا هذه الروايات نجدها كالاتي :

يتحدث السيرافي عن الدؤلي ومدرسته ويقول [1] : « وأخذ عن أبي الاسود جماعة منهم : يحيى بن يعمر وعنبسة بن معدان وهو– عنبسة الفيل وميمون الاقرن ويقال ميمون بن الاقرن ، ويقال : « ان نصر بن عاصم الليثي أخذ عن أبي الاسود » ..

ثم يتحدث[2] عن نشاط تلاميذ أبي الاسود ويقول: «فكان أبرع أصحابه عنبسة بن معدان المهري واختلف الناس إلى عنبسة،فكان البارع من أصحابه

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١٧ – ١٩ .
(٢) المزهر للسيوطي ص ٣٩٨ ، طبقات النحويين ص ٢ .

ميمون الأقرن ، وكان صاحب الناس فخرّج عبد الله بن أبي اسحاق » ..

كما يذكر السيوطي تلاميذه، ويزيد عليهم عطاء بن أبي الاسود، يقول[1] : « قال أبو حاتم : تعلم منه ابنه عطـــاء بن أبي الاسود ثم يحيى بن يعمر العدواني ، وكان حليف بني الليث وكان فصيحاً عالما بالغريب ثم ميمون الاقرن وهو عنبسة بن عبدان المهري وهو عنبسة الفيل » ..

وأمافيما روينا عن الخليل فانه ذكر أن أبرع أصحاب أبي الاسود عنبسة الفيل وأن ميمون أخذ عنه بعد أبي الاسود ورأس الناس بعده عنبسة وزاد في الشرح..

ويقول أبو الطيب اللغوي [2] : « أبرع أصحاب أبي الاسود عنبسة الفيل وميمون ألأقرن » ..

أما صاحب روضات الجنات [3] فحدد عدد تلاميذ أبي الاسود بخمسة ويقول : «قيل أن أبا الاسود خلف خمسة من التلاميذ هم عطاء وأبو حرب وهما إبناه وعنبسة وميمون ويحي بن النعمان العدواني ويقال[4] : «سعد الرابية من تلاميذه

ومن الروايات نستنتج أسماء تلاميذه . وهم :

يحيى بن يعمر– عنبسة الفيل – ميمون الاقرن .– نصر بن عاصم –عطاء الدؤلي وأبو حرب الدؤلي وسعد بن شداد الملقب «سعد الرابية » ..

ثم تخرج عليهم تلاميذ مثل عبد الله بن أبي اسحاق وهكذا ..

واختلف العلماء في تقديم عنبسة الفيل على ميمون، وبعض الروايات لم تذكر أولاده ، والمهم في هذا الموضوع ، أن هؤلاء التلاميذ حملوا لواء هذا العلم

(١) الفهرست لابن النديم ص ٦٨ . .
(٢) مراتب النحويين لأبي الطيب الحلبي ص ١٢ .
(٣) روضات الجنات ص ٣٤٤ – ٦٦ .
(٤) بغية الوعاة ٢٧٤ طبعة أولى السعادة مصر سنة ١٣٢٦ .

واختلف الناس اليهم ، يغترفون من علمهم ، وحاول بعض التلاميذ أن يتمموا ما جاء به أبو الاسود ..

ويقول السيرافي [1] : « روي عن قتادة أن أبا الاسود لما وضع بـــاب الفاعل والمفعول ، زاد في ذلك الكتاب رجل من بني الليث ، ثم نظر فاذا في كلام العرب ما لا يدخل فيه فاقصر عنه ، فيمكن أن يكون هذا الرجل الذي من بني ليث يحيى بن يعمر اذ كان عداده في بني ليث » .. فمن هو الليثي هذا ؟؟.. هل هو يحيى بن يعمر وهو أحد الآخذين عن الدؤلي ، وكان عداده في بني ليث ابن كنانه ثم هو الذي كتب الاوراق التي وجدها ابن النديم ؟ أم هو نصر بن عاصم الليثي[2] ؟ لا شك أنه نصر بن عاصم الليثي لامرين :

١ – نسبته صراحة الى بني ليث أما يحيى بن يعمر ، فهو عدواني ، منسوب الى بني ليث بالولاء كما يقول الزبيدي في الطبقات نقلا عن أبي حاتم السجستاني حليف بني الليث ..

٢ – ثم ما أورده ياقوت عن نصر بن عاصم ونقله السيوطي يرشح هـــذا الترجيح ، فقد أوردوا في الحديث عن نصر أن له كتابا في العربية وهذه تعتبر المحاولة الثانية في تاريخ النحو العربي ونشأته بعد أبي الأسود الدؤلي . ولكن نصرا يتوقف عن السير قدما في كتابه ، لانه وجد استقراءه [3] ناقصا، ثم نرى محاولة ثانية ونعتبرها محاولة سارت جنبا الى جنب مع محاولة نصر بن عاصم ، وهو ما رواه القفطي اذ يقول [4] : « ان عطاء الدؤلي

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١٧ والفهرست لابن النديم ص٦٨ وطبقات النحويين للزبيدي ص ٤ والسيرافي في أخبار النحويين البصريين ص ١٧ وأبي الطيب الحلبي في مراتب النحويين ص ١٢ .
(٢) أبو علي الفارسي عبد الفتاح شلبي ص ٤٥٠ . .
(٣) أبو علي الفارسي ، عبد الفتاح شلبي ص ٤٥٢ .
(٤) أنباة الرواة للقفطي ج ٢ ص ٣٨ .

اتفق بعد موت أبيه مع يحي بن يعمر على بسط النحو ، وتعيين أبوابه ، وبعج مقاييسه ، ولما استوفى هو ويحي بن يعمر جزءا وفيرا من أبوابه ، نسب بعض الرواة اليهما أنهما أول من وضع هذا النوع . » .. ثم تأتي المحاولة الثالثة وهي المحاولة التي قام بها عيسى بن عمر الثقفي تلميذ عبدالله بن أبي اسحاق وقد تحدث السيرافي عن تلك المحاولة [1] وقال : » وله كتابان في النحو سمي أحدهما الجامع والآخر المكمل ويقول الخليل بن أحمد عنه :

بطل النحو جميعا كلـــــــه غير ما أحدث عيسى بن عمـــر
ذاك إكمال وهـــذا جامـــع فهما للناس شمس وقمـــــر

وهذان الكتابان ما وقعا الينا ولا رأيت أحدا يذكرأنه رآهما » وبعمل عيسى تتم المراحل التي تقتضيها سنة النشوء [2] والارتقاء والتدرج الذي تدعو اليه طبيعة الأشياء ..

ويوحي اسم كتابه الاكمال ، بتدارك فائت ، وتمام ناقص ، كما يوحي اسم كتابه الجامع بضم اشتات ، واستيعاب شوارد ، فيكون بذلك أول من بلغ غايته في كتاب النحو ، ويقدر المؤرخون عمله فيبالغون بما قام بهمن استقراء فيقولون [3] : « انه أراح من النظر والاستقراء ومكن النحو وقواعده التي اعتمدها تلميذه الخليل ومن تلاه من البصريين » ..

---

(١) أخبار النحويين البصريين ص ٢٥ ابن اسحاق هو عبدالله بن أبي اسحاق مولي آل الحضرمي ١٤٧ هـ الفهرست لابن النديم ص ٦٩ ويقول وقد فقد الناس هذين الكتابين ويقول الدكتور شوقي ضيف عن عيسى بن عمر الثقفي انه من أهم تلاميذ ابن أبي اسحاق « المدارس النحوية ص ٢٥ » . .

(٢) أبو علي الفارسي عبد الفتاح شلبي ص ٤٥٢ المدارس النحوية شوقي ضيف ص ٢٣ دار المعارف سنة ١٩٦٨ م . .

(٣) المدارس النحوية شوقي ضيف ص ٢٧ . .

الجدول الآتي يبين العلماء الأوائل الذين أسسوا نحونا العربي ومن تتلمذ عليهم :

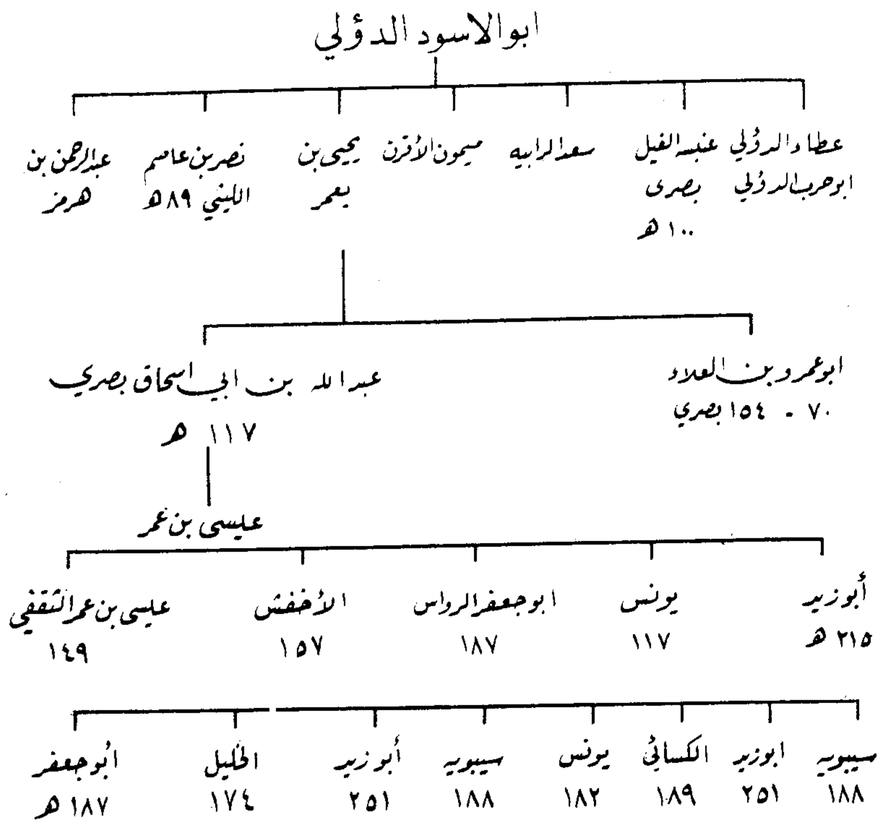

اخذت هذا الجدول عن كتاب ضحى الأسلام ط ٦ ص ٢٨٤ للاستـــاذ أحمد أمين الذي أخذه عن كتاب Arabic crammer by Hawvel — بعد أن زدت فيه بعض الزيادات وأصلحت بعض التواريخ واذا تكرر الاسم في الجدول فمعنى ذلك تعدد مشايخه .. وقد تتبعنا تلاميذ أبي الأسود في هذه الدراسة وأشرنا

للمنتج منهم أما عنبسة الفيل وميمون الأقرن فلم يؤلفا كتبا سوى تعليم النحو لبعض الناس أما عبد الرحمن بن هرمز أبو داوود الأعرج كما يقول الانباري فإنه سافر الى الاسكندرية ومات هناك . وأما أبو حرب الدؤلي فلم نجد له شيئا . .

« آراء المحدثين في نشأة النحو »

فيما سبق بينا آراء القدماء في النحو العربي ، ونحب أن نشير في هذا المجال الى آراء المحدثين ..

اتفق معظم الباحثين على أن أبا الأسود الدؤلي ، هو الذي أسس النحو العربي وغرس بذوره الأولى . ما عدا قلة من الباحثين اذ ربطوا النحو بابن اسحاق الحضرمي زاعمين في ذلك أن سيبويه لم يرو لابي الأسود شيئا ، كما لا توجد آثار تدل على أن النحو من ابتكار أبي الأسود . ولم يكن في وقت من الأوقات جهل الحقيقة يؤول الى نفيها كما أن ذهاب الأثر في بطون التاريخ لا يسقط من قيمة الرواية شيئا وخاصة ان كانت الرواية من رجل ثقة كابن النديم مثلا ..

وما ذكرناه في بحثنا عن النحو وأبي الأسود خير دليل ورد كاف في الوقت نفسه لتفنيد زعمهم وادعاء اتهم ..

ومن هؤلاء القلة الاستاذان ابراهيم مصطفى وشوقي ضيف اللذان ينكران نحو أبي الأسود الدؤلي وقد رد الاستاذ عبد الوهاب حموده [1] على ما زعم

(١) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة حول بحث أول من وضع النحو الأستاذ عبد الوهاب حموده ، حج ١٣ ج ١ ص ١٣٦ . المتهم بالخطأ والخطل المرحوم ابراهيم مصطفى .

الاستاذ ابراهيم مصطفى ونحب أن نورد بعض الفقرات من رده: قال: جاء الاستاذ ابراهيم مصطفى فيه برأي طريف خالف فيه السابقين واللاحقين من مسلمين ومستشرقين » ..

واتهمه بالخطأ والخطل معاً. كما اتهمه بالسرقة من كتاب ضحى الاسلام. ثم يتحدث عن أبي الأسود ويقول : « كيف يسوغ أن رجلا كهذا ، وحوله المجتمع يعج باللحن تارة في القرآن الكريم وتارة في غيره ثم هو لا يفكر في موانع لهذا اللحن وضوابط لهذه العربية » ..

ربما كانت رواية ابن سلام عندما استعمل الفعل بعج في قوله « أول من بعج من النحو » . هي التي جعلته يصدر هذه الاحكام . ويرد الاستاذ عبد الوهاب حمودة في هذا الشأن ويقول : « فظن هؤلاء أو نسوا او تناسوا أن المعنى لكلمة بعج لا يساندهم بل أنه يخذلهم خذلانا كبيرا لأنها تفيد التوسع والامتداد وقد اتجه الدكتور [1] شوقي ضيف في الخط نفسه الذي سار فيه الأستاذ ابراهيم مصطفى حيث ربط النحو بابن اسحاق . ويقول الدكتور عبد الفتاح شلبي [2] : « ولا يسع الباحث أن ينكر ما كان لأبي الأسود الدؤلي من باكورة في هذا النشاط وما يؤثر عن أبي الأسود يعد بذرة تعهدها النحاة من بعده ، ، ورعوها حق رعايتها » ..

ويقول الدكتور علي النجدي ناصف [3] : « نعم فعندي أن واضع النحوهو أبو الأسود الدؤلي والموجه اليه هو الأمام علي رضي الله عنه وليس مقام لتفصيل ذلك وبسط الاحتجاج له » :

(١) المدارس النحوية الدكتور شوقي ضيف ص ٢٧ دار المعارف ١٩٦٨ .
(٢) أبو علي الفارسي عبد الفتاح شلبي ص ٥٠ .
(٣) سيبويه امام النحاة علي ناصف ص ١٣٢ .

ويقول الشيخ محمد الطنطاوي [1] : « فليس بغريب على أبي الأسود الذي أوتي العلم الواسع أن يلهم هذا الفن » ..

ويقول عبد الكريم الدجيلي [2] : « فنحو أبي الأسود هو في الواقع تثبيت للنطق العربي حين قراءة القرآن وترتيل الآيات فهو إذن قد وضع الجذور للنحو العربي » ..

ويقول الدكتور أحمد مكي الانصاري [3] « إن أبا الأسود هو أول من وضع النحو العربي غير أنه وضع اللبنة الأولى فقط — وحسبه ذلك — فقد كان المؤسس الأول وما ذلك بالشيء اليسير » ..

ويقول الاستاذ سعيد الافغاني [4] : « ومن يقرأ بامعان ترجمة أبي الأسود في تاريخ دمشق لابن عساكر مثلا ثم يفكر في شوارد أكثر المصادر على جعله واضع الأساس في بناء النحولا يستبعد ذلك فالرجل ذو ذكاء نادر وجواب حاضر وبديهة نيرة » ..

* * *

(١) نشأة النحو للشيخ الطنطاوي ص ١٢ ط ١٩٣٨ .

(٢) ديوان أبي الأسود الدؤلي تحقيق عبد الكريم الدجيلي بغداد سنة ١٩٥٤ . ملاحظة : كل من كتب في تاريخ الأدب العربي ذكر أبا الأسود الدؤلي وجهده بالنحو بدون التعرض للتفصيل وعلى سبيل المثال جرجي زيدان — السباعي بيومي — أحمد حسن الزيات — شوقي ضيف وكارل بروكلمان كل هؤلاء كتبوا كتبا بعنوان تاريخ الأدب العربي — ولم نجد داعيا لذكر ما قالوه لأنه قول عابر لا يتعدى الصفحة الواحدة من حيث الكم .

(٣) مجلة كلية الآداب مقال للأستاذ أحمد مكي الأنصاري مج ٤ ، ٢ ص ٧ سنة ١٩٦٢ .

(٤) في أصول النحو سعيد الافغاني ص ١٦٠ ط ٣ مطبعة جامعة دمشق . .

« شكل المصحف »

اتفق معظم الذين أرخوا للقرآن الكريم ، وكتبوا عن تشكيله ، أن أبا الأسود هو الذي شكل المصحف الكريم . وذلك في عهد زياد بن أبيه عندما كان واليا للبصرة ..

وقد بينا في الفصل الأول من بحثنا تاريخا تقريبا لهذا الجهد ..

وتصور لنا الأخبار العربية كيف قام أبو الأسود بهذا العمل حيث ذكر بعض الرواة الخبر مختصرا كقول أبي العباس المبرد [1] عندما تحدث عن أبي الأسود الدؤلي « أول من نقط المصاحف » ..

أما السيرافي [2] فقال فيما رواه تفصيلا لنقط المصحف : « كان أبوالأسود لا يخرج شيئا مما أخذه عن علي بن أبي طالب عليه السلام الى أحد حتى بعث إليه زياد وقال له أعمل شيئا لتكون فيه اماما ينتفع به الناس ، وتعرب به كتاب الله غير أن أبا الأسود رفض حتى سمع قارئا يقرأ « أن الله بريء من المشركين ورسوله » فقال ما ظننت أن أمر الناس يصل الى هذا ، فرجع الى زياد ، فقال : أنا أفعل ما أمر به الأمير فليبغي كاتبا لقنا يفعل ما أقول . فأتي بكاتب من عبد القيس ، فلم يرضه ، فأتي بآخر . وقال أبو العباس أحسبه منهم فقال له أبو الأسود اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة بين يدي الحرف وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف فإن اتبعت شيئا من ذلك عنه فاجعل مكان النقطة نقطتين فهذا نقط أبي الأسود » وفي روايات أخرى [3] تقول : « ان

(١) الاصابة للحافظ بن حجر ج ٢ ص ٢٤١ .
وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٥ والمقنع في رسم مصاحف الأمصار للداني ص ١٣٢ .

(٢) النحويين البصريون السيرافي ص ١٢ الأغاني ج ١٢ ص ٢٦٩ أعيان الشيعة محسن الأمين ج ١ ص ٢٧٧ بقية الرعاة للسيوطي ص ٢٧٤ .

(٣) نزهة الألباء الانباري ص ١١ انباة الرواة القفطي ج ١ ص ١٤ المحكم في نقط المصاحف ص ٣ وما بعدها . .

زيادا أرسل له ثلاثين كاتبا واختار أبو الأسود واحدا منهم -» ..

ويقال فاختار منهم عشرة ثم لم يزل يختارهم حتى اختار رجلا من عبد القيس فقال له خذ المصحف واضف مدادا يخالف لون المداد الى آخر الرواية ..

وعندما نقف مع الروايات السابقة قليلا نصل الى حقيقة واضحة وهي أن أبا الأسود الدؤلي امتنع عن شكل المصحف في بدء الأمر ولكنه سرعان ما وافق بعد ذلك على طلب الوالي زياد ليس أكراما للوالي بل خوفا على القرآن الكريم ذاته حتى يحافظ على قراءته قراءة صحيحة ، بعيدة عن اللحن ، ونجد السيرافي يشير في بدء الرواية الى تلك الحقيقة بوضوح ، ويتفق مع أبي الطيب اللغوي الذي يقول [1] : « فلم يزل أبو الأسود ضنينا بما أخذه عن علي حتى قال له زياد قد فسدت ألسنة الناس » ونؤكد مرة أخرى أن جميع الروايات التي خصت زيادا بخصوص النحو تعود الى مشكلة شكل القرآن وليس الى النحو ونشأته ..

الآثار المادية :

قبل التحدث عن الآثار المادية التي تخص عمل أبي الأسود الدؤلي ، نحب أن نشير الى ملاحظة هامة ، وهي أن المصاحف قبل أبي الأسو د الدؤلي كانت خالية من الشكل . وقد وجدت أثارا مادية تدل على ذلك اذ شاهدت مصحفا كوفيا قديما في محفوظات دار الكتب خلا خطه من النقط والشكل مما يدل على أنه مكتوب قبل أبي الأسود الدؤلي وعلى الأقل بالطريقة التي كانت في عهد عثمان رضي الله عنه ..

(١) مراتب النحويين لأبي الطيب الحلبي ص ٨ وذكرت هذه الروايات في كتب أخرى لا داعي لحصرها لأنها كلها تتفق على هذا العمل وتسنده للدؤلي ..

وقد شاهدت في المعرض التركي الذي أقيم في دولة الكويت في شهر مارس سنة ١٩٦٨ م مصورا عن مخطوط وبه القرآن الكريم ، مخطوط على جلد الغزال ، وكتب بجانبه (أن هذا القرآن الكريم) . يقال : انه القرآن الكريم الذي كان يتلوه سيدنا عثمان رضي الله عنه عندما استشهد في منزله ويشاهد الزائر أنه مُلطخ بالدماء ») ..

والملاحظة التي رأيتها أن الخط مكتوب بدون نقط ولا اعجام . وقد سألت المسئول عن المعرض الذي قال لي عن الأصل المصور « أنه موجود في استنبول في جناح الأمانات المقدسة الذي أنشأه السلطان محمد الفاتح » ..

ثم جاء أبو الأسود الدؤلي ووضع الشكل لمصحف واحد كما تقول بعض الروايات ، اذ يروى [1] أن أبا الأسود الدؤلي أعرب مصحفاً واحداً في خلافة معاوية .. » .

أما المصحف الذي شكله أبو الأسود نفسه فلم نعثر عليه رغم بحثنا الطويل عنه ولكننا قرأنا في كتاب للسيد محسن الأمين بعنوان أعيان الشيعة [2] في الجزء الأول ص ٢١٦ أن المصحف الذي شكله أبو الأسود الدؤلي موجود في خزانة الكتب الشريفة بإيران، وحاولنا الذهاب الى إيران، لمشاهدة المصحف المذكور الا أننا لم نستطع تحقيق هذه الرغبة لأسباب خاصة . وقد نقلنا ما ذكره الكاتب بهذا الشأن اذ يقول السيد محسن الأمين أنه شاهد بعينه هذا العمل وهو تشكيل المصحف بلونين من الحبر الأخضر والأحمر . ويقول : انها من عمل أبي الأسود وهذا نص ما رواه :

« رأينا في خزانة الكتب الشريفة الرضوية في ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥٣ هـ عند تشرفنا بزيارة مشهد الرضا عليه السلام مكتوب على الجلد الرقيق الذي لا

(١) تأسيس الشيعة السيد الصدر ص ٣١٨ .
(٢) أعيان الشيعة السيد محسن الأمين ج ١ ص ٢١٦ وما بعدها . .

يفترق كثيرا عن الكاغظ بخط كوفي غير منقط وعليه بالحمرة مدورة ، هي علامات على الشكل ، والظاهر تأخرها عن كتابته ، فالكسرة نقطة تحت الحرف ، وللفتحة نقطة فوق ، وللضمة نقطة أمامه ، وإذا كان في وسط الكلمة توضع النقطة بجانبه ، وللتنوين نقطتان : فوقه للمنصوب ، وتحته للمخفوض ، وأمامه للمرفوع ، أما الحرف الساكن فليس عليه علامة ، ثم يقول : وقد كانت المصاحف أولا غير منقطة لا للاعجام ولا للشكل وأول من نقطها للشكل أبو الأسود الدؤلي ...

أما في أمارة زياد فكان يقول للكاتب : اذا رأيتني فتحت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف فإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف ذكره ابن النديم في الفهرست ورواه ابن الأنباري في نزهة الألباب فإن اتبعت شيئا من هذه الحركات عنه فانقط نقطتين وهذا بعينه تنقيط المصاحف التي رأيناها وهو يؤيد أنها بخطوطهم عليهم السلام وفي آخره في سطرين هكذا كتبه علي بن أبي طالب ..

وجلده مذهب ، ، موضوع في صندوق مذهب ، كلاهما في غاية الإتقان ، مكتوب على جلده وقف الشاه عباس الصفوي سنة ١٠٠٨ هـ ..

عدد أوراقه ٦٨ ، سطور كل صفحة ١٥ سطرا .

طوله ٢٤ سم عرضه ٢٣ سم قطره ٣ سم .

ثم يتابع قوله ويقول : انه رأى مجموعة من هذه المصاحف بخط علي أو ابنه الحسين أو زين العابدين ويقول : والمهم في هذا أننا وجدنا أساسا للتنقيط بخط الأمام علي .. »

أما طريقة أبي الأسود نفسها في شكل المصحف ، فقد وجدنا آثارا لها اذ شاهدنا في دار الكتب المصرية بالقاهرة مصحفا كوفيا مكتوبا على رق ، وعلى طريقة أبي الأسود الدؤلي ، كتب بلونين ، الأزرق للأصل ، والأحمر للشكل ،

وجاء تحت عنوان (« قرآن كريم : مكتوب على رق بالقلم الكوفي على طريقة أبي الأسود الدؤلي وموضوع في صندوق زجاجي مفتوح على صفحتين : وسطرته ١٧ سطرا تحت رقم ١١٥ مصاحف ») ..

رُسْلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى
أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ وَحَسِبُوا أَلَّا
تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ
ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ ..

والخلاصة من هذه المشاهدات والروايات التي ذكرها المؤرخون :

أولا : كانت المصاحف قبل أبي الأسود الدؤلي خالية من الشكل ، كما شاهدت ذلك في دار الكتب المصرية وكما ذكرت كتب الرواة ..

ثانيا : جاءت الخطوة الأولى التي قام بها أبو الأسود الدؤلي وهي نقاط صغيرة رسمت على شكل دوائر حمراء أشبه بحركة السكون المغلقة التي تستعمل على الحروف أو بالرقم الحساني — ٥ — ..

ويتحدث الدكتور شوقي ضيف عن قيمة عمل أبو الأسود وجهده في شكل المصحف ويقول : كان ذلك عملا خطيرا حقا فقد أحاطوا لفظ القرآن الكريم بسياج يمنع اللحن فيه » [٢] ..

ويصف الدكتور مازن المبارك[٣] عمل أبي الأسود ويقول : « ومعنى

(*) سورة المائدة (٦٩ ، ٧٠) : (لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل ، وأرسلنا اليهم رسلا كلما جاءهم رسولا بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا ، وفريقا يقتلون ، وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثيرا منهم والله بصير ما يعلمون) .

(٢) المدارس النحوية شوقي ضيف ص ١٧ .

(٣) النحو العربي مازن المبارك ص ٣٠ دمشق ط (١) المكتبة الحديثة سنة ١٩٦٥.

وضع أبي الأسود لشكل المصحف ، أنه وضع الضوابط التي تمنع القاريء من الزلل أو اللحن في القرآن وهل للنحو غاية أخرى أبرز من حفظ اللسان من الخطأ ؟ » ..

أما الشكل بعد أبي الأسود فبقي يستعمل في كتابة المصاحف ، حتى جاء عصر بني العباس ورأى الخليل بن أحمد ما فيه [1] الناس من الضجر باستخدام مدادين الأسود منهما لكتابة الكلمات ، والأحمر لنقط الشكل الذي اخترعه أبو الأسود فاتجهت النية الى تيسير الأمر على الناس فاستبان له : أن فتح الحرف لو أطيل لتولد منه ألف ، وإن ضمه لو أطيل لتولد [2] منه واو وإن كسره لو اطيل لتولد منه ياء فجعل للدلالة على فتحه الفا راقدة فوقه وعلى ضمه واوا صغيرة فوقه وعلى كسره مده ياء تحت وجعل للسكون رأس ميم وجعل علامة تضعيف الحرف أسنان شين فوقه وبهذا استطاع الناس أن يكتبوا بمداد واحد ..

أما الاعجام : وهو نقط الحروف المتشابهة مثل :

ص . ض . ط . ظ . غ . ع . .. الخ ..

فسببه أن أهل العراق كثر التصحيف عندهم أيام عبد الملك بن مروان ففزع الحجاج الى نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر فأجالا الرأي حتى اهتديا الى التمييز بين الحرفين المتشابهين بالنقط فاعلما الحجاج بذلك فأمر باستعماله في كتابة المصاحف والرسائل وفي كل أعمال الدواوين ، وسار الناس عليه في كل ما يكتبون . وأعتقد أن الرواة عندما قالوا بأن نصر بن عاصم ويحي بن يعمر أول من وضعا العربية كانوا يعنون الأعجام . وكل ذلك يرجع الى طبيعة العصر والأحكام التي كانت تطلق في صدر الأسلام [3] ..

(١) تأسيس الشيعة السيد الصدر ص ٣١٨ .

(٢) أنظر المدارس النحوية شوقي ضيف وما بعدها سنة ١٩٦٨ م .

(٣) ويقول طه حسين بشأن الرواة « وانما نذكر رواة القصص والسير ولم يكونوا يتروون في الاحتياط ولا يبالغون في الحذر وكثيرا ما كانوا يروون غير الصحيح ويثبتون غير الحق ثم جاء الخليل بن أحمد فأكمل هذا العمل انظر حديث الأربعاء ج ١ ص ١٧٦ . .

« جهود أبي الأسود الدؤلي في قراءة القرآن »

شارك أبو الأسود الدؤلي علماء عصره في قراءة القرآن ويروون أنه أخذ القراءة عن الامام علي كرم الله وجهه إذ يروي الأنباري عند ترجمته حياة نصر بن عاصم [1] : « أخذ أبو الأسود الدؤلي القراءة عن الامام علي كرم الله وجهه » ..

أما فيما رواه ابن الجزري فيقول [2] : « أخذ القراءة عرضا عن عثمان بن عفان والأمام علي » ..

أما فيما يخص الرواية السابقة أن أبا الأسود أخذ القراءة عن عثمان فنحن نستبعد ذلك ، لأننا لم نجد أخبارا تشير الى ذلك غير رواية ابن الجزري ، وقد تحدثنا عن ابن الأسود وعلاقته بالخليفة عثمان بن عفان وبحثنا تلك الفترة التي كان فيها عثمان خليفة للمسلمين بحثا وافيا فلم نجد ثمة علاقة بينهما وخاصة علاقات علمية ..

ونعتقد أن الدؤلي كان من الحفاظ المرموقين لأنه أقدم على تنقيط القرآن . ولا يمكن أن يقدم على مثل هذا العمل الا من كان قويا في القراءة واللغة متمكنا من معرفة القراءات المختلفة ، وخاصة عندما يقرأ أبو الأسود كل القرآن قراءة صحيحة ، ويضع نقط الاعراب عليه . فهذا عمل شاق ، ومهمة صعبة ، لا يستطيع أن يقوم بمثلها الا الفطاحل والضالعون في علوم العربية وخاصة عندما نقرأ عن أنس هذه العبارة : « كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ في أعيننا » ..

فما بالنا برجل يقرأ المصحف قراءة جيدة، ويضع له الشكل؟.ويذكر

(١) نزهة الألباب الانباري ص ٢٨ .

(٢) غاية النهاية في طبقاء القراء . لابن الجزري ص ١٧٣ ، وأعيان الشيعة السيد محسن الأمين ج ١ ص ٢٧٤ . .

الرواة من تلاميذه الذين أخذوا عنه القراءة ابنه أبو حرب ونصر بن عاصم [1] الليثي ويحي بن يعمر وعنبسة الفيل وميمون . وهكذا نرى أن أبا الأسود الدؤلي شارك علماء عصره في بناء نهضة عربية أسلامية هدفها المحافظة على الدين واللغة..

* * *

جهود أبي الأسود في الحديث الشريف

شارك أبو الأسود الدؤلي علماء عصره في رواية الحديث ، ويقال أنه روى [2] عن حذيفة بن أسعد الغفاري ، وعمر بن الخطاب ، والامام علي ، وأبي ذر الغفاري ، وابن مسعود والزبير بن العوام ، وأبي موسى وابن عباس ، وأنس بن مالك ، كما روى له البخاري ومسلم وأبن حنبل . وقد تتبعنا كتب الحديث ، وبحثنا عن آثار أبي الأسود الدؤلي في هذا الشأن ، وقد وجدنا أن الأحاديث التي رواها قليلة من حيث الكم . ومن الأحاديث التي وجدناها قال [3] : « قدمت المدينة فوافيتها ، وقد وقع فيها مرض فهم يموتون موتا ذريعاً فجلست الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فمرت به جنازة فأثنى على صاحبها خيرا فقال عمر : وجبت ثم مر بأخرى ، فأثنى على صاحبها شرا فقال عمر : وجبت ، قال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول الله ﷺ أيما مسلم شهد له أربعة بخير ، أدخله الله الجنة ، فقلنا وثلاثة ؟ فقال : وثلاثة . فقلنا : واثنان ؟ فقال وأثنان ولم نسأله عن الواحد » ..

---

(١) أبو هريرة راوية الاسلام محمد عجاج الخطيب ص ٤٦ . .

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٣١ دار المعارف تهذيب الأسماء واللغات جـ٢ ص ١٧٥ المسند للامام أحمد بن حنبل ص ٩١ تحقيق محمود شاكر تهذيب التهذيب جـ ١٢ ص ١٢ . .

(٣) الأغاني جـ ١٢ ص ٣٠٠ طبعة دار الكتب هذا الحديث موجود في المسند لابن حنبل تحت رقم ١٣٩ ص٢١٦ انظر المسند لابن حنبل تحقيق محمود شاكر طبعة ثالثة – مصر . .

وروى أبو الأسود الدؤلي قال : خطب عمر بن الخطاب يوم الجمعة فقال : أن نبي الله ﷺ قال : لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة حتى يأتي أمر الله عز وجل » [1] ..

وبما رواه عن علي بن أبي طالب عليه السلام أخبرنا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي قال : حدثنا هناء بن السري قال حدثنا عبده بن سليمان الحضرمي عن سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبيه أبي الأسود الدؤلي عن علي كرم الله وجهـــه أنه قال : في بول الجارية يغسل وفي بول الغلام ينضخ ما لم يأكل الطعام :

وكانت لحياة أبي الأسود الدينية والثقافية أثرها في أولاده وتلاميذه وقد روى أبنه الأحاديث عنه وهذه روايات عن أبنه أبي حرب ..

قال : أخبرنا هشيم عن داوود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود عن فضالة الليثي قال : أتيت النبي ﷺ فاسلمت وعلمني حتى علمني الصلوات الخمس في مواقيتهن فقلت هذه ساعات أشغل فيها فمرني وقال : فلا تشغلن عن العصرين . قال : قلت : وما العصر قال : صلاة الغداة وصلاة العصر..

وعن علي بن الحسين بن عوف بن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي قال : حدثني أبي عن أبيه عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي أن رجلا سأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب [2] عليه السلام عن سؤال فبادر فدخل منزله ثم خرج . فقال : أين السائل ؟ فقال الرجل : ها أنا يا أمير المؤمنين . فقال :

---

(١) الأغاني جـ ١١ ص ٢٠١ طبعة بيروت .

(٢) وجدنا أثناء قراءتنا في سند الامام أحمد راوية للحديث واسمه أبو سنان الدؤلي ولم نستطع القطع بأنه من عائلة أبي الأسود الدؤلي المسند جـ ١ ص ٩١ . .

ما سألتك قال كيت وكيت ، فأجابه عن سؤال له فقال : يا أمير المؤمنين كنا عهدناك إذا سئلت عن مسألة كنت فيها كالسكة المحماة ، فما بالك أبطأت عن جواب هذا الرجل حتى دخلت الحجرة ، ثم خرجت فأجبته ، فقال : كنت حاقنا ولا رأى لحاقن » ..

* * *

تعقيب :

وإذا حاولنا أن نعقب حول أبي الأسود العالم ، نرى أن أبا الأسود هو الذي أسس علم النحو العربي وغرس بذوره الأولى . وجاء تلاميذه وأكملوا هذا العمل . وطبيعة العلوم لا تظهر فجأة ، بل تأخذ في الظهور رويدا رويدا وتنمو وتتطور مع الأيام والسنين ، وقد بينا الآراء المتباينة التي قيلت في هذا الموضوع ، ووضعنا حدا للروايات المضطربة ، كما وجدنا مخرجا لها ، وقد حاول بعض الكتاب أن ينكروا ما لأبي الأسود من جهد واعتبروا ابن أسحاق من أوائل النحاة ، فإذا كان ابن أسحاق أول واضع للنحو فكيف استطاع عيسى بن عمر الثقفي تلميذه أن يضع كتابين في النحو ؟ والحقيقة المنطقية أن ابن أسحاق وجد مقدمات وأسسا بنى عليها هذا العمل ، ثم قام تلميذه عيسى بعمل كتابين . ثم كتاب سيبويه نفسه فهو أضخم كتاب ظهر في النحو العربي حتى الآن ولو لم يكن هناك أشياء نحوية اعتمد عليها سيبويه نفسه ، لما خرج كتابه بهذا الشكل الكامل ولا يزال كتاب سيبويه قبلة الدارسين في النحو وفنونه ، ولو كان هذا أول أنتاج نحوي ما ظهر قط بهذا الشكل والمضمون ، حتى في الماضي البعيد ، وحتى قال أبو عثمان المازني تلميذ الأخفش : [1] « من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح » أو كقول الجاحظ : « أردت الخروج الى محمد بن عبد الملك الزيات « وزير المعتصم »

(١) المدارس النحوية : شوقي ضيف ص ٥٩ .

ففكرت في شيء أهديه اليه ، فلم أجد شيئا أشرف من كتاب سيبويه وقد سموه « قرآن النحو » والحقيقة المنطقية هي إذا قرأنا تاريخ نشأة أي علم من العلوم اللسانية خاصة ، والإجتماعية عامة ، نجده يبدأ صغيرا ثم ينمو ويترعرع فيما بعد فالنحو العربي كغيره من العلوم ، لم ينشأ ناضجا كاملا وذلك كما سمعنا عن أوراق أبي الأسود الدؤلي وما بعده ، حتى كمل ونضج عند سيبويه وتلاميذه ، فهل عمل أبي الأسود مجرد تنقيط حقا كما هو معروف الآن بأن نضع فوق الحروف نقاطا معينة لنميزها حين القراءة والكتابة ؟ لا انها عملية نحوية صرفه ، انها عملية النصب ، والفتح والضم والتنوين وهي ما يسمى الآن « الحركات الأعرابية » ووضعت أصلا ، لتميز الكلمات ولمعرفة الفاعل والمفعول والمضاف وغير ذلك ..

* * *

« الفصل الرابع »

« الأدب »

« دراسة شعر أبي الأسود الدؤلي »

« الفصل الرابع »

« دراسة شعر أبي الأسود الدؤلي »

« الأديب »

تمهيد :

كانت شهرة الدؤلي النحوية أكثر من شهرته الشعرية ، على الرغم من آثاره في الشعر التي تزيد بكثير عن آثاره النحوية وعلى كل أعماله، وذلك يرجع إلى طبيعة النشأة ، فليس أبو الاسود الدؤلي اول من قرض الشعر ، لكنه أول من ألف في النحو . وكثير من الناس حتى بعض المثقفين يجهلون هذه الحقيقة وقد يندهشون عندما يسمعون أن أبا الاسود الدؤلي شاعر ، وله ديوان من الشعر . وقد أشار القدماء إلى هذه الظاهرة الادبية ، وإلى شاعريته ، وأثنوا عليها ، وأشادوا بها ، ورفعوا من شأنه وأخذوا يكيلون له المدح والثناء ووصفوه بأنه [1] شاعر سريع الجواب وله شعر حسن [2] وله ديوان [3] ، ومتقن للمعاني وغير ذلك من أوصاف ..

---

(١) بغية الوعاة في طبقات النحاة للسيوطي ص ٢٧٤ طبعة أولى القاهرة ج . ع . م .

(٢) أسد الغابة ج ٣ ص ٧٠ ، سمط اللآلىء ، ص ٦٦ .

(٣) سرح العيون ج ٥ ص ٢٧٧ أنظر وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤١ ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ٢ ص ٧٢٩ ، الفهرست لابن النديم ص ٢٢٤ ، ص ١٥٧ ، ص ١٥٨ المؤتلف والمختلف للآمدي ص ٢٢٤ . .

أما المحدثون وخاصة من كتبوا في تاريخ الأدب العربي ذكروا بعض النماذج من شعر الدؤلي ولم يقفوا عنده وقفة طويلة بل اشارات تاريخية عابرة . .

وقد روى شعره الاصمعي وأبو عمرو بن العلاء[1] والسكري وكان ديوانه محل أهتمام علماء الادب على مر العصور ، وخاصة العالم الجليل أبو الفتح عثمان بن جني الذي كتب شعر أبي الاسود بنفسه . كما كتب شرحا لديوانه ..

بقي ديوان أبي الاسود الدؤلي بعيدا عن الانظار فترة من التاريخ ، مجهولا من قراء العربية حتى آن له الظهور في عام ١٩٥٤ م ، عند ما قام الاستاذ عبد الكريم الدجيلي وحقق ديوانه وقدمه هدية ثمينة إلى قراء العربية ، يضيف إلى التراث العربي شاعراً أصيلا ، أو مفكراً عربياً كان له شرف المعاصرة لامجادنا السالفة كرسولنا العظيم وصحبه الافاضل . والديوان ظهر في بغداد « الجمهورية العراقية في عام ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م » وطبع على حساب شركة النشر والطباعة في بغداد ، وفي عام ١٩٦٤ قام الشيخ محمد حسن آل ياسين بتحقيق آخر لديوان أبي الاسود الدؤلي تحت عنوان نفائس المخطوطات وقامت بنشرة مكتبة النهضة في بغداد ..

بالاضافة إلى هذا ، أحب أن أشير إلى بعض الملاحظات العابرة على ديوانه وطريقة التحقيق لكل من الاستاذين المحققين ..

أولا : ديوان أبي الأسود الدؤلي « تحقيق الاستاذ عبد الكريم الدجيلي » :

اعتمد في تحقيقه على ثلاثة مخطوطات لديوان أبي الاسود الدؤلي ، وهذه المخطوطات ملك للسادة [2] : الدكتور سليم النعومي ، والشيخ محمد السماوي

---

(١) ديوان أبي الأسود الدؤلي تحقيق الشيخ محمد آل ياسين ص ١٤ ، ١٩ . .

(٢) الدكتور سليم النعيمي أحد العلماء العراقيين نال شهادة الدكتوراه من جامعة فرنسا وكانت رسالته « شعر المعارضة السياسية الدينية » . .

(*) الشيخ محمد السماوي عالم جليل وصاحب مكتبة في النجف الأشرف ومكتبته تحتوي على مخطوطات نادرة . .

(*) أنستاس الكرملي لبناني الأصل عراقي الأم وعالم جليل انتخب عضوا لمجمع فؤاد الأول في مصر ونال كثيرا من الأوسمة في حياته . .

والاب انستاس الكرملي . ويذكر الاستاذ المحقق أن شرح الكلمات اللغوية الموجودة بين الابيات الشعرية داخل الديوان هي من عمل العلامة ابن جني ، وكذلك التعليقات الموجودة في مقدمة القصائد والمقطوعات ..

يحتوي الديوان على مئتين وخمس وثمانين صفحة . يورد في مقدمة الديوان رسوماً للمخطوطات ، ثم يذكر بعض المقتطفات عن حياة أبي الاسود الدؤلي ، ثم يذكر كلمة الجاحظ التي ذكرها في وصفه لابي الاسود ، ويحاول الاستاذ المحقق تطبيقها ثم يذكر رأيه في شعر أبي الاسود الدؤلي — سأرد عليه في نهاية البحث — ثم يبدأ بعد ذلك الديوان ويذكر الروايات التي ذكرت شعره والخلاف بينها وبين الأم أن وجد خلاف ، كما يذكر خلاف بين النسخ الثلاث التي اعتمد عليها في تحقيقه ، وبعد أن انتهى من تحقيق الديوان أورد أشعارا نسبت لابي الاسود الدؤلي وليست في الديوان وسماها « ذيل الديوان » أما عدد القصائد التي وجدت في الديوان نفسه فثلاث وستون بين قصيدة ومقطوعة . والابيات الواردة في ذيل الديوان مئتان وثمان وعشرون بيتاً وقد حصرتها باعتبار البيت الواحد لا القصيدة ، لانني وجدت أبياتاً مفردة ، ويمتاز التحقيق بالوضوح وضبط الكلمات كما كان يعقب تعقيباً جميلا على بعض الابيات الواردة في الديوان ويشرح بعض العادات العراقية القديمة ..

ثانيا : أما التحقيق الثاني لديوان أبي الاسود الدؤلي فقد قام به الشيخ محمد حسن آل ياسين وهو من العراق الشقيق واعتمد في تحقيقه على نسختين قديمتين لديوان أبي الاسود الدؤلي وقد وجدهما في المتحف العراقي ببغداد وهما تحملان الارقام ١٢٤٢ ، ٥٢٥ ويحتوي ديوانه على مائة وخمس وأربعين صفحة وقسمه قسمين جعل القسم الاول للديوان ، والثاني : أشعار أبي الاسود ، جمعها من كتب الادب وأخبار الرواة وسماه « المستدرك » كما قدم بعض الرسومات للصفحات الاولى والاخيرة من المخطوطات التي اعتمد عليها في تحقيق الديوان ، كما قدم بعض الاخبار القصيرة عن أبي الاسود دون التعقيب عليها ..

عدد القصائد في الديوان ثلاث وستون قصيدة ، أما الابيات التي وردت في المستدرك فعددها مئتان وستة وعشرون بيتاً ..

الفرق بين التحقيقين :

عندما قرأت الديوانين لم أجد اختلافاً الا في الشيء اليسير وخاصة في التقديم [1] والتأخير في احدى القصائد والمقطوعات كما وجدت قصيدة أبي الاسود الدؤلي الغزلية التي مطلعها :

أفاطم مهلا بعض هذا التعبس وان كان منك الجد بالصرم فابئس

مثبتة عند الاستاذ عبد الكريم في الديوان وعند الشيخ محمد حسن آل ياسين في المستدرك [2] ولم نجد فرقاً بين التحقيقين سوى ما ذكرت ..

* * *

(١) ديوان أبي الأسود الدؤلي تحقيق عبد الكريم الدجيلي بغداد ١٩٥٤ م .
(٢) ديوان أبي الأسود الدؤلي تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين بغداد سنة ١٩٦٤ م . الاختلاف جاء في الصفحات الآتية ديوان الدجيلي ص ١٢٢ ، ص ١٣١ ، ص ١٣٣ ، ص ٢١٣ ، وخاصة في تقديم وتأخير بعض القصائد والمقطوعات . .

« الشاعر أبو الأسود الدؤلي »

يعتبر أبو الاسود الدؤلي من شعراء صدر الاسلام ، الذين عاصروا ديننا الاسلامي الحنيف في مهده ، وشاهدوا نهضته الفكرية ونموها وحملوا على أعناقهم أكبر عبء وأسمى رسالة عرفها التاريخ ..

هبوا بعزيمة راسخة ، وأسسوا حضارة شامخة البنيان متينة الاركان ، لم تزل مصدر نور للحضارة الانسانية جمعاء ، تنهل من معينها العذب ..

ويصف أحد الباحثين في تاريخ الادب العربي شعراء هذا العصر ويقول[1] نشأ شعراؤه في عصر الراشدين ، وتعودوا الصدق واستقلال الفكر والعدل ، وكانوا لا يرون الحق لمعاوية في الخلافة بل يعتقدون أنه أخذها بالدهاء ولا يعتقدون انتقالها إلى أهله بل كانوا يرجون رجوعها بعده إلى آل علي أو غيرهم من أبناء الصحابة بالانتخاب .« وذكر الباحث أن شاعرنا أبا الاسود واحد من هؤلاء الشعراء الذين شاركوا في بناء جزء من التراث الاسلامي ، والحقيقة أن حياته الطويلة كانت خصبة مليئة بالاحداث والتغيرات أكسبته خبرة فوق خبرته وتجارب فوق تجاربه عاشها باحساسه .. والحقيقة الاخرى : لم يكن أبو الاسود شاعراً عملاقاً أو ذلك العبقري الفذ في عالم الشعر ولكنه قرض الشعر وسار في منهج معين وقدم كل ما يستطيع ،

(١) تاريخ الأدب العربي جرجي زيدان تحقيق د . شوقي ضيف ج ١ ص ٢٧٦ ، دار الهلال القاهرة ج . ع . م .

والناظر لديوانه يجده حافلا بشتى المواضيع إذ طرق أبو الاسود فنون الشعر العربي من فخر ومديح ونسيب وحكمة ورثاء وغير ذلك من أبيات متفرقة لمواضيع مختلفة ، وعبر عنها تعبيراً صادقاً بقدر استطاعته . كما كان شعره وصفاً صادقاً لما يدور حوله من أحداث ومشاكل وفق في بعضها وأخفق في بعضها أحياناً ، وسأبين ذلك في حينه وحاولنا جاهدين أن نرتب موضوعات شعره حسب الجودة والكثرة معا غير اننا لم نستطع التوفيق بينهما ولذا تتبعنا الكثرة فقط مع اننا أشرنا إلى الشعر الجيد في حينه . وأول مواضيع شعره :

أولا : الفخر :

لقد شغل موضوع الفخر جزءا كثيراً من شعر الدؤلي أذ كان معتداً بنفسه ، معتزا بأصله مفتخراً بشجاعته ، وقيل إن رجلا يقال له الحارث بن خليد قابل أبا الاسود فعيره بالفرار من حرب الجمل ورد الدؤلي قائلا :

وما ولدت أمي من القوم عاجزا ولا كان ريشي من ذنابى ولالغب[1]
ولا كنت فقعا نابتا بقـــرارة ولكنني آوي الى عطن رحب [2]

ثم يتابع وصفه اذ يهب لنجدة الداعي اذا دعاه ولن يتأخر قط عن المعارك لأنه أهل لها بسيفه المصقول الحاد ويقول :

أجيب إذا الداعي دعاني واحتمي بأبيض مصقول ضريبته عضب[3]

ثم يفتخر بقومه وشدة بأسهم وسرعة انطلاقهم في المعركة في تشبيه جميل :

(١) ذنابى : ذنب الطير . اللغب : الريش الفاسد .
(٢) الفقع : البيضاء والرخوة من الكمأة . والجمع أفقع فقوع والقراءة الفقاع المستدير يجتمع فيه ماء المطر : والعطن : برك الجمل حول الماء . .
(٣) (حد السيف الضريبة) . .

وإني لمن قوم إذا حاربوا العـدى أغاروا بفتيان مغاوير كالشهب[1]

وفي البيت الآتي يشير الى حدث تاريخي هام حدث مع كنانة التي ينتهي اليها أبو الأسود الدؤلي ويقول :

فلا يوعدوني بالفجار فانـــني سأحملكم مني على مركب صعب[2]

يركز أبو الأسود الدؤلي فخره على المعاني الإسلامية ويبرز من خلال شعره نفسيته المؤمنة بالله ، واخلاقه الرفيعة من حيث الحياء والعفو والإستقامة ، وهذه مفاهيم جديدة على الشعر العربي برزت مع فجر الإسلام ؛ وفي القطعة التالية يصور الدؤلي أخلاقه أدق تصوير ، ويحلل الأشياء الخلقية التي تمنعه من رد الاساءة بالاساءة فالحياء والإسلام والتقوى والكرم كل هذه القيم تقف حائلا أمامه لرد الإساءة :

واني ليثنيني عن الجهل والخنـــا وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
حياء وإسلام وتقـــوى وانني كريم ، ومثلي قد يضر وينفع

وفي موضع آخر يقول :

فإني أمرؤ أخشى الهي وأتقـــي معادي وقد جربت ما لم تجرب

ويفصل صفاته الإسلامية مفتخرا بها وهو في نفس الوقت ليس جبانا بل قوي يهاب العدو جانبه فيقول لصديق له :

فإن كنت حقا أنت لا بد آخـــذ فآخذ بعلم قد ترى من تؤاخذ

(١) المغاوير : الأبطال ولا يزال هذا اللقب يطلق على بعض الفرق في الجيوش العربية ففي سورية يطلق على بعض الفرق « بالمغاوير » .
(٢) حرب الفجار مشهورة في التاريخ العربي وأيام الفجار أربعة أفجر في الأشهر الحرم كانت بين قريش ومن معها من كنانة وقيس عيلان وكانت الديرة على قيس . انظر الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٤١٤ . .

بريئا نصيحا مسلما ذا قرابـــــة له ظفر يوهي العدو وناجذ [1]
أولئك خلات سيمنعـــن جانبي كما منعت ماء الإضاة الأخائذ[2]

كما نلاحظ في الأبيات السابقة جزالة الأسلوب ، وقوة الألفاظ ، وجمال الخيال في البيت الأخير ، فخلال أبي الأسود الإسلامية تمنعه من الوقوع في الخطأ وتجنبه الشر كما تمنع الأخائذ ماء الغدير المتدفق ..

ويتابع الدؤلي فخره ويركز على صفاته الإسلامية وفي القطعة الآتية (يرد على صديقه أبي الجارود [3] وكانا يتبادلان الهدايا ويقرضان الشعر) ويتبين فيها روحه السمحة والكرم وهي عادة أصيلة شب عليها وعاش في ظلها ، والطهارة حيث يسمو دائما الى الفضائل فهو حليم وجواد ..

ويقول في ذلك :

ألست تراني والتكرم شيمـــتي وكل امريء جارٍ على ما تعودا
أطهر أثوابي عن الغدر والخنـــا وأنحو الى ما كان خيرا وأمجدا
واني لذو حلم كثير وانـــــني مرارا لأشفي داء من كان أصيدا
أجود على المولى اذا ذلّ حلمـــه بحلمي وكان العود أبقى وأحمدا

ولكن أبا الأسود يترك الصديق يفكر حتى يعود أو تعلمه الأيام ولا يرد على صديقه ويحافظ على وده قولا وعملا ويقول :

لتحكمه الأيام أو لـــــــترده علي ولم أبسط لسانا ولا يـــدا

(١) بريئا منصوب لفعل محذوف تقديره تجدني أو ما يشبهه الناجذ : الطاحونة بالعامية – الضرس وهي أقصى الأضراس . .
(٢) الأخائذ ما اجتمع فيه ماء المطر من الأرض : الأضاة : الغدير . .
(٣) أبو الجارود : سالم بن سلمة بن نوفل الهذلي وكان شاعرا وصديقا لابن الأسود الدؤلي . .

أما الوعد فينفذه مهما كانت الظروف ، فهو ملتزم بالقول صادق الوعد فهويشبه الوعد بالدين يجب سداده ويرجع ذلك لقوة إيمانه ، وهو وفي إذا وعد ، وذلك من قوله تعالى : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » [1] ، وقوله تعالى : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم » [2] . يقول :

فإذا وعدت الوعد كنت كغارم دينا أقربه وأحضر كاتبـــــا
حتى أنفذه على ما قلتـــــــه وكفى عـــلي به لنفسي طالبا
وإذا فعلت فعلت غير محاســب وكفى بربك جازيـــــا ومحاسبا

نلاحظ في القطعة السابقة أن أبا الأسود [3] يولد المعاني ، ويحاول تفصيلها وتحديدها ، ويرجع ذلك لغزارة علومه الدينية ، وتأثره بالدين واضح تمام الوضوح . . ففي البيت الأول يتكلم عن الوعد ثم ينتقل الى الدين وما يحدث للمسلم في الدين ويتذكر قوله تعالى : [4] « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل» . ثم ينفذ الوعد كما نلاحظ استعماله كلمات مأخوذة من القرآن كقوله « كفى بربك جازياومحاسبا».

أما رأيه فهو حر التفكير ليس بأمعة في الرجال يعمل ما يرضي ربه وضميره ويحل مشاكله بنفسه بالحكمة والتمعن :

إذا المشكلات تصدَّيْنَ لـــي كَشَفتُ حقائقَها بالنظـــــر

والمعنى الآتي مأخوذ من حديث الرسول عليه السلام : لايكن أحدكم أمعة، يقول : أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ،

(١) البقرة آية ١٧٧ .
(٢) الحجر آية ٩١ .
(٣) يقول المستشرق نولدكه عن المعاني في شعر أبي الأسود الدؤلي « فان شعره ضعيف من ناحية المعنى » وقد لاحظنا خطأ هذا الحكم » . .
(٤) سورة البقرة آية ٢٨٨ .

ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم :

ولست بامّعــةٍ في الرجــالِ أسائلُ هذا وذا ما الخَبَرْ

وهذا القول الآتي أيضا من حديث الرسول عليه السلام اذ قال : المرء بأصغريه قلبه ولسانه . ويقول أبو الأسود الدؤلي :

ولكنني مِذْرَبُ الاصغــرين أبينُ مَعْ ما مضى مـــا غَبَرْ

لم يقتصر فخر الدؤلي على خلاله وشجاعته . فحسب ، بل افتخر بشاعريته وبقدرته البلاغية ، وفصاحته في اختيار كلماته وعذوبتها ، فشعره محبوك ، مرتبط بعضه ببعض ، كدرع محكم الصنع ، من عمل صادق فنان ، ويستهزيء بالشعراء المغرورين ، أما شعره في سهولته وعذوبته فتتناقله الناس حتى إذا ما نظر اليه المسافر المتعب في منتصف الليل ، يصحو ويتلذذ .. يقول :

وشاعر سوء غره أن ترادفــت له المعجمون القول أنك شاعر (١)
عطفت عليه مرة فتركتــــه لما كان يرضى قبلها وهو حاقر (٢)
بقافية حذاء سهل رويهـــا كسرد الصناع ليس فيه تواتر (٣)
نطقت ولم يعجز علي رويّهــا وللقول أبواب ترى ومحاضــر
يعدي بها عن عينه وهــو ناعس إذا انتصف الليل – المكل المسافر (٤)
إذا ما قضاها عاد فيها كأنــه للذته سكران أو متساكــر

(١) ترادفت : تتابعت . المعجمون : المزيلون للابهام ويقال أعجم القول أزال أبهامه القول : منصوب على نزع الخافض .
(٢) حاقر : اسم فاعل من حقر بمعنى استصغر .
(٣) حذى يده : قطعها ، حذاه بلسانه سبه واغتابه ، السرد : الدرع – الصناع : الحاذق : التواتر التتابــع . .
(٤) يعدي : يصرف . ويقال : عد ما ترى أي اصرف بصرك عنه . المكل : المسافر المتعب . والمعنى : يصرف بشعره الكل المسافر المتعب عن عينه وقت انتصاف الليل . .

ويصف قدرته الكلامية ويقول :

فإن لساني ليس أهون وقعــــه وأصغر آثارا من النحت بالفاس

وفي موضع آخر يقول :

وإني امرؤعندي وعمدا أقولــه لآتي بما يأتي أمرؤ وهو خابــر
لسانان معسول عليــه عراوةٌ وآخر مذروبٌ عليه شراشــر

ولم يكتف بهذا الحد ، بل لسانه حاد ، قاطع كالسيف البتار .. يقول :

لساناً كشقشقة الأرحبــــــي أو كالحسام البَتّار الذَّكَــرْ

* * *

ثانيا : الحكمة :

شعر الحكمة ليس مستحدثا في الادب العربي ، بل وجد في الشعر الجاهلي على شكل أبيات قليلة ، منتشرة في قصائد ، يأتي بها الشاعر للنصح ، أو الموعظة وضرب المثل ، ولكنها تطورت في صدر الإسلام ، وخاصة عند أبي الأسود الدؤلي ، حيث نجد هذا النوع من الشعر مرتبطا بإيمان عميق بالله وتعاليمــه السماوية ..

ونعتقد أن اتجاه الدؤلي الى هذا النوع من الشعر يرجع لعدة أسباب : أهمها العامل الديني . اذ أخذت روحانية الإسلام تتعمق في نفسه بالإضافة الى ذلك ملازمته للامام علي وتشيعه له ، ونعلم أن الامام كان مثالا لحياة متقشفة ، زاهدا في دنياه لم يرج من الدنيا شيئاً . وكان الدؤلي كما عرفناه قاضيا يحس بالمشاكل عن قرب بسبب اختلاطه بالناس وكان المرجع لحكمه القرآن الكريم حتــى قال :

وقد كان في الفرقان لو كنت باغياً لنفسك منه ما يدل على الرشد

هذه العوامل مجتمعة كانت سببا في التجاء الدؤلي الى هذا اللون من شعر الحكمة وجعلت شعره خصبا في المعاني الإسلامية ..

والحقيقة الأخرى التي جعلته يكثر من هذا الشعر ، حياته الطويلة حيث عمر خمسة وثمانين عاما ومر بتجارب كثيرة ، وخبرات عديدة ، حتى يصف نفسه ويقول :

تَعوَّدتُ مس الضُّر حتى ألفتُهُ وأسلمني طُولُ البلاءِ الى الصَّبر
ووَسعَ صدري للأذى كثرةُ الأذى وكان قديما قد يَضيق به صدري
إذا أنا لم أقبل من الدهر كلمـــا الأقيه منه طال عتبي على الدهر

وكان ينشد هذا اللون من شعر الحكمة عندما كان قاضيا على البصرة ، وجدنا دليلا على ذلك قصيدة قالها مباشرة بعد خروج المتخاصمين من عنده . كما رواها أبو الفرج [1] قال : كان لابي الأسود الدؤلي صديق من بني تميم بن سعد يقال له : مالك بن أصرم ، وكان بينه وبين ابن عم له خصومة في دار له ، وانهما اجتمعا عند أبي الأسود ، فحكم بينهما ، فقال له خصم صديقه : اني بالذي بينك وبين هذا عارف فلا يحملك هذا على أن تحيف عليَّ في الحكم ، وكان صديق أبي الأسود ظالما ، فقضى أبو الاسود على صديقه لخصمه بالحق ، فقال له صديقه : والله ما بارك الله لي في صداقتك ولا نفعني بعلمك وفقهك ، ولقد قضيت علي بغير حق ..

وقال أبو الأسود مباشرة :

إذا كنت مظلوما فلاتلف راضيا عن القوم حتى تأخذ النصف وارغب
وقارب بذي جهل وباعدبعـــالم جلوب عليك الحق من كل مجلب

وإذا تتبعنا شعر الحكمة عنده تتبعاً كاملا ، نراه يعالج أطرافا من علل

(١) الأغاني جـ ١٢ ص ٣٠٧ وذكرها ياقوت الحموي في معجم الأدباء جـ ١٢ ص ٣٧ ديوان أبي الأسود تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ص ٩٧ .

أنسانية مختلفة كالرزق والأخلاق والصداقة وأنواعها والعلم والجهل وما شابهها من مثل وقيم . ويبدأ بالنصيحة أولا ثم يسوق الحكمة التي يبغيها مع الالتزام الديني ..

ونحب أن نقسم شعر الحكمة عنده من حيث الأفكار الى ثلاثة أقســام أساسية :

القسم الأول : أفكار دينية وهي كالآتي : الاعتماد على الله ــ الرزق ــ التوكل ــ والسعي ــ والتقوى ..

١ ــ الاعتماد على الله :

يؤمن أبو الأسود الدؤلي بالله إيمانا عميقا فهو يرى ضرورة الاعتماد عليه في كل شيء ويرى القناعة ضرورية لا غنى عنها ..

ويقول في ذلك :

توكل وحمل أمرك الله إنمـــا تراد به آتيك فاقنع بذي الفضل

٢ ــ الرزق :

يؤمن أبو الأسود الدؤلي بأن الأنسان مسير في حياته ، وبخاصة في الرزق . فهو يرى أن يترك أمر الرزق الى الله عزوجل : كقوله تعالى : [1] « ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . وقوله تعالى : « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » [2] ..

ويقول :

وفوض الى الله الأمور فإنـــــه تروح بأرزاق عليك جـــدود

(١) الذاريات آية ٥٨ .
(٢) الأحزاب آية ٣ .

وقال تعالى : « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم »[1] ..

وعجبت الدنيا ورغبة أهلهـــا والرزق فيما بينهم مقســـوم

وقوله تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون[1] » ..

فإن مقادر الرحمـــن تجـــري بأرزاق الرجال مـــن السماء

٣ – التوكل والسعي :

ولكن أبا الأسود مع هذا الإيمان العميق بالاعتماد على الله يرى أن هناك جانبا آخر ، لا بد للمرء أن يطرقه ، فالرزق على الله ، ولكن بشرط أن يسعى الإنسان وراءه . وهكذا أمرنا الله أيضا جل شأنه اذ يقول تعالى : « وامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور »[2] . وقوله تعالى : « فابتغوا عند الله الرزق »[3] . ونلاحظ أن أبا الأسود لا يخرج عن الألتزام الديني في حكمه :

وما طلب المعيشة بالتمـــني ولكن القِ دلوك في الدلاء
تجئك بملئها يوما ويومـــا تجئك بحمأة وقليل ماء[4]
ولا تقعد على كسل التمـــني تحيـــل عـــلى المقادر والقضاء
مقدرةٌ بقبضٍ أو ببســـطٍ وعجزُ المرءِ أسبابُ البـــلاء

ويتابع حكمه المليئة بالموعظة ويرى أن الإنسان عندما ينتهي أجله لايستطيع أي كائن أن يمنع المقسوم له ، وهذه المعاني مأخوذة من القرآن الكريم كقوله تعالى : « وقل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم

(١) العنكبوت آية ٦١ – والذاريات / ٢٢ .
(٢) الملك / ١٥ .
(٣) العنكبوت . ١٧ .
(٤) الحمأة : الطين ويقصد الرزق لأنه من الأرض .

رحمة »[1] وفي القطعة التالية يرد أبو الأسود على أبنته عندما نصحته بعدم الذهاب الى رحلة أراد القيام بها الى بلاد الفرس وكان الجو شتاءً ، والبرد قارسا ، مما جعل أبنته تخاف عليه من نتائج الرحلة الا أنه قال لها :

اذا كنت معنياً بأمر تُريـــدُه فما للمضاء والتوكل من مثـــل
ولا تحسبني السير أقرب للـــردى من الخفض في دار المقامة والثمل
ولا تحسبيني يا أبنتي عز مذهبـــي بظنك أن الظنَّ يكذب ذا الغُفل
وإني ملاق ما قضى الله فاصبري ولا تجعلي العلمَ المحققَّ كالجهل
وكم قد رأيت حاذرا متحفظـــا أصيب وألفته المنيةُ في الأهل

٤ – التقوى والدعاء الى الله :

ويتابع الدؤلي حكمه المستمدة من تجاربه ، وممزوجة بأيمانه العميق ، وأنه يرى لا بد من التقوى وخشية الله . كقوله تعالى[2] : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعاني » ..

ويقول الدؤلي :

إذا طلبت من الحوائج حاجـــة فادع الأ له وأحسن الأعمـــالا
فليعطينك مـــا أراد بقـــدرة فهو اللطيف لما أراد فعالا
إن العباد وشأنهم وأمورهـــم بيد الأله يقلب الأحـــوالا

أما الجانب الثاني في شعر الحكمة عند أبي الأسود وهو الجانب الأخلاقي وما يتعلق بسلوك الإنسان من حيث الصدق في القول والوعد – الصمت – الاعتدال في الحب والكره والحسد والصداقة ..

(١) البقرة آية ١٨٦ .
(٢) سورة الأحزاب آية رقم ١٦ .

١ — **الصدق** : يقول في ذلك :

بالصدق استقبل حديثك إنـــه أصح وأدنى للسداد وأمثل

* * *

حقق القول إذا ما قلتـــــه واحذرن مخزاتـــه في المجمعـــه
لا يكن بَرْقُكَ برقاً خلبـــاً أن خير البرق مـــا الغيث معـــه

٢ — **الصمت** : ثم يرى خير الكلام ما قل ودل وكأنه تذكر المثل القائل : «اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » ..

أطل الصمت إذا مـــا لم تسل إن في الصمت لاقوال دعـــه

٣ — الاعتدال في الحب والكره :

وفي القصيدة التالية ينصح أبو الأسود الدؤلي ابنه ، نصيحة الأب المجرب الذي اختبر الحياة « مرها وحلوها » فهو يرى أن الصداقة لها حدود معينـــة والبغضاء لها حدود أيضا فأبو الأسود رأيه كما عرفناه « خير الأمور الوسط » ..

يقول أبو الأسود لابنه :

أحبب اذا أحببت حبا مقاربـــا فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا أبغضت غير مباعـد فإنك لا تدري متى أنت راجع
وكن معدناللحلم واصفح عن الخنا فإنك راء ما حييت وسامـــع

نلاحظ أن هذا المعنى مأخوذ من كلمة الامام علي التي قال فيها : [1] : « احبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » ..

وفي البيت الآتي نراه يحذر ابنه من الوشاية ويطالبه بالأبتعاد عن ناقلها وكأنه تذكر قوله تعالى : [2] : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأفتبينوا

(١) الأمالي للقالي جـ ٣ ص ١٧١ .
(٢) سورة الحجرات آية رقم ٦ .

أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » . ويقول في ذلك :

لا تَقْبَلَنَّ وشايـة حدثتَهـا وتَحَذَّرَنَّ مِنَ الذي انباكـها

٤ — الحسد :

يتابع الدؤلي حكمه ويتحدث عن الحسد وأثره ويشبهه بتشبيه رائع مستمد من تجاربه في الحياة ويشبه الحاسد كضرة قبيحة تحسد ضرتها الحسناء . وهو تشبيه رائع . كما يشبه الكلام الطيب بنور يشرق من الفم كالبدر المنير وشبه العيون بالنجوم ..

ويقول :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيـه فالقوم أعداءٌ لـــه وخصوم
كضرائر الحسناء قُلْنَ لوجهها حسداً وبغضاً : إنه لذميـــم
والوجه يشرق في الكلام كأنـه بدر منير والعيون نجـــوم

ولكن الدؤلي لا ينسى حقيقة هامة في النفس الإنسانية ، فيجب أن يبدأ الاصلاح بالانسان نفسه :

لا تنه عن خلق وتأتي مثلـــه عار عليك إذا فعلت عظيـم [3]
ابدأ بنفسك وأنهـا عـن غيها فإذا انتهت عنـه فأنت حكيم

٥ — الصداقة :

يجب على العاقل الأبتعاد عن السفيه ، ولا يجاريه أطلاقا ، وان جاراه فهو في مستواه . كما يجب أن لا يعاتب السفيه لأنه ليس أهلا للعتاب . فيقول :

(٣) يقال : ان هذا البيت أشهر بيتا قيل في النهي عن الشيء . .

فاترك محاورةَ السفيه فإنهـــا ... نَدَمٌ وغِبٌ بعد ذاك وخيم [1]
وإذا جريت مع السفيه كما جرى ... فكلاكما في جريه مذمـــوم
وإذا عتبتَ على السفيه ولُمْتَـه ... في مثل ما تأتي فأنت ظلـــوم

وأما رأيه في اللئيم يقول :

وإذا طلبتَ الى لئيم حاجـــةً ... فألِحَّ في رفقٍ وأنت مديـــم
واسكنْ قبالة بيته وفنائـــه ... بأشد ما لزم الغريمَ غريـــمُ

أما الكريم فله أحترام عنده ، فيكفي منه اللقاء والتسليم إن لم نستفد منه شيئا . وربما طبق الدؤلي المثل الشعبي المشهور « لا قيني ولا تغديني » ويعبر أبو الأسود الدؤلي في حكمه عن تجارب شخصية مرت بحياته بدقة ويقول عن الكريم :

وإذا طلبت الى كريم حاجـــة ... فلقاؤه يكفيك والتسليـــم
فإذا رآك مسلما ذكر الـــذي ... كلمته فكأنه ملـــــزوم
فارجُ الكريم ، وان رأيت جفاءه ... فالعتب منه ، والكريم كريـــم

القسم الثالث : الجانب العلمي :

وفي القطعة التالية يصور لنا أبو الأسود صورة كاملة المعاني ، دسمة الطعم عن العلم ، فالعلم في رأيه لا يقدر بمال ، فيرفع الانسان الى السمو والمجد ، فهو زينة لصاحبه بل شرف يعلو بصاحبه غير ناظر الى أصله . يقول :

العلم زين وتشريف لصاحبـــه ... فاطلب هديت — فنون العلم والادبا

(١) الغب بالفتح ليس لها معنى وتأتي بالكسر في سقي الابل وفي الحديث زر غبا تزدد حبا وتأتي بمعنى العاقبة كما جاء في البيت السابق . .

كم سيد بطل آباؤه نجـــب ... كانوا رؤوسا فاضحى بعدهم ذنبا
ومقرفٍ خامل الآباء ذي أدب ... نال المعالي بالآداب والرتبـــا

ثم يرى العلم كنزا لا يفنى ويقارنه بالمال الفاني . . وقد يجمع الإنسان المال لكنه لن يدوم طويلا . أما العلم فهو باق أبد الدهر ، يشع نورا وخيرا وغبطة لحامله :

العلم ذخر وكنز لا نفاد لـــه ... نعم القرين ونعم الخدن إن صحبا
قد يجمع المال شخص ثم يحرمـه ... عما قليل فيلقى الذل والحربـــا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعـه ... لا تعدلن به درأً ولا ذهبـــا

وقد أشار بعض [1] الباحثين الى موضوعات شعره إذ قال : « وأكثر شعره في الحكم والآداب » . .

* * *

الوصف :

الوصف أكثر أبواب الشعر جمالا ، وأغزرها خيالا ، ويقول القيرواني عن الوصف : « الشعر [2] ألا أقله راجع الى باب الوصف ، ولا سبيل الى حصره واستقصائه ، وهو مناسب للتشبيه » . ودرسنا آثار أبي الأسود في هذا الميدان ، مع علمنا بأنه ليس من أبرع شعراء صدر الإسلام وصفا . ولا نعتبره من الخالدين في هذا الفن تاريخيا . .

ولنا أن نتساءل : ماذا قدم أبو الأسود في هذا الباب من جديد ؟

والجواب : لم يقدم لنا جديدا ، وكل ما قدمه بعض الصور لحياته الخاصة

(١) تاريخ الأدب العربي جرجي زيدان ج ١ ص ٢٧٦ .
(٢) العمدة لابن رشيد القيرواني ج ١ ص ٢٧٨ طبعة أولى سنة ١٩٣٤ مصر .

كوصف ناقة أو بغلة أو واد أو ساجع حمام كما سنبين في قصائده . ولم نره مثلا يصف لنا دجلة والفرات ، وماذا يحدث لهما عند شط العرب في البصرة . ولم يصف لنا المناظر الجميلة التي تمتاز بها البصرة قديما مع كثرة ثمارها . ولم نره يصف لنا رحلته النهرية من البصرة في شط العرب ، ونجده في مقطوعات أخرى ينظم نظما جافا أن صح هذا التعبير ، في أسلوب متكلف يخلو من العاطفة ، وفي بعضها يسمو الى مستوى رفيع نظما وأسلوبا وخيالا . ومن أروع ما وجدنا في ديوانه القصيدة التالية التي يصف بها ساجع الحمام حيث تتجلى فيها عاطفته الشعرية ويقدم لنا في وصفه لساجع الحمام ، صورا ملتحمة النسج ، مسلسلة الخواطر ، ترسم لوحة متكاملة في أسلوب يسمو به الدؤلي الى اعلى مراتب الوصافين في عصره . وأول هذه الصورة صورة الساجع فوق شجرته وكيف يبكي فراق الأحبة :

وساجع في فروع الأيك هيجني ... لم أدر لم ناح مما بي ولم سجعا
أباكيا ألفه من بعد فرقته ... أم جازعا للنوى من قبل أن يقعا
يدعو حمامته والطير هاجعة ... فما هجعت له ليلا ولا هجعا

ثم ينتقل الدؤلي الى وصف الشكل ويرسم لنا صورة زاهية بالألوان في أسلوب جذاب مع صور خيالية وخاصة في التشبيهات المترادفة تباعا ..

ويقول في ذلك :

موشح سندس خضر مناكبه ... ترى من المسك في أذياله لمعا [1]
له من الآس طوق فوق لبته ... من البنفسج والخيرى قد جمعا
كأنما عبَّ في مسود غالية ... وحلَّ من تحته الكافور فانتقعا
كأن عينيه من حسن أصفرارهما ... فصان من حجر الياقوت قد قطعا
كأن رجليه من حسن أحمرارهما ... مآرق من شعب المرجان فاتسعا

(١) جاءت كلمة « سندس » في الديوان منصوبة ولم نر داعياً لنصبها فهي صفة مرفوعة

شكا النوى فبكى خوف الأسى فرمى ... بين الجوانح من أوجاعه وجعا

وينتقل الى الناحية النفسية وأثرها في قلب الشاعر ويبين أنها جرحت جوانحه ، وهزت ضميره ووجدانه . ويقدم في هذا صورة حية لوقوف الطائر فوق شجرته ، والرياح تدفعه تارة يمينا وشمالا ، وتارة أخرى من أعلى الى أسفل ، ويختمها بتشبيه هذا الطائر بالراهب المستمر في عبادته وقد وفق الدؤلي في هذه القصيدة نظما وأسلوبا ومعنى ..

والريح تخفضه طورا وترفعه ... طورا فمنخفضا يدعو ومرتفعا
كأنه راهب في رأس صومعة ... يتلو الزبور ونجم الصبح قد طلعا

والقصيدة الثانية في باب الوصف هي قصيدته اليائية . وهي لا تقل روعة عن القصيدة السابقة ، ألا أن أسلوبها جاهلي من حيث الصياغة والتركيب ، والصور الخيالية ، ويبدأ بعتاب لزوجته ، ثم يستطرد في وصف لقوته وشجاعته. وفي هذه القصيدة — كما أعتقد — تقليد للمعلقات الخالدة حتى في نسجها ومقدمتها تقليد للشعر الجاهلي من حيث الغزل ، ثم وصف الفرس وما قابله في هذه الرحلة من مناظر .. ويقول أبو الأسود :

ألا تلك عرسي أم سَكَنٍ تنكرتْ ... خلائقُها لي ، والخطوبُ تَقَلَّبُ [1]
تَعَرَّضُ أحيانا وأزعم أنها ... تحوطُ أمراً عندَه تَتَقَرَّبُ
فقلتلها : لا تعجلي. كلُ كربةٍ ... ستمضي ، ولو دامت قليلاً فتذهب
فأما تَريني لا أريمكِ قاعداً ... لدى الباب لا أغزو ، ولا أتغيب
فانك لا تدرين أن رب سَربخٍ ... دُقاقُ الحصى منه رمال وسبسب [2]

ويبدأ الدؤلي رحلته فجرا . ثم ينتقل الى وصف الصحراء التي يحار بها القطا

(١) ام سكن زوجة ابي الأسود الدؤلي الثانية.
(٢) سربخ : الأرض الواسعة .

ويرتد بها الفرس الأصيل ، ويحتار بين كثيبها الا أنه يقطعها شجاعا ، غير هياب ، على فرس سريعة إذا ضربت أقصى[1] الركب تنطلق سريعة كأن رضيعها يجري أمامها ويستهويها ويحثها على اللحاق به فتطير متشتاقة وقد وفق الدؤلي في هذا الوصف والتشبيه الرائع :

الى أن بدا فجرُ الصباح ونجمُـه ... وزال سوادُ الليلِ عما يُغيّبُ
وصحراءَ سختيتٍ يَحار بها القطا ... ويَرتد فيها الطرفُ أو يَتَقصّبُ
قطعت إذا كان السراب كأنـه ... سحاب على أعجازه متنصـب
على ذات لوث يجعل الوضع مشيها ... كما أنقض عيرُ الصحرةِ المترقب
عليها إذا ما استحمل القوم بعضهم عليها متاعٌ للرديف ومركـب
وتصبح عن غِبِّ السري وكأنها ... إذا ضرب الأقصى من الركب تضرب
كأن لها رئماً تراه أمامهـا ... مدى العين تستهوي اليه وتذهب

ثم ينتقل الى وصف الطريق الوعر الضيق الذي يعسر تجنبه الا أنه لم يخف ولن يلين حتى يقطعه ويرى آثار الأسود والصيادين على رماله ومعه سيفه الهندكي الحاد تجاوزه كالأسد المتوحش الذي يهابه من يراه :

وَخلٍ مخوفٍ بين ضَرسٍ وغابـةٍ ... ألفَ مضيقٍ ليس عنه مُجنّبُ
كأن مصامات الأسود ببطنـه ... مراغٌ وآثارُ الاراجيل مَلْعَبُ
سلكت إذا ماجن ثغرَ طريقـه ... أغمُ دجوجي من الليلِ غَيهبُ
بذي هبواتٍ أو بأبيض مرهفٍ ... سقاه السِمامَ الهندكي المخرَّبُ
تجاوزته يمشي بركني مخـود ... كسيدِ الفضا سربا له متجاوب

وهنا يصف لنا الشباب وذهابه وصفا يسمو بعاطفة صادقة ، وخاصة في مطلع مقطوعته ، ويشبهه بالجار الذي يظهر يوما ثم يزول عن الحياة ، ثم يندم

(١) الأقصى : الفرس .

على ما فاته من أيام الشباب ، ويتمنى لو كان قد قتله قبل أن يتصدع ويتلاشى . ويشبهه بالسراب الزائل وقد وفق أبو الأسود الدؤلي في رسم هذه الصورة الخيالية الجميلة ، وما تحتويه من استعارات رائعة .

ويقول أبو الأسود :

غدا منك في الدنيا الشباب فأسرعا ... وكان كجار بان يوما فودعـا
فقلت له فأذهب ذميما فليتنـي ... قتلتك علما قبل أن تتصدعـا
جنيت علي الذنب ثم خـذلتني ... عليه فبئس الخلتان هما معـا
وكنت سرابا واضحا إذ تركتني ... رهينة ما أجني من الشر أجمعا

* * *

المديح :

وإذا ما أستعرضنا شعر المديح نجده تطور منذ أنقضى العصر الجاهلي ، وركز الإسلام لواءه في أرض الجزيرة العربية ، لأن الفضائل التي كان يمدح بها الجاهلي دخلها شيء من التعديل من وجهة النظر الإسلامية ..

فوصف الممدوح بالقوة والظلم وشرب الراح ، والمقامرة والاقبال على الشهوات ، أصبح من المساوىء والرذائل التي ينبغي للمسلم أن يتجنبها ويتحاشاها لينجو بدينه . وظهرت مبادىء جديدة نسخت الصفات القديمة . ونجد الصفات التي يركز عليها الدؤلي في ممدوحه هي صفات وخلال دينية ، إذ تشمل الصدق بالقول والوعد الحق والنبل وحب آل البيت وخاصة الامام علي وذريته . ولم يكن أبو الأسود يستطيع أن يبلغ من المدح ما بلغه شعراء الجاهلية أمثال زهير والنابغة والحطيئة والأعشى وطرفة وغيرهم من الشعراء المداحين ، وذلك لأن الدؤلي لم يمدح الا معارفه وأصدقاءه بعد أن جاروا عليه ، فهناك فارق كبير بين القاصد في المدح وغيره فأبو الأسود لم يقصد المديح لذاته انما هي

أشعار ساقها ردا لمعروف سابق ، أو ما شابهه وعلى هذا الأساس نجده شعرا ينخفض صياغة وأسلوبا ما عدا واحدة قالها في مدح العلويين ، وهي من أروع ما قاله في هذا النوع يرجع ذلك الى صدق العقيدة فخرجت لنا صادقة العاطفة أيضا . وما عدا هذه القصيدة نجد شعره في هذا الباب ضعيف التركيب صياغة وأسلوبا واعتقد أن السبب في هذا التباين الواضح يعود الى نفسية الدؤلي ذاتها . فهو يعتد بنفسه ، وهو قاضي البصرة ، ومن سنام العشيرة ، ومن المقربين للامام ومن شيعته والذين مدحهم غير آل البيت مساوون له علما وجاها ، وهو أعتقاد داخلي لم يظهره الدؤلي على لسانه وأنما ظهر في قلبه وصدق عاطفته فهو يمدح أصدقاءه ..

وأول ما يقابلنا قصيدته اليائية في مدح العلويين وفيها نرى صدق العاطفة وقوة العقيدة فهو يذم بني قشير وهم أصهاره ، ويبين مدى حبه للرسول عليه السلام وآل بيته وكيف اختار الله نبيه من هذا النسل الطاهر الشريف كما يصفهم بالشجاعة والأقدام ..

يقول أبو الأسود :

يقـــول الأرذلون بنو قشـير ... طوال الدهر لا تنسى عليـــا
فقلت لهم : وكيف يكون تركي ... من الأعمال ما يقضي عليـا
أحب محمداً حباً شديـــداً ... وعباساً وحمزةَ والوصيـا
وجعفر إن جعفر خير سبـــطٍ ... شهيدا في الجنان مهاجريـــا
بنوعم النبي وأقربـــوه ... أحب الناس كلهـــم اليـا
فان يكُ حبُهم رشداً أصبـــه ... وفيهم أسوة أن كـــانفيا
فكم رشدا أصبت وحزت مجدا ... تقاصر دونه هـــامالثريا

ثم يبدأ يركز على صفاتهم وأخلاقهم الفاضلة فهم أهل للنصيحة ، ومن أصل طاهر شريف :

هُمُ أهلُ النصيحةِ من لدنّي ... وأهلُ مودّتي ما دمتُ حيّـا
مُزَينةُ منهم وبنو غِفَـــار ... وأسلم أضعفوا معـــه بليا
يقودون الجيادَ مسومـــاتٍ ... عليهنَّ السوابغُ والمطيـــا

والقطعة الآتية يمدح بها أمير البصرة عبيد الله بن عامر ويتذكر ابن عباس الذي كان أميرا عليها قبل ابن عامر ، وبين أنهما كانا أصدقاءه فإن فعلا خيرا كان جزاؤها خيرا ، وإن كان شرا فجزؤهما شر . والقطعة يغلب عليهـا النظم :

ذكرت ابن عباس بباب ابن عامر ... ومامرمن عيشي ذكرت وما فضل
أميران كانا صاحبي كلاهمـــا ... فكلا جزاه الله عني بما عمل (١)
فإن كان خيرا كان خيرا جزاؤه ... وإن كان شرا ، كانشرا كما فعل

والقصيدة الآتية يمدح فيها صديقا له أكرمه . فهو يخلص لصديقه ويرتفع في مدحه ويسمو في هذه الأبيات سموا لا بأس به . ونلاحظ الصفات الإسلامية التي يركز عليها في ممدوحه وهي الصدق في القول والإيمان بتعاليم الإسلام . ويقول لصديقه واسمه أبو ماعز :

جزي الله رب الناس خير جزائه ... أبا ماعز من عامل وصديـــق
قضى حاجتي بالحق ثم أجازهـــا ... بصدق وبعضُ القومِ غيرُ صدوق

ويصور أبو الأسود صديقه عند استقباله له وترحيبه به :

ولما رآني مقبلا قال : مرحبـــا ... الا مرحبا واديك غير مضيـــق

(١) استشهد بهذا البيت سيبويه والشاهد في نصب « كل » باضمار فعل منوب فيما بعده . . انظر الكتاب سيبويه جـ ١ ص ٧١ طبعة أولى ١٣١٦ هـ مصر . كما جاء في شرح السيرافي على كتاب سيبويه / مخطوط في دار الكتب المصرية جـ ٢ ص ٤ تحت رقم ١٣٧ مخطوطات نحو

ثم يمدحه بنسبه وحسبه ويقول في ذلك :

تورثت من «دودان» مجدا وسؤددا ... ولست كمن يعيا بغير لصوق
بنى لك عبد الله بيتا بيافع ... على كل واد حوله وطريق

* * *

الرثاء :

رثى أبو الأسود آل البيت فقط ولم يرث غيرهم ، ونجده في رثائه مخلصاً وفيا . تظهر فيه عاطفته الصادقة ، وحبه العميق لهم . وإذا استعرضنا الرثاء من حيث مفاهيمه الإجتماعية والأدبية على الأخص ، نجده قد يكون تخليدا إذا عني بتمجيد صفات الراحل وأعماله . وقد يكون بكاء إذا تحدث عن الألم الذي يحس به الشاعر نحو الفقيد . وكثيرا ما يجمع الرثاء بين التخليد والبكاء وهما ما نجده عند الدؤلي ..

ومن أروع ما قاله الدؤلي في رثاء آل البيت قصيدته الرائية [1] فهي رائعة الأسلوب جياشة العاطفة ، يصف بها بيت الرسول وأتباعه ويراهم يمثلون الدين الإسلامي ، وأنهم على حق وغيرهم على باطل ويطالب أصهاره بني قشير بنصرة آل البيت ويرى أن البعد عنهم كفر . يقول أبو الأسود :

يا ناعي الدين الذي ينعي التقى ... قُم وانعه والبيتَ ذا الأستار
ابني عليّ آل بيت محمدٍ ... بالطف تقتلهم جُفاةُ نزار
سبحان ذي العرش العلي مكانه ... أنى يكابره ذوو الأوزار

(١) قد أشير الى هذه القصيدة في دائرة المعارف الاسلامية عندما تحدثت عن موضوعات شعر أبي الأسود الدؤلي وجاء في ذلك « وقد أمده مقتل علي بمادة جديدة في الرثاء وفي قصيدة نظمها وهو لا يزال متأثرا بوقوع هذا الحادث ، ويقول واشعاره عدا هذه القصيدة لاقيمة لها » وهذا رأي خاطىء لأن في ديوانه قصائد مثلها بل تفوقها من حيث القوة والجمال . .

أبني قشير أنني أدعوكم ... للحق قبل ضلالةٍ وخسار
قودوا الجياد لنصر آل محمد ... ليكون سهمكم مع الأنصار
كونوا لهم جُنناً وذُودوا عنهم ... أشياعَ كلِ منافقٍ جبار
وتقدموا في سهمكم من هاشم ... خيرِ البريةِ في كتاب الباري
بهم اهتديتم فاكفروا أن شئتم ... وهم الخيار وهم بنو الأخيار

وفي القصيدة الآتية يرثي الامام علي كرم الله وجهه . ويصف كيف كانت وفاته فاجعة للأسلام وللمسلمين . ويسترسل في وصف محاسنه وبطولته ، ذاكرا زهد الأمام وورعه . ونلاحظ أن رثاء المخضرمين يختلف عن رثاء الجاهليين وخاصة في المعاني ، ويرجع ذلك الى تأثير الإسلام في نفوس الشعراء « وكان من عادة القدماء [1] أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة والأمم السالفة والوعول الممنعة في قلل الجبال ، والأسود الحاضرة في الفيافي ، وحمر الوحش المنصرفة بين القفار ، والنسور والعقبان و الحيات لبأسها وطول أعمارها وذلك في أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر » . وهكذا نرى التجديد الذي طرأ على الأسلوب والمعنى في شعر شعراء صدر الإسلام حيث نراهم يذكرون سمات الميت الإسلامية كالزهد والتقوى والورع والإيمان بالله ..

يقول الدؤلي في رثاء الامام :

الا أبلغْ معاويةَ بن حربٍ ... فلا قرتْ عيونُ الشامتينا
أفي شهرِ الصيامِ فجمعتمونا ... بخير الناسِ طرا أجمعينا
قتلتم خيرَ من ركبَ المطايا ... وخيّسها ومَن ركب السفينا

وهنا يشير الى زهد الامام رحمه الله وورعه ، وقوته العلمية ومكانته الاجتماعية في قومه :

(١) العمدة للقيرواني ج ٢ ص ١٣١ . .

ومن لبس النعال ومن حذاهـــا ومن قرأ المثاني والمئينـــــا
إذا استقبلتَ وجه أبي حسيـــن رأيت البدرَ راق الناظرينـــا
لقد علمت قريش حيث كانـــت بأنك خيرهم حسبا ودينـــا

وفي القصيدة الآتية يرثي الدؤلي الحسين ومن أصيب معه من بني هاشم في الطف – وهي ضاحية من ضواحي كربلاء – عندما قتله يزيد بن معاوية سنة ٦٠ هـ ويبين الدؤلي حزنه وأسفه على الهاشميين . وكيف أفنتهم الفئة الظالمة ، وهم « الأمويون » في رأيه وأنه سيبقى يبكيهم ولو هلك في سبيل ذلك، وهذا ما يعتقده بقربه للرسول بالاضافة الى شعوره بالفوز والنعمة الدائمة ..

أقـول لعـازلتي مـــرة وكانت على ودنا قائمـــه
إذا أنت لم تبصري مـــا أرى فبيني وأنت لنا صارمـــه
الست تـــرين بني هـاشـم قد أفنتهم الفئة الظالمـــه
فأنت ترثيهـــم بالهـــدى وبالطف هام بـــني فاطمه
فلو كنـــت راسخـــة في الكتاب بالأحزاب خابرة عالمـــه
علمت بأنهـــم معشر – لهم سبقت لعنـــة حاتمـــة (١)
سأجعل نفسي على جُنـــة فلا تكثري بي مـــن اللائمـــه
أرجي بذلك حوضَ الـرسـول والفوزَ والنعمةَ الدائمـــه
لتهلك أن هلكـــت بـــرَّة وتخلص أن خلصت غانمـــه

* * *

(١) ديوان أبي الأسود الدؤلي تحقيق الشيخ محمد آل ياسين ص ٧٦ « حاتمة هكذا جاءت في الديوان ومعناها معطاة ، ويقول المحقق لعل الصواب حاتمة كما جاءت في أنباة الرواة ، وانني أرجع حاتمة بالثاء فاللعنة حاتمة أي معطاة واللعنة تأتيهم من الله فاللعنة لا تأتي حاتمه بالتاء ..»

العتاب :

كثر هذا اللون من الشعر عند الدؤلي ، وهو أكثر ما في ديوانه . ولا غرابة في ذلك وقد كان لأبي الاسود حساد واصدقاء وكثيراً ما غضب الدؤلي من تصرفات بعضهم فكان يعاتبهم على هذا التصرف . واكثر المقطوعات يعاتب صديقا له اسمه سالم بن سلمه ويكنى (أبا الجارود) ولكنّ أبا الجارودقاطع أبا الأسود بعد أن ولي ولاية ، ولم يراسله وبالأحرى لم يهاده فيقول الدؤلي في ذلك :

الا يا أبا الجارود هل أنتَ مُخبري بأي زنادٍ يورين عندكم قدحي
سَكَتُّ فَلَمْ يبلغْ بي السكتُ نقرةً وقلتُ فلم أبلغْ بذمٍ ولا مـدح
وانك قَدْ عَلَّمتَني فَعَلِمْتَهُ فِراقَ الخليل في جمالٍ وفي صفح

وهنا يعاتب أبا جارود ونراه يتكلف في نظم هذه الأبيات التي تخلو من العاطفة ويشير الى صفاته الإسلامية من كرم واباء وشرف وغير ذلك . ويقول في ذلك :

أبلغْ أبا الجارود عني رسالـــة أفيُ كل قولٍ قلته أنت آخـذ
تُوَقَّذُ قولي كي تُوله حاجتي وبعض الكلامِ للكلام مواقـذ
أمنكَ قوافٍ قد أتتني كأنهـا إذا صابت المرء – القرار النوافذ
على غير شيءٍ غير أني معاتـب وذلك أمرٌ سَنَّهُ اللهُ نافـذُ
فإن كنت حقا أنت لا بـدآخذا فآخذ بعلم قد ترى من تؤاخذ

وفي قصيدة أخرى يقول لصديق له يقال له : الحصين بن الحر العنبري طلب منه الدؤلي بعض الهدايا ، فرفض طلبه ونلاحظ أن الدؤلي يغضب غضبا شديدا لأن صاحبه اعتبر رسالته كالنعل القديم الذي يرمى ، لا فائدة به كما يلوم الدؤلي الزمن الذي يقطع الناس ودهم فيه :

الا أبلغا عني حُصَيْناً رسالـــةً فانك قد قطّعت أخرى خلالكا
رأيت زمانا قَطّعَ الناسُ بينهم بُرى الحقِّ فيه فاقتديتَ بذالكا

فلو كنتُ إذ خبرتُ أنك عاملٌ بميسان تعطي الناس من غير مالكا
سألتُك أو عرَّضت بالودّ بيننا لقد كان حقاً واجباً بعضُ ذالكا
وخبرَّني منْ كنتُ أرسلتُ انما أخذتَ كتابي معرضاً بشمالكا
نظرتَ الى عنوانه فنبذتَه كنبذك نعلا أُخلقتْ من نعالكا
حسبتَ كتابي إذ أتاك تعرُّضا لسَيبك لم يذهب رجاي هنالكا

ثم يسترسل في عتابه لصديقه ويرى ما فعله معه من رفض لمطالبه ، سيرد عليه ، ويرجع ذلك الى أخلاقه ومع أن لسانه معسول ونفسه مرحة الا أنه ماله بعيد عن صديقه بعد الثريا عن الناس :

الا أبلغا عني حُصَيْناً رسالةً فانك مردودٌ عليك خلالكا
كَرَدّ الاداةِ المستعارةِ أنني وَصَلْتُك حتى عادَ صرماً وصالكا
أراك متى تهمي يمينك مَرّةً لتفعلَ خيرا تعتقبها شمالكا
لسانك معسولٌ ونفسُكَ بشّةٌ وعندَ الثريا مِن صديقك مالكا

وهنا يعاتب صديقا آخرا يدعى أبا سهل . ويقول في ذلك :

رأيت أبا سهلٍ وما كنت مذنبا اليه ولا أني خرقت لَهُ سترا
يريد فساد الرحم بيني وبينه فدونك قد أبلغت فيما أرى العذرا
فباعدطوال الدهران كنت صارما لتضرر من لا تستطيع له ضرا

وفي القصيدة التالية يعاتب الدؤلي صديقا يبين فيها الدؤلي قوته النظمية مع قوة في أسلوبه وخاصة الأجزاء الأولى من القصيدة ، وهي خير ما في ديوانه من شعر العتاب . ويورد فيها الدؤلي فضائله الإسلامية ، وخبرته في الحياة . وأما مناسبة هذه القصيدة فيقال كان معاوية بن صعصعة يلقى أبا الأسود كثيرا فيواقفه ويحدثه وقد كانت تبلغ أبا الأسود عنه قوارص فيذكر ذلك له

فيعتذر اليه ويحلف له لم يفعل ، وما يريد الذي يبلغك هذا الا اغراء ذات بيننا فقال أبو الأسود في ذلك :

أرقت وهاجتني الهمومُ الحواضر وهَمٌّ الفتى سار عليه وباكرْ
ولي صاحبٌ قد رابني أو ظلمته كذلك ما الخصمان برٌّ وفاجر
إذا قال يلحاني ويعذر نفسه ولله في المظلوم عزٌّ وناصر
وإني امرؤعندي – وعمداً أقوله لآتي بما يأتي امرؤ وهو خابر
لسانان – معسول عليه عراوة وآخر مذروب عليه الشراشر
يبيتان عندي ثم كل إذا غدا بكل كلام قاله الناس ماهر
وكان الذي يلقى الوعورة منهما على سُبلٍ قد أنهجتها العيائر
فقلت ولم أبخل عليه نصيحتي وللمرء ناه لا يراه وزاجر
إذا أنت حاولت البراءة فاجتنبْ حَرَا كلّ أمرٍ تعتريه المعاذر

وهنا يعاتب صديقا له وهو عامل البصرة في تلك الفترة عبد الله بن عامر ويرى أن الحب الحقيقي يظهر على وجه الصديق ، ويرجع ذلك الدؤلي الى الدهر الذي لا يأمن الدؤلي اليه وهو في الواقع يعيب الناس ولكنه يرجع ذلك الى الزمن :

ألم تر ما بيني وبين ابن عامر من الود قد بالت عليه الثعالب
وأصبح باقي الود بيني وبينه كأن لم يكن والدهر فيه العجائب
إذا المرء لم يحببك الا تكرها بدا لك من أخلاقه ما يغالب
فللنأي خير من دنو على الأذى ولا خير فيما يستقل المعاتب

وهنا يصل العتاب الى زوجته الثانية ونلاحظ روح الفكاهة والذكاء وسرعة الجواب في أسلوبه وخاصة في البيت الخامس والسادس ثم يركز على الافتخار

بنفسه ويقول في ذلك :

تعاتُبني عرسي على أن أُطيعَها ... لقد كذَبَتْها نفسُها ما تمنّتْ
وظنّتْ بأني كلُّ ما رضيتْ به ... رَضيْتُ به يا جهلَها كيف ظنّت
وصاحبتُها ما لو صحبتْ بمثلـه ... على ذُعرها أروية لاطمأنت
وقد غرها مني على الشيب والبلى ... جنوني بها جنّتْ حيالي وحنّتْ
ولاذنبَ لي قدقلتُ في بدءِ أمرنا ... ولو علِمتْ ماعُلمتُ ما تعنّت
تشكي الى جاراتها وبناتهـــا ... إذا لم تجد ذنباً علينا تَجنّت
ألم تعلمي إني إذا خفتُ جفوة ... بمنزلة أبعدتُ منها مطيّتي
وإني إذا شَمّتْ عليَّ قرينتـي ... دهلتُ ولم أحنن إذا هي حنّت

وصف أحد المستشرقين شعر أبي الأسود وقال [1] : « وبصورة عامة تدور أكثر المقطوعات الشعرية ، حول الحياة العامة كالخصام مع الناس وجيرانه الشرس ونسائه ، والشكوى على الأمراء والبخلاء وغير ذلك » ..

* * *

الغزل :

التغزل أو النسيب من أقدم الفنون الشعرية عند العرب وأكثرها شيوعا ، لاتصالها الوثيق بالطبيعة الإنسانية . فقد عبر الإنسان عن عواطفه وحبه في شتى المجالات . وكان أقرب هذا التعبير الى القلب شعر الغزل ، وظهر هذااللون عند شعراء الجاهلية وفي معلقاتهم ..

ومن الطبيعي أن يقرض الدؤلي هذا اللون من الشعر الا أننا لا نجد في ديوانه

(١) مقالة عن شعر أبي الأسود الدؤلي للمستشرق الألماني نولدكه ص ٢٣٢ في مجلة الشركة الشرقية الألمانية سنة ١٨٦٤ م . وانظر دائرة المعارف الاسلامية ص ٣٠٧ . .

سوى مقطوعات قليلة جدا في هذا الميدان . وسأشير اليها جميعها حتى تحدد لنا ملامح شخصيته . فقد عاصر الدؤلي الشاعر العربي العظيم عمر بن أبي ربيعة الذي حاول أن يتغزل في زوجة أبي الأسود الجميلة الا أنه أوقفه عند حده ، أما غزل أبي الأسود فلا نجده يصل الى مستوى عمر بل لا يعتبر غزلا لأنه قليل الكم عديم الكيف ولم يوفق الدؤلي في هذا اللون من الشعر ، وربما يرجع الى شخصيته الدينية والعلمية فابتعد عن هذا النوع من الشعر ..

وغزل الدؤلي كالغزل الجاهلي يصف محبوبته من حيث الشكل والمشي وما شابه ذلك ، وفي هذه القطعة يتغزل في جارية اشتراها فقد عابها أهله لأنها حولاء ويصفها الدؤلي وصف المولع بها معجبا بجمالها ، ويقول في ذلك :

يعيبونها عندي ولا عيب عندها ... سوى أن في العينين بعض التأخر

فقد وفق الدؤلي في هذا الوصف فلم يقل : أنها حولاء بل في العينين بعض التأخر وهو لا يهتم بهذا التأخر إنها في رأيه جميلة القوام . يقول :

فإن يَكُ في العينين شيءٌ فإنهـا ... مهفهفةُ الأعلى رَداحُ المؤخر

وفي القطعة التالية يتغزل الدؤلي في زوجته أم عوف ويشبهها بثوب جميل قدم عهده ولا يوجد مثله في هذه الآونة فالشيء النادر محبوب ، ويزداد غلاوة مع الأيام فقلبه الولهان يهوى ويعشق أم عوف الحبيبة المفضلة والزوجة الوفية :

أبى القلب إلا أم عوف وحبهـا ... عجوزا ومن يحبب عجوزايفند
كسحق اليماني قد تقادم عهده ... ورقعته ما شئت في العين واليد

وفي القطعة التالية يتغزل في فتاة أحبها ولكنه لم يوفق في الزواج منها :

ذروا آل سُلمى ظنتي وتَعَتُبي ... وما زلَّ مني إنَّ ما فات فائتُ
ولا تهلكوني بالملامة إنمـا ... نطقت قليلا ثم إني لساكت

سأسكت حتى تحسبوني كأنني ... من الجهد في مرضاتكم متماوت
ألم يكفكم أن قد منعتم بيوتكم ... كما منَعَ الغيلَ الأسودُ النواهت
تصيبون عرضي كلَّ يومٍ كما علا ... نشيطٌ بفأسٍ معْدَنَ البُرمِ ناحت

وفي القطعة الآتية يلوم زوجته الثانية أم السكن ، وبعد الملامة يتغزل في جمالها . ولكنه لم يوفق في أختيار الألفاظ ، وخاصة في استعماله لكلمات ثقيلة الصوت غير متجانسة ورغم انها تتجسس عليه الا انها جميلة في عينه رفيعة المكانة الا أنه لم يوفق في تشبيهه إياها بالفيل. وكما أنه يتناقض فيعترف أنها رفيعة وليس من المعقول أن تكون رفيعة جم عظامها وشبهها كالفيل . وقد قصد أبو الأسود التأني ولكنه لم يوفق وأما ثيابها فهي كاملة الثياب تمشي وتجر ثيابها وهي عادة نساء الإشراف بالعراق والعرب قديما ولا تزال هذه العادة حتى الآن تستعمل عند نساء العمارة في العراق ..

تَجَسس عُني أمَّ سكنٍ وأهون ال ... شكاة شقاءاً ظنّةُ المتجسس
وليست بوكباء الصدار إذا مشتْ ... تَوَكّرُ مشى الكَودَن المتحبس
لها ولجةٌ في كل بيتٍ وخرجَةٌ ... تُحكِكُ جنبَ الأجرب المتمرس
ولكنها زهواءُ جَمٌّ عِظامُها ... لحقية الريطِ التي لم تُدنس
من الممسكات لا ترى غيرَ أنه ... متى حان يوما زينةُ الناس تلبس

وفي القطعة التالية يتغزل في حبيبة له تدعى فاطمة ، ولكننا لم نجد أثناء دراستنا لسيرته زوجة أو حبيبة له بهذا الاسم . فهو حاول في هذه القطعة كما أعتقد تقليد الشاعر العربي الجاهلي أمرىء القيس ..

يقول الدؤلي :

أفاطمْ مهلاً بعضَ هذا التعبسِّ ... وإن كان منك الجدُ فالصرمُ موئسي
تشتم لي لما رأتني أحبُّها ... كذى نعمةٍ لم يبدها غيرُ أبؤسِ
فإن تنقضي العهدَ الذي كان بيننا ... وتلوي به في ودكِ المتحلّسِ

فإني فلا يغررك مني تَجَمّلي ... لأسلي البعادَ بالبعادِ المكنّسِ
وأعلمُ أنَّ الأرضَ فيها منادح ... لمن كان لَمْ تُسْدَدْ عليه بِمَحْبَسِ
وكنت امرءا لا صحبةَ السوء أرتجي ... ولا أنا نوّامٌ بغيرِ معَرسِ

ويقول امرؤ القيس :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل ... وان كنت قد أزمعت صرمي فأجملي
أغرك مني أن حبك قاتلي ... وأنك مهما تأمري القلب يفعل
وانك قسمت الفؤاد فنصفه ... قتيل ونصفٌ بالحديد المكبل
فإن تك قد ساءتك مني خليقة ... فسلي ثيابي من ثيابك تنسل
وما ذرفت عيناك الا لتضربي ... بسهميك في أعشار قلب مقتل

نلاحظ أن أبا الأسود في هذه القصيدة يسلك نفس الطريق الذي خطه أمرؤ القيس ألا أن الدؤلي يحاول أن يبتعد عن حبيبته ، ولكن أمرؤ القيس لا يستطيع البعد عنها . وما عليها ألا أن تأمر فهو ينفذ هذه الأوامر . ويرجع ذلك الى الفارق بين الاثنين من حيث المركز والجاه والبيئة أيضا . فامرؤ القيس أمير غني ، ومستهتر بالحياة جاهلي الدين، يسبح في بحر الملذات بين أحضان الطبيعة والبيداء لا يهمه في الحياة الا نيل الملذات والشهوات والمتع وتحقيقها . أما أبو الأسود فهو رجل تقي يريد الحب ولكن إذا ابتعد عنه فهو بعيد . ونلاحظ نفس الوزن والكلمات متشابهة الى حد ما ..

* * *

الهجاء :

وإذا نظرنا الى هجاء الدؤلي نجده يدور في فلك معين ، من صديق أساء له ، أو أعرض عنه في عطاء وما شابه ذلك . ونلاحظ أن الهجاء عند الدؤلي يدور

في فلك أسلامي من حيث المعاني ، ويركز الدؤلي على خصائص معينة يهجو بها خصمه من ناحية الصدق والعفة والأمانة وغير ذلك ويرجع ذلك إلى تأثير الإسلام ، ويقال أن الرسول عليه السلام نهى عن الهجاء وقال عليه السلام : من قال في الإسلام هجاء مقذعا [1] فلسانه هدر . وقد فسر عمر بن الخطاب رضي الله عنه معنى الهجاء المقذع حين أطلق الحطيئة من سجنه بسبب هجائه للزبرقان بن بدر فقال له : أياك والهجاء المقذع قال : وما المقذع يا أمير المؤمنين . قال المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف ..

وفي القطعة الآتية يهجو الدؤلي صديقا له ويركز على المهجو ويعيبه ويتهمه بالكذب والتلاعب :

لِعمركَ ما وجدتُ أبا عميرٍ ... صدوقاً في الحديث ولا عليما
يكلِّمُني ويَخْلِجُ حاجبيه ... لأحسبَ عنده علماً قديما
جزاك الله ما يجزي كذوباً ... أثيما قال بهتانا عظيما

ونلاحظ المعاني الإسلامية التي يركز عليها من ناحية الصدق والإثم وغير ذلك وكان لأبي الأسود مولى يقال له : « نافع » وكان يكني أبا الصباح وأن أبا الأسود ذكرت له جارية تباع فركب اليها نافع فاشتراها لنفسه وغدر بأبي الأسود ، فقال أبو الأسود في ذلك :

إذا كنتَ تبغي للأمانة حاملاً ... فَدَعْ نافعاً وانظرْ لها من يطيقها
فإن الفتى خَبٌّ كذوبٌ وأنه ... له نفسُ سوءٍ يحتويها صديقها
متى يَخْلُ يوما وحده بأمانة ... تُغَلَّ جميعاً أو يُغَلَّ فريقها
متى لا يصادفها غدوا فانه ... سيقلص عنها أو ستكسد سوقها
ويهلكها حتى تصيرَ نقاهةً ... ويلحقها من كلِ عينٍ لحوقها

(١) العمدة ج ٢ ص ١٣٨ .

على أنه أبقى الرجال سمانةً ... كما كلُّ مسمانِ الرجالِ سَروقها

وإذا عقبنا حول الهجاء عند الدؤلي فليس لنا الا أن نقول الحقيقة أن أبا الأسود لم يحب أن يتجه الى هذا اللون ، ويرجع ذلك الى شخصية الدؤلي نفسها ، فالمؤمن لا يهجو قط . ولا يرد الاساءة ، بل على النقيض تماما فهو يرد الإساءة بالخير وما وجدناه من هذا اللون عند أبي الأسود ما هو هجاء بالمعنى الدقيق للهجاء ؛ أنما هجاء من نوع آخر هجاء ومعايب يكيلها الدؤلي الى المهجو ، تدور في فلك اسلامي من حيث الصدق والأمانة وما شابهها ..

ولم يكن هجاء يدور حول الجبن والهرب من المعركة أو الهزيمة والمذلة كما كان قديما . وفي القطعة الآتية يهجو أبو الأسود صديقا لم يكرمه عندما ذهب اليه طالبا مساعدته ويقول في ذلك :

تروحتْ من رزداق جي عشيةً ... وغادرتُ في رزداق جي أخالكا

ونلاحظ في البيت السابق أنه لم يفعل شيئا أنما قال : تروحت وغادرت للمكان نفسه في أسلوب يغلب عليه النظم ثم يتابع هجاءه لهذا الصديق الذي ان أبعد عنه نساه وأن قرب اليه يمل المقاربة :

أخالك ان طال التنائي وجدته ... نسياً ، وانْ طالَ التعاشرَ ملكا
إذا جئته تبغي الهدى خالف الهدى ... وأن جرت عن باب الغواية دلكا

ويهجو في هذا البيت أحد أقربائه واسمه أنس وكأنه يقول نثرا : « وانني وجدت أنسا كذوبا غير أمين فتركته ..

تبدلتُ عن أنسٍ انه ... كذوبُ الأمانةِ خوانها

* * *

« الخصائص الفنية في شعر أبي الأسود »

الأسلوب واللغة :

من الطبيعي أن نجد لكل شاعر من الشعراء خاصة فنية يمتاز بها عن غيره ، أو يشترك بها مع غيره ، وعندما نقرأ شعر أبي الأسود الدؤلي ، نجد خصائص فنية تميزه عن غيره . فأبو الأسود شاعر من شعراء صدر الاسلام ، فشعره في الواقع يمثل فترة معينة من تاريخ الأدب العربي ، إذ تأثر بالإسلام فكرا وأسلوبا فهو كثيرا ما يبدأ أبياته بالحث على عمل ما ، ويبدأ ذلك باستعماله فعل الأمر كثيرا ، وقد التزم هذا الأسلوب في شتى المواضيع الشعرية التي قرضها فهو ينصح ويعظ ويرشد كالخطيب الذي يقف في المسجد . فهو في الحقيقة يمثل أسلوب الشاعر العالم . فهو يطلب الشيء الذي يهدف اليه ثم يأتي بحكمة يؤيد بها رأيه . ويقول :

تَوَكَّلْ وَحمِّلْ أمرَكَ اللهَ انما ... تروحُ بأرزاقٍ عَليكَ حـدودُ

ثم يقول :

أطل الصمت إذا لم تسـل ... إنَّ في الصمتِ لأقوام دعـه

ويقول في موضع آخر حيث يحث الإنسان على طلب الرزق :

وما طلبُ المعيشة بالتمني ... ولَكَنَّ القِ دلوكَ في الدلاء
ولا تقعدْ على كَسَلِ التمني ... تحيل علىَ المقاديرِ القضاء

وفي الأبيات الآتية يحث على قول الصدق ويقول :

حقق القولَ إذا ما قلته ... وأحذرن مخزاته في المجمعة
لا يكنْ برقُكَ برقاً خلباً ... إنَّ خيرَ البرقِ ما الغيثُ معه

وفي الأبيات الآتية يحث المسلمين على الوقوف جنبا الى جنب مع آل هاشم :

قودوا الجياد لنصر آل محمدٍ ... ليكونَ سهمكُم مع الأنصارِ
كونوا لهم جنباً وذودا عنهم ... أشياع كلِ منافقٍ جبار
وتقدموا في سهمكم من هاشم ... خيرُ البريةِ في كتاب الباري

أما من حيث السهولة والقوة في أسلوبه فنجده متفاوتا في ذلك . فأحيانا نراه أسلوبا قويا صاخبا كقوله :

وما ولدت أمي من القوم عاجزاً ... ولا كان ريشي من ذنابى ولا لغب
ولا كنت فقعا نابتاً بقرارة ... ولكنني آوي الى عطن رحب
أجيب إذا الداعي دعاني واحتمي ... بأبيض مصقول ضريبته عضب
وإني لمن قوم إذا حاربوا العدا ... أغاروا بفتيان مغاوير كالشهب

ويقول في موضع آخر في قصيدة طويلة ينهج فيها نهج الشعراء الجاهليين من حيث الأسلوب في قوته وصلابته :

وصحراء سختيت يحار بها القطا ... ويرتد فيها الطرفُ أو يتقصب
قطعت إذا كان السراب كأنه ... سحاب على اعجازه متنصب
على ذات لوث يجعل الوضع تيها ... كما انقض عير الصحرة المترقب

عليها إذا ما استحمل القوم بعضهم عليها متاع للرديف ومركب
وتصبح عن غب السرى وكأنها إذا ضرب الأقصى من الركب تضرب

وأحيانا نراه أسلوبا سهلا ويقول :

العلم زين وتشريف لصاحبه فاطلب هديت فنون العلم والأدبا
كم سيد بطل آباؤه نجب كانوا رؤوسا فاضحى بعدهم ذنبا
ومقرف خامل الآباء ذي أرب نال المعالي بالآداب والرتبا
العلم ذخر وكنز لا نفاد له نعم القرين ونعم الخدن أن صحبا
قد يجمع المال شخص ثم يحرمه عما قليل فيلقى الذل والحربا

وفي موضع آخر نرى التأثر الإسلامي واضحا من حيث الأسلوب وذلك كقوله :

أحب إذا أحببت حبا مقاربا فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا أبغضت غير مباعد فإنك لا تدري متى أنت راجع
وكن معدنا للحلم واصفح عن الخنا فإنك راء ما حييت وسامع

وقوله :

وإني لتثنيني عن الجهل والخنى وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
حياء واسلام وتقيا وانني كريم ومثلي قد يضر وينفع
فإن أعف يوما عن ذنوب وتعتدي فإن العصا كانت لغيرك تقرع
وشتان ما بيني وبينك انني على كل حال أستقيم وتظلع

* * *

الصور الخيالية :

لم يكن حظ الخيال في شعر أبي الأسود الدؤلي كثيرا . ويرجع ذلك في اعتقادي الى نفسية الدؤلي . حيث نراه شاعرا عالما . ومن طبيعة العلماء الأبتعاد عن الخيال كلما أمكنهم ذلك . أما مصدر هذا الخيال فتراه خيالا مأخوذا من البادية العربية على الرغم من أن أبا الأسود الدؤلي سكن البصرة ، وعاصر حضارتها ، وشاهد نهضتها ، واختلط بالفرس حيث امتزج العرب بحضاراتهم المزدهرة ، الا أننا لم نجد تأثيرا لهذا الامتزاج في شعره . ومعظم الخيال نراه خيالا مصدره البادية العربية وما يدور في فلكها من طير وأبل وخيل وبعير وكثبان وغير ذلك . وفي الأبيات الآتية نلاحظ صورة خيالية جميلة مصدرها البادية ، حيث يصف أبو الأسود طريقا سلكه ويشبه السراب بالسحاب المرتفع حيث يمتطي دابة سريعة كأنها حمار الصحراء المستعد للسير ويقول :

قطعت إذا كان السرابُ كأنه سحاب على إعجازه متنصب
على ذات لوث يجعل الوضع مشبها كما أنقض عير الصحرة المترقب

ثم يأتي بتشبيه رائع وبديع وذلك عندما يضرب الشاعر أقصى الركب تطير الفرس مسرعة كأن أولادها يجرون أمامها يستهوونها للسرعة . وذلك في قوله :

وتصبح عن غب السرى وكأنها إذا ضرب الأقصى من الركب تضرب
كأن لها رئما تراه أمامها مدى العين تستهوي اليه وتذهب

وفي البيت الآتي يصف وادياً مربه ويشبهه بمركز تجمع الأسود والصيادين معاً ويقول :

كأن مصامات الأسود ببطنه مراغٌ وأثارُ الاراجيل ملعب

وفي البيت الآتي يشبه زوجته وهي تمشي ببطء كالفيل المقيد في أرجله .

ويقول في ذلك :

وليست بوكباء الصدار إذا مشت توكر مشي الكودن المتحبس

وفي الأبيات الآتية يشبه نفسه بالميت عندما رفض أهل العروس زواجه من فتاة وقع في حبها وحموها كما تحمي الأسود أجمتها .

سأسكت حتى تحسبوني كأنني من الجهد في مرضاتكم متماوت
ألم يكفكم أن قد منعتم بيوتكم كما منع الغيلَ الأسودُ النواهتُ

وفي البيت الآتي يفتخر بفتيان قومه ويشبههم بالشهب الملتهبة في سرعتهم وانقضاضهم على الأعداء ويقول :

وإني لمن قوم إذا حاربوا العدى أغار بفتيان مغاوير كالشهب

وفي البيتين الآتيين يصور لنا زوجته ، ويشبهها بالثوب القديم الجميل كلما قدم زاد عزة وارتفع ثمنا ويقول :

أبى القلب الا أم عوف وحبها عجوزا ومن يحبب عجوزا يفند
كسحق اليماني قد تقادم عهده ورقعته ما شئت في العين واليد

وفي الأبيات الآتية يصور لنا الشباب وذهابه ، في صورة خيالية رائعة حيث يراه كالجار الذي يسكن يوما ثم يزول مودعا ويقول :

غدا منك في الدنيا الشباب فأسرعا وكان كجار بان يوما فودعا
فقلت له : فأذهب ذميما فليتني قتلتك علما قبل أن تتصدعا
جنيت علي الذنب ثم خذلتني عليه فبئس الخلتان هما معا
وكنت سرابا ماضحا إذ تركتني رهينة ما أجني من الشر أجمعا

وفي القطعة الآتية يصور أبو الأسود الدؤلي ساجع الحمام في تشبيهات جميلة :

كأن عينيه من حسن أصفرارهما فصان من حجر الياقوت قد قطعا
كأن رجليه من حسن أحمرارهما مآرق من شعب المرجان فاتسعا
والريح تخفضه طورا وترفعه طوراً فمنخفضاً يدعو ومرتفعا
كأنه راهب في رأس صومعة يتلو الزبور ونجم الصبح قدطلعا

* * *

الأوزان والقوافي :

نهج أبو الأسود الدؤلي في شعره نهج الشعراء الجاهليين في بحورهم .فقد استخدم الطويل والكامل والوافر والمتقارب والبسيط والرجز . ولكنه كان متفاوتا في استخدامه لتلك البحور والقوافي من حيث الجودة والتكلف . إذ قلما نجد ائتلافا ملائما بين القافية والموضوع وأحيانا ، نجد هذا الائتلاف مناسبا . ونعني بائتلاف القافية مع المعنى أن تكون القافية متممة للبيت بحيث تشكل مع معناه الجزئي وحدة ، لا أن تضاف اليه إضافة . فإذا ما ورد البيت سبقت قافيته الى الذهن كالسهم واحتلت مكانها ، ومن شعره الجيد الذي وفق في قوافيه ووزنه وملاءمته للموضوع قوله في مدح العلويين وهي من الوافر . :

أحب محمدا حبا شديدا وعباسا وحمزة والوصيا
وجعفر إن جعفر خير سبط شهيدا في الجنان مهاجريا
بنو عم النبي وأقربوه أحب الناس كلهم اليا
أحبهم لحب الله حتى أجيء إذا بعثت على هويا
رأيت الله خالق كل شيء هداهم واجتبى منهم نبيا
ولم يخصص بها أحدٌ سَواهم هنيئا ما أصطفاه لهم مريا

وقوله من الطويل حيث ينصح ابنه :

أحبب إذا أحببت حبا مقاربـــا فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا ابغضت غير مباعـد فإنك لا تدري متى أنت راجع
وكن معدناللحلموأصفحعنالخنى فإنك راء ما حييت وسامـــع

ومن شعره الذي تكلف في نظمه حيث نلاحظ كثيرا من قواقيه والفاظه أتت قلقة غير مناسبة إذ نراه جاء بها لمعنى اراده ثم يبني عليها البيت، كالابيات الآتية ، فهو أتى بكلمة جابر ثم بنى عليها . والأبيات من البحر الطويل . يقول فيها :

يريد وثاقٌ ناقتي ويعيبهـــا يخادعني عنها وثاق بن جابـــر
فقلت تعلم يا وثاق بأنهـــا عليك حمى أخرىاللياليالغوابر
بصرت بها كوماء حوشاء جلدة من المولياتالهامجد الظهائر

وقوله في مدح ابن عامر احد ولاة البصرة حيث ترى التكلف في الفاظه ومعانيه واضحا والأبيات من البحر الطويل :

ذكرتابن عباسبباب ابنعامر وما مر من عيشذكرتومافضل
اميران كانا صاحبي كلاهمـــا فكلاً جزاه الله عني بمـــا عمل
فإن كان خيرا كان خيراً جزاؤه وإن كان شرا كان شرا كمافعل

وقد جاء ابو الأسود بقوافي غريبة كالضاد مثلا . إذ قال :

ومن مُبلغٌ عني خليلي مالكـــاً رسولاً اليه حيث كان من الأرض
فمالك مسهوما إذا ما لقيتنـــي تُقَطِّعُ عني طرفَ عينيك كالمُغضيْ
ومالي إذا ما أخلقَ الودُّ بَيننَا أمرُّ القوى منه وتعمل في النقض
ألم ترأني لا أُلَوِّنُ شيمتـــي تَلَوَنُ غُولِ الليلِ بالبلد المفضي
فسل بي ولا تستحي مني فإنـــه كذلك بعض الناس يسألعن بعض

كما تكلف في الرجز إذ قال :

يا غالبي حسبك مـــن غالـب أرحم علي بن أبي طالـــب

وقوله قبل حرب الجمل يخاطب عثمان بن حنيف عامل البصرة حينذاك :

يا ابن حنيف قد أتيت فانفـــر وطاعن القوم وجالد واصـــبر
وابرز لها متلثماً وشمر

* * *

بين التقليد والتجديد :

يلاحظ قاريء شعر أبي الأسود الدؤلي أتجاهين في شعره من حيث التقليد والتجديد ..

فالاتجاه الأول هو التقليد : فقد حاول أبو الأسود الدؤلي تقليد الشعراء الجاهليين في قصائدهم ولكنه لم يستمر في ذلك الخط التقليدي . ولم نشاهد في ديوانه سوى قصيدتين تقليديتين فقط . حاول في الأول أن يبدأ قصيدته بالغزل ثم يصف رحلة قطعها ثم يصف بها متاعبه ..

ونحب أن نستشهد ببعض أبياتها . يقول في أولها :

الا تلك عرس أم سكن تنكـرت خلائقها لي والخطوب تقلـب
تعرض أحيانا وأزعم أنهـــا تحوط أمراً عنده تتقـــرب
فقلت لها : لا تعجلي كل كربة ستمضي ولو دامت قليلا فتذهب

ثم ينتقل الى وصف الطريق :

الى أن بدا فجر الصباح ونجمـه وزال سواد الليل عما يغيـب
وصحراء سختيت يحاربها القطا ويرتد فيها الطرف أن يتقصب

قطعت اذا كان السراب كأنـــه سحاب على أعجازه متنصـــب

ثم يصف الحصان وسرعته :

على ذات لوث يجعل الوضع مشبها كما أنقض عير الصحرة المترقب

م يتحدث عن شجاعته عندما قطع الطريق :

سلكت إذا ما جن ثغر طريقـــه أغم دجوجي من الليل غيهب
بذي هبوات أو بأبيض مرهف سقاه السمام الهندكي المخرب

أما القصيدة التقليدية الثانية فهي قصيدة غزلة حيث نرى فيها ملامح من معلقة الشاعر المشهور أمريء القيس ..

أفاطم مهلا بعض هذا التعبـــس وإن كان منك الجد فالصرم مؤئسي
تشتم لي لما رأتني أحبهـــــا كذى نعمة لم يبدها غير أبؤس
فإن تنقضي العهد الذي كان بيننا وتلوي به في ودك المتحلس
فإني فلا يغررك مني تجملـــي لأسلي البعاد بالبعاد المكنـــس

أما التجديدالحقيقي فقد حدث ذلك فعلاً في معاني أبي الأسود الدؤلي حيث ادخل في شعره معاني أسلامية تحدثنا عنها في مواضيع شعره ونحب أن نشير الى حقيقة بهذا الخصوص وهي : أن أبا الأسود الدؤلي أدخل المعاني الإسلامية في شتى المواضيع التي قرض بها شعره من فخر وحكمة وهجاء ورثاء وغير ذلك ..

* * *

مآخذ فنية :

فأما من حيث الأسلوب فقد سلك أبو الأسود الدؤلي مسلك الشعراء الجاهليين في تأليف الجمل ، وأختيار الأساليب ، واستخدام الوسائل البلاغية . ووزن شعره بموازين بحورهم والحقيقة أنه لم يصل الى مستواهم من الناحية الفنية والموضوعية من جهة ، ومن جهة أخرى لم يتناول شيئا من ذلك كله بالابتكار أو التجديد كما تناوله بشار وعمر بن أبي ربيعة وغيرهم من المجددين . وكل عمله أنه رأى التراث الأدبي القديم فالتزمه وحافظ عليه من حيث الأسلوب بل ربما أساء اليه أحيانا بلفظة ثقيلة أو بتكرار قبيح كما سنبين ذلك ..

وأول هذه المآخذ « خلو مقطوعاته من العاطفة » إذ لا نرى في كثير من مقطوعاته العاطفة الرقيقة المرهفة . بل نرى نظما فقط ، يدل على قدرته في قرض الشعر ، ونحن نعلم أن الشاعر الفذ هو الذي يكشف بوسيلته الخاصة عما يدور بخلده ، ويترجمه للناس بأحساسه ويجعل السامع أو القارىء يشارك الشاعر شعوره وإحساسه ..

وأين أبو الأسود الدؤلي من هذا ؟ فكثيرا ما نرى في مقطوعاته جفاف الأسلوب وضعف الخيال وفتور العاطفة ويغلب عليه النظم فقط . أو بعبارة أخرى ليس فيه من الشعر الا الوزن وهذه بعض المقطوعات التي تدل على ذلك..

في القطعة الآتية يذكر محاورة دارت بينه وبين رجل يقال له وثاق بن جابر أراد أن يشتري منه ناقة فلم يتفقا على الثمن وقال أبو الأسود في ذلك :

يُريدُ وثاقٌ ناقتي ويَعيبُهـــا يخادعني عنها وثاقُ بنُ جابرِ
فقلت : تعلم يا وثاق بأنهـــا عليك حمىً أخرى الليالي الغوابرِ
بصرتُ بها كوماء حوشاءجلد ة من المولياتِ الهام جدَ الظهائرِ

وفي القطعة الآتية يصف جارا اساء له ونلاحظ فيها فتور العاطفة كأنها

كلام منثور وضعف في الصياغة :

رماني جاري ظالما بدميـــــــة فقلت له : مهلا ، فأنكر ماأتى
وقال : الذي يرميك ربك جازيا بذنبك والأذناب تعقب ما ترى
فقلت له : لو أن ربي بدميـــــة رماني لما أخطا ألهي ما رمـــى

وفي القطعة التالية يتحدث عن ناقة أخرى أراد بيعها لرجل ثان ونلاحظ أنه كرر الألفاظ نفسها . ذكرها في وصف الناقة الأولى : « حمراء كوماء جلدة ».

آليت لا أمشي الى رب لقحـــة أساومه حتى يؤوب المثلـــم
فقالوا له : حمراء كوماء جلدة وراحوا له في السوم والفتك يكتم

* * *

مآخذ لفظية :

قال ابن خلدون [1] : « على الشاعر الا يستعمل من الكلام الاّ الافصح من التراكيب الخالص من الضرورات اللسانية » . وقال أبو هلال العسكري [2] : إن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا وسلسا سهلا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد وجرى مع الرائع النادر » . فأين حظ أبي الأسود من حلاوة الألفاظ وسلاستها ؟ . لم يوفق أبو الأسود الدؤلي في اختيار بعض كلماته المفردة ، وبعض كلامه المركب استعمل أبو الأسود الدؤلي الفاظا ثقيلة على السمع غير متجانسة كثيرة الحروف المتقاربة من مخارجها كقوله :

تَجَسَّسُ عني أم سكنٍ وأهونُ الـ شكاةِ شفاءً ظنَّةَ المتجسسِ
وليست بوكباء الصدارِ إذا مشت تَوَكَّرُ مشي الكودن المتحبسَ

(١) المقدمة ص ٣٢٩ .
(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٤٢ .

واستعماله « بسبس » في قوله :

ولا بسبسٍ كالعنزِ أطول رسلها ورئمانها يومـــان ثم يـــزول

واستعماله كلمة خرشبت « خلطت » كقوله :

لعمرك مرسوعٌ من آل مجالـــدٍ لَخَرْشَبْتَ لي يوم التقيناجوابكا

أو كقوله :

فقوموا على الابواب منكم فَمَجْمِجُوا بأن الفتى أفجر شخص وأغلـــم

وكاستعماله حدبوا فأحدب ، تقاعسوا فاقعس :

فانحدبوا فاقعس وانهم تقاعسوا ليستمكنوا مما وراءك فاحـــدب

* * *

مآخذ أخرى :

استعمل ابو الاسود الدؤلي كلمات في غير موضعها فقد خلط الرثاء بما يفسد الكلام اذ قال في رثاء الامام علي :

إذا استقبلتَ وجهَ أبي حسيـــنٍ رأيتَ البدرَ راق الناظرينـــا

فرؤية الميت لا تسر القلب ، بل يمزقه حسرة وأسى وبكاء ولا يمكن أن يكون الميت بدرا راق الناظرينا ..

وقد أساء للأمام أيضا في قوله :

ومن لبسَ النعالَ ومن حذاهـــا ومن قرأ المثاني والمئينـــــا

فالأمام يعد زاهداً ولكنه لَمْ يكنْ اسكافياً يرقع الأحذية ..

وكاستعمال كلمات لا تناسب الغزل ككلمة « الجرب » :

لها وَلْجَةٌ في كل بيتٍ وَخرْجَةٌ تَحَكُّكَ جنبِ الاجربِ المتمرسِ

وكذلك أخطأ في تشبيهه أياها بالكودن أي الفيل « فهو يتغزل في زوجته ويشبه مشيتها بالفيل المتحبس الذي يسير بطيئا . فلو أخذ الغزال لكان أفضل أو حيوانا آخر أكثر جمالا من الفيل ، كذلك أخطأ في أستعمال كلمة الوكباء « الوسخة » اذلا تناسب الغزل على الرغم أنه نفاها :

وليستْ بوكباء الصدارِ إذا مَشتْ تَوَكَرُ مشي الكودنِ المتحبسِ

وقبل أن ننتهي من ذكر المآخذ على شعر أبي الأسود الدؤلي نحب أن نشير الى ملاحظة أخرى– نظم أبو الأسود الدؤلي شعرا في الرجز والواقع أن الرجز في ديوانه محدود والذي يؤاخذ عليه في هذا الموضوع هو أنه يغلب على رجزه النظم ..

واعتقد أن أبا الأسود الدؤلي أراد أن ينظم قصائده في كل الوان الشعر فطرق الرجز وهذه مجموعة الاراجيز التي وجدناها في ديوانه ويغلب عليها النظم والافتقار الى العاطفة التي لا تجعل القاريء أو السامع يستجيب لها أو يتفاعل معها ..

وفي البيت التالي نراه ينظم نظما :

يا غالبي حسبك من غالبِ أرحمْ عليَّ بن أبي طالبِ

وقوله لعثمان بن حنيف يوم الجمل :

يا ابن حُنيفٍ قد أتيتَ فانفرْ وطاعنْ القومَ وجالدْ وأصبرِ
وأبرز لها متلئما وشمر

ومن رجزه الذي يغلب عليه النظم :

أعوذُ بالله الأعزِّ الأكرمِ
من قولي الشيء الذي لم أعلَمْ
تَخَبُّطَ الأعمى الضرير الأيهمِ

« الدؤلي في الميزان النقدي »

بعد أن قدمنا عرضا مفصلا لأغراض شعره يحسن بنا أن نلقي نظرة عامة على هذا الشعر ، فقد بينت أن للدؤلي أشعارا أرتفعت من حيث الصياغة والأسلوب الى مستوى رفيع . كما وجدنا بعض المقطوعات قد انخفضت انخفاضا ظاهرا وغلب عليها التكلف وضعف الكلمات والناظر لديوانه يلاحظ هذا الأتجاه ..

وقبل أن نقول رأينا في قيمة شعر أبي الأسود الدؤلي نحب أن نشير الى بعض الأراء التي قيلت في هذا الشأن حتى يكون قاريء هذا البحث على بينة تامة في هذا الموضوع ..

نظر القدماء الى شعر أبي الأسود الدؤلي نظرة اعجاب وتقدير وأخذوا يكيلون له المدح والثناء دون دراسة أو تحليل ولم يذكروا براهين تؤيد أقوالهم ..

فهنا الآمدى يقول [1] : « كان شاعرا متقنا للمعاني » ..

وقال الجاحظ [2] : « قد جمع جودة اللسان وقول الشعر .. » ..

---

(١) المؤتلف والمختلف للآمدي ص ١٥١ .
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٥ .

وقال ابن خلكان [1] : « وكان ديوانه محل أهتمام علماء الأدب على مر العصور » .

وقال ابن الأثير [2] : « وله شعر حسن » . وقال السيوطي [3] : « انـــه شاعر سريع الجواب » ..

أما المحدثون فكانت نظرتهم الى شعر أبي الأسود الدؤلي نظرة الدارس الفاحص الذي يزن الأمور ويقف عندها ويستنتج قيمتها . وقد أشرنا الى أقوال المحدثين فيما يتصل بموضوعات شعره ..

ونحب في هذا الشأن أن نشير الى أقوال المحدثين الخاصة بقيمة شعر أبي الأسود الدؤلي الفنية والتاريخية والإجتماعية ..

قال المستشرق الألماني نولدكه [4] في مجلة الشركة الشرقية الألمانية ص٢٣٢خ ج ٨ المطبوع ١٨٦٤ ما يلي : « لعلاقة أبي الأسود بالشخصيات التاريخيـــة ولشخصيته المشهورة أيضا ينظر أن يكون لشعره أثر تاريخي » . ويتابع قوله « فإن شعره ضعيف من ناحية المعنى ومن ناحية القيمة الشعرية وفي قليل من المواضع يرتفع شعره أو يكون أعتياديا على الأقل » ..

وذكره. كارل بروكلمان [5] مع الشعراء المخضرمين ، وقال عن شعره : « بأنه ليس على مستوى رفيع من الوجهة الفنية كما أنه لا يقدم غنما تاريخيا جديرا بالذكر في أحوال عصره » ..

وفي دائرة المعارف الإسلامية [6] : « توصف أشعاره بأنها تبين الضيق

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤١ .
(٢) أسد الغابة ج ٣ ص ٧٠ .
(٣) بغية الوعاة في طبقات النحاة ص ٢٧٤ .
(٤) ديوان أبـي الأسود الدؤلي تحقيق عبد الكريم الدجيلي ص ٣٢ .
(٥) تاريخ الأدب العربـي كارل بروكلمان ص ١٧١ ترجمة عبد الحليم النجار .
(٦) ديوان أبي الأسود ص ٢٨ وانظر دائرة المعارف الاسلامية نقلها للعربية محمد ثابت وآخرون ج ١ ص ٣٠٧ . .

الذي كان يعتريه بسبب أعباء منصبه الى أن تقول وقد أمده مقتل علي بمادة جديدة في الرثاء وفي قصيدة نظمها وهو لا يزال متأثرا بوقوع هذا الحادث . اتهم الأمويين بأنهم كانوا المحرضين على قتل علي وأشعاره عدا هذه القصيدة لا قيمة لها » ..

ويصف الأستاذ عبد الكريم الدجيلي[1] شعره ويقول: « الواقع أن شعر أبي الأسود الدؤلي الذي وصل الينا لا يصور مجتمعه وبيئته تصويرا كاملا ولا يعالج المشاكل والأوضاع العامة وهو لم يترك للأجيال الطالعة بعده سجلا حافلا تتزاحم به الأشخاص والأعمال . فأين أذن صور المجتمع الذي عاش فيه وفيه كل شيء . وأين هو من الانقلاب الفكري الذي شمل الأمة العربية جمعاء ؟ فانقلبت من مرحلة لاخرى ومن عهد الخلفاء الراشدين الى دولة بني أمية من عهد الأستقامة والعدل الى عهد الحكم والاستبداد . وأين كان شعره من الفتن التي وقعت ؟ والحروب المبيدة التي استجدت ، وضعف الوازع الديني الذي أشتمل به من يجب أن يتصف بالدين ، وأين هو من موت الرسول وما استجد بعده من حوادث مهمة ومن الفتوحات الأسلامية . وأين هو من الحوادث زمن الخليفة عثمان ؟ . وما سببت في ذلك من تفرق وحدة المسلمين وأين هو من الصراع بين أمير المؤمنين علي ومعاوية وحرب صفين وحكم الحكمين في « دومة الجندل » وأين هو من الذين انتقضوا على علي عليه السلام فأبادهـــم في النهروان ومن حرب الجمـــل ونتائجه . ثم أين هو من تنازل الحسن بن علي لمعاوية وشروط الحسن على معاوية وأين هو من هجرة عقيل إلى الشام نتيجة حرمان رفاقه : ومن قتل حجر بن عدي وأصحابه ظلما وجورا وأين وأين الخ..؟ كل هذه الاحداث والغير وغيرها كان الواجب على الشاعر الفذ ان يتناولها ويعكس صورها للمجتمع القادم والاجيال المتلاحقة ..

أما ونحن قد حكمنا على شعر أبي الاسود فلم نجد له مكان بين الشعراء

(١) ديوان أبـي الأسود تحقيق عبد الكريم الدجيلي ص ٣٢ بغداد سنة ١٩٥٤ .

الخالدين والافذاذ الموهوبين الذين لا يأتون الا على رأس قرن أو قرنين — فليس من الحق أن نطلب منه فوق مقدوره واكثر من طاقته فهو في الواقع ناظم لا شاعر وليس من المستغرب أو طريق الصدفة أن يبقى ديوانه هذا مخطوطاً حتى هذا الوقت لم تخرجه المطابع لقراء العربية أو غير العربية ما لم يكن هو بحد ذاته مرغباً ومشجعاً على الدرس والتحقيق هذا هو رأيي في شعر أبي الاسود وأرجو الا أكون مخطئاً وللقارىء رأيه وتفكيره » ..

رأينا في شعر أبي الأسود :

في الواقع انني اتفق مع ما حكم به الكتاب على قيمة شعر أبي الاسود الدؤلي فشعره في حد ذاته لا قيمة له من الناحية الفنية والتاريخية معاً .وقد صدق الالماني نولدكه الذي أشار إلى الظاهرة التاريخية وعلاقاته الشخصية بالمرموقين الذي لم نر ذكرا لهم في شعره . فقد عمر أبو الاسود الدؤلي طويلا اذ عاش ٨٥ عاماً وعاصر كثيراً من العلماء والصحابة وغيرهم ، فالمفروض أن يكون شعره خصباً دسماً مليئاً بالاحداث التاريخية والسياسية وغيرها ..

فأين هو منهم ؟ وأين الصور الذي قدمها عن هذا المجتمع ؟ فقد عاصر الفتوحات الاسلامية من مهدها إلى لحدها . فأين شعره في هذه الفترة ؟ ..

وقد شاهد أبو الاسود الدؤلي عصوراً سياسية مختلفة وحكاما متباينين ، فشاهد حكم الرسول عليه السلام والخليفة عمر بن الخطاب وعثمان وعلي ومعاوية وأولاده فأين هو منهم ؟ ..

كما شاهد بنفسه حروباً مثل الجمل وصفين والنهروان . فأين شعره من هذه المعارك ؟

إن الشاعر مرآة للمجتمع يعكس صورة صادقة لحياته وآلامه وما الشاعر الا رسول أمين يسجل حياة الخاصة والعامة . فهل صور أبو الاسود الدؤلي مجتمعه الذي

عاش فيه ؟ .. كلا . بل قصر أبو الاسود في نفسه اذ لم نستطع أن نعرف يقينا أين ولد وكيف جاءإلى البصرة ؟ كما لم نستطع أن نعرف شيوخه وغير ذلك كثير وكثير فمعظم أشعاره عديمة الفائدة قليلة النفع تدور في فلك ضيق كمابينا..

فأبو الاسود الدؤلي في رأيي ليس شاعراً بل عالماً لغوياً دينيا استطاع بقدرته اللغوية أن يكون ناظما فقط . أما شاعراً فقد وفق قليلا واخفق كثيراً وإنه شديد التفاوت كثيراً ما يكون في القاع وقليلا ما يظهر على السطح ..

ولكننا في الوقت نفسه لا ننكر أن له بعض المقطوعات الرفيعة من حيث المعنى والاسلوب وهي قليلة وأخص بالذكر شعر الحكمة والوصف اذ ارتفعا كثيراً عن غيرهما من المواضيع ..

وبعد ذلك لنا أن نتساءل : لماذا تأخر تحقيق ديوانه إلى هذا التاريخ البعيد منذ النشأة ؟ ؟ ولماذا لم يتعرض الادباء والكتاب لدراسته مع أنه من البارزين في تاريخ العلوم العربية وخاصة النحو ؟ .. قد يرجع ذلك في اعتقادى لعدة اسباب :

أولا : أسباب شخصية تعود إلى الدؤلي نفسه حيث ارتبط اسمه بالنحو ونشأته أكثر من ارتباطه بالشعر كما كان لمذهبه السياسي اثر في تأخير هذه الدراسة حتى ظهر ت دراسات الشيعة فنجدهم يقدرونه ويعلون شأنه الا أن دراستهم لم تقم على أساس من التفصيل في حياته كما شاهدنا ذلك في كتابي تأسيس الشيعة للسيد الصدر وأعيان الشيعة للسيد محسن الامين وهما كتابان قيمان درسا آثار الشيعة ونشأتها وأشهر أعلامها ..

ثانيا : أحكام المؤرخين أمثال نولدكه وبروكلمان وجرجي زيدان وغيرهم ، أثرت في نفسية الدارسين ولفتت الانظار إلى أن الدراسة حوله تكون عديمة النفع قليلة القيمة ..

ثالثا: صعوبة الدراسة حول أبي الاسود الدؤلي وطول الفترة التي عاشها حيث عاش ٨٥ عاماً . فدراسته تحتاج إلى جهد أي جهد ، بالاضافة إلى ذلك نـــدرة

المراجع وغموضها وخاصة في الفترة الاولى من القرن الاول للهجرة حيث اهتمت الدراسات بما هو أسمى وأرفع من ذلك . فهي دراسة الدين الاسلامي العظيم وهناك سبب آخر وهو تباين الروايات حول شخصية الدؤلي وارتباطها بالنحو العربي وغموض الفترة الاولى من حياته غموضاً كلياً ..حتى نجد الاستاذين [1] المحققين لديوانه يعترفان بأن عملهما الذي قاما به يرجع إلى إرضاء المكتبات الادبية في بغداد ..

والخلاصة :

بعد هذا العرض الذي قدمناه للشاعر أبي الاسود الدؤلي نكون قد إنتهينا من رحلتنا الطويلة مع أبي الاسود الدؤلي ، وكانت رحلة شاقة وممتعة في الوقت نفسه ، ولعلي أكون قد وفقت في ابراز شخصية هذا المفكر الجليل الذي بقي مغموراً في خضم من المتاهات لنضيف إلى تراثنا التليد اثاراً جديدة . والحمد لله الذي هدانا الطريق السليم واليه يرجع الفضل والتوفيق ...

فتحي الدجنيّ

(١) ديوان ابي الأسود الدؤلي تحقيق الاستاذ عبد الكريم الدجيلي ص ١ بغداد ١٩٥٤ .
ديوان ابي الأسود الدؤلي تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ص ٥ بغداد ١٩٦٤ .

« مراجع البحث »

١ — أبو زكريا الفراء
أحمد مكي الأنصاري مطبوعات المجلس الأعلى للفنون والآداب

٢ — أبو علي الفارسي
عبد الفتاح شلبي سنة ١٩٥٨ .

٣ — أبو هريرة راوية الإسلام
محمد عجاج الخطيب أعلام العرب .

٤ — اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني —
مصطفى هداره دار المعارف .

٥ — احياء النحو
أبراهيم مصطفى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٦ — أحوال البصرة
فصيح البغدادي بغداد سنة ١٩٦١ .

٧ — أخبار القضاة
للقاضي وكيع

٨ — أخبار النحويين البصريين
السيرافي مطبعة الحلبي .

٩ — الأدب الجاهلي
شوقي ضيف — دار المعارف .
١٠ — أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام
بطرس البستاني — بيروت .
١١ — أدبنا العربي في عصر الولاة
محمد كامل حسين القاهرة ١٩٦١ .
١٢ — أسد الغابه
ابن الأثير طهران سنة ١٢٨٥ هـ .
١٣ — الاشتقاق
لابن دريد تحقيق عبد السلام هارون سنة ١٩٥٨ .
١٤ — الإصابة في تميز الصحابة
لابن حجر المطبعة الشرقية .
١٥ — إصلاح المنطق
لابن السكيت ١٩٥٦ .
١٦ — الاضداد
للأنبارى الكويت ١٩٦٠ .
١٧ — أعيان الشيعة
السيد محسن الأمين بغداد
١٨ — الأغاني
أبي فرج الأصبهاني طبعة وزارة الثقافة — القاهرة .
١٩ — امالي المرتضى
للشريف المرتضى القاهرة تحقيق محمد أبو الفضل .
٢٠ — الأمالي للقالي
أبو علي القالي مطبعة دار الكتب ١٩٢٦ .

٢١ — الموشح للمزرباني — في مآخذ العلماء على الشعراء — لأبي عبدالله محمد بن عمران المزرباني — المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣ هـ .
٢٢ — انباة الرواة
للقفطي دار الكتب — مصر .
٢٣ — الأشباه والنظائر
للسيوطي .
٢٤ — البخلاء
للجاحظ تحقيق طه الحاجري دار المعارف مصر .
٢٥ — البداية والنهاية في التاريخ
عماد الدين الدمشقي مطبعة السعادة .
٢٦ — بغية الوعاة
للسيوطي ١٣٢٦ هـ .
٢٧ — البيان والتبيين
الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ١٩٦٠ الكويت .
٢٨ — تاج العروس
للزبيدي ط الكويت .
٢٩ — تاريخ الأدب السرياني
مراد كامل ومحمد حمدي البكري المقتطف .
٣٠ — تاريخ الأدب العربي
أحمد حسن الزيات القاهرة .
٣١ — تاريخ الادب العربي
السباعي بيومي .
٣٢ — تاريخ الادب العربي
كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار دار المعارف .

٣٣ – تاريخ الادب العربي
جرجي زيدان تحقيق شوقي ضيف دار الهلال .
٣٤ – تاريخ آداب العرب
مصطفى صادق الرافعي وطبعة الأخبار ١٩١١ م .
٣٥ – تاريخ آداب اللغة العربية
محمد دياب ١٩٠٠ .
٣٦ – تاريخ الاداب العربية
كارلونيلينو دار المعارف ١٩٥٤ .
٣٧ – تاريخ الادب اليوناني
محمد صقر خفاجه مشروع الألف كتاب .
٣٨ – تاريخ الاسلام السياسي
حسن ابراهيم حسن النهضة ١٩٥٨ .
٣٩ – التاريخ الاسلامي العام
حسن ابراهيم .
٤٠ – تاريخ الامم والملوك
الطبري من جا الى جـ٤ .
٤١ – تاريخ القرآن
: عبد الصبور شاهين ١٩٦٨ .
٤٢ – تاريخ العرب قبل الاسلام
جواد علي بغداد ١٩٥٥ .
٤٣ – تاريخ العرب العام
سيبيد وترجمة عادل زعيتر ١٩٤٨ .
٤٤ – تاريخ اللغات السامية
اسرائيل لفنستون ..

٤٥ – تأسيس الشيعة
السيد الصدر بغداد .
٤٦ – التحفة البهية والطرفة الشهية
مجموعة رسائل ط القسطنطينية ١٣٢٠ هـ .
٤٧ – التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية
لمجموعة من المؤلفين ترجمة أحمد بدوي ١٩٦٥ .
٤٨ – التطور والتجديد
شوقي ضيف دار المعارف .
٤٩ – تفسير ابن كثير
ابو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي مطبعة الحلبي .
٥٠ – تفسير الطبري
الطبري المطبعة الميمنيه .
٥١ – التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة
صالح العلي بغداد ١٩٥٢ .
٥٢ – تهذيب الاسماء واللغات
محيي الدين النوري دمشق .
٥٣ – تهذيب تاريخ ابن عساكر
لابن عساكر مطبعة الترقي دمشق .
٥٤ – تهذيب اللغة
لابي منصور محمد بن أحمد الأزهري المطبعة المصرية .
٥٥ – جامع الدروس العربية
مصطفى الغلاييني بيروت .

٥٦ — الجامع الصغير
للسيوطي ج ١ مصر .
٥٧ — جمهرة أنساب العرب
لابن حزم تحقيق عبد السلام هارون سنة ١٩٦٢ .
٥٨ — حديث الاربعاء
طه حسين دار المعارف .
٥٩ — حياة البحتري وفنه
أحمد بدوي .
٦٠ — حياة الحيوان
لكمال الدين الدميري الحلبي .
٦١ — خزانة الادب
البغدادي المطبعة السلفيه .
٦٢ — الخصائص
ابن جني دار الكتب .
٦٣ — دائرة المعارف الاسلامية
مادة نحو ولحن ١٩٣١ .
٦٤ — دائرة المعارف البريطانية
مادتا نحو ولحن ج ١ .
٦٥ — دروس في تاريخ اللغة
معروف الرصافي بغداد .
٦٦ — دلالة الألفاظ العربية وتطورها
محاضرات طبعة بيروت ١٩٦٣ .
٦٧ — دليل الكاتب
حسن شهاب .

٦٨ — ديوان أبي الأسود الدؤلي
تحقيق عبد الكريم الدجيلي بغداد ١٩٥٤ .
٦٩ — ديوان أبي الأسود الدؤلي
تحقيق الشيخ محمد آل ياسين بغداد ١٩٦٤ .
٧٠ — ديوان القتال الكلابي
تحقيق احسان عباس بيروت .
٧١ — رسم المصحف عبد الفتاح شلبي .
٧٢ — روضات الجنات في أحوال العلماء والادباء
للخونساري ايران ١٣٥٧ هـ .
٧٣ — سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون
لابن نباته المصري طبعه المندني .
٧٤ — السنه ومكانتها في التشريع الاسلامي
مصطفى السباعي دمشق .
٧٥ — سمط اللآلىء
للوزير البكري الادنبي ١٩٢٦ .
٧٦ — سير أعلام النبلاء
تحقيق طه الحاجري الكويت ١٩٥٧ .
٧٧ — السيرة لابن هشام
مصطفى السقا وآخرون ١٩٣٦ .
٧٨ — سيبويه امام النحاة
علي النجدي ناصف
٧٩ — سيبويه نشأته وحياته
أحمد بدوي .
٨٠ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب
أبو فلاح الحنبلي ١٣٥٠ هـ .

٨١ – الشعر والشعراء
لابن قتيبة دار المعارف ١٩٦٧ .
٨٢ – الصاحبي في فقه اللغه وكلامها
لابن فارس ١٣٢٨ هـ .
٨٣ – صحيح مسلم
مسلم .
٨٤ – الصناعتين
لابي هلال العسكري ١٩٥٢ مصر .
٨٥ – صور من حياة الرسول
أمين دويدار .
٨٦ – ضحى الاسلام
أحمد أمين النهضة مصر .
٨٧ – طبقات فحول الشعراء
لابن سلام ليدن ١٩١٣ م .
٨٨ – طبقات الفقهاء
الشيرازي بغداد ١٣٥٦ هـ .
٨٩ – الطبقات الكبرى
لابن سعد مطبعة ليدن .
٩٠ – طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ١٩٥٤ مصر.
٩١ – العبر في خبر من غبر
الحافظ الذهبي تحقيق فؤاد سيد الكويت .
٩٢ – العربية
يوهان فك ١٩٥١
٩٣ – العقد الفريد لابن عبد ربه
تحقيق أحمد أمين وآخرين ١٩٥٦ .

٩٤ – علم اللغة
علي وافي ١٩٥٠ .
٩٥ – علم اللغة
محمد السعران ١٩٦٢ .
٩٦ – علوم الحديث ومصطلحه
صبحي الصالح ١٩٦٣ .
٩٧ – على هامش السيرة
طه حسين .
٩٨ – العمدة
لابن رشيد القيرواني ١٩٣٤ .
٩٩ – عيون الأخبار
لابن قتيبه .
١٠٠ – غاية النهاية في طبقات القراء
لابن الجزري ١٩٣٣ م .
١٠١ – الفتنة الكبرى
طه حسين دار المعارف مصر .
١٠٢ – فجر الاسلام
أحمد أمين .
١٠٣ – فضل العرب على أوربا
سيجريد هونكه ترجمة فؤاد حسنين .
١٠٤ – فقه الله وسر العربية
للثعالبي تحقيق مصطفى السقا .
١٠٥ – الفن ومذاهبه في النثر العربي
شوقي ضيف دار المعارف مصر .

١٠٦ – الفهرست
لابن النديم .
١٠٧ – القاموس المحيط
للفيروزأبادي مادة دأل .
١٠٨ – القراءات واللهجات
عبد الوهاب حموده ط مصر .
١٠٩ – القصة في الادب الفارسي
أحمد بدوي دار المعارف .
١١٠ – الكامل للمبرد ١٣٥٥ هـ .
١١١ – الكامل في التاريخ
لابن الاثير ١٣٤٩ هـ .
١١٢ – كتاب الأضداد للأنباري
تحقيق محمد أبو الفضل الكويت ١٩٥٦ .
١١٣ – لسان العرب
لابن منظور حـ ١٣ مادة دأل – نحو – لحن .
١١٤ – اللغة والنحو
عباس حسن دار المعارف .
١١٥ – اللغة والنحو
حسن عون ١٩٥٢ .
١١٦ – المتنبي وشوقي
عباس حسن دار المعارف مصر .
١١٧ – المدارس النحوية
شوقي ضيف دار المعارف مصر .
١١٨ – المحكم في نقط المصحف .

١١٩ – مختصر تاريخ البصرة
علي الأعظمي ١٩٢٧ .
١٢٠ – مختار الصحاح
للرازي .
١٢١ – مراتب النحويين واللغويين
لابي الطيب الحلبي نهضة مصر .
١٢٢ – المزهر للسيوطي
الحلبي مصر .
١٢٣ – المسند للامام أحمد بن حنبل
تحقيق محمود شاكر دار الكتب .
١٢٤ – مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية
ناصر الدين الاسد ١٩٦٢ .
١٢٥ – معجم الادباء
ياقوت الحموي جـ ١٢ .
١٢٦ – المقنع في رسم مصاحف الامصار
الداني ١٩٢٢ استنبول .
١٢٧ – مقدمة ابن خلدون
ابن خلدون مطبعة مصطفى محمد .
١٢٨ – المنجد في اللغة
اليامس كرملى . بيروت
١٢٩ – منهج البحث واللغة والادب
لا نسون ماييه بيروت ١٩٤٦ .
١٣٠ – المؤتلف والمختلف الآمدي
تحقيق عبد الستار أحمد فراج ١٩٦١ مصر .

١٣١ — النجوم الزاهرة
جمال الدين الاتابكي ١٩٢٩ .
١٣٢ — نزهة الالباب للانباري
عبد الرحمن بن محمد طبع سنة ١٢٩٤ .
١٣٣ — نشأة النحو العربي
الشيخ محمد الطنطاوي مصر ١٩٣٨ .
١٣٤ — النظم الاسلامية
ابراهيم حسن مصر ١٩٦٢ .
١٣٥ — نقد النثر
قدامة بن جعفر طبعة ليدن .
١٣٦ — وفيات الاعيان
لابن خلكان مطبعة السعادة مصر .
١٣٧ — وقعة صفين
لمزاحم المنقري تحقيق عبد السلام هارون .
١٣٨ — اللؤلؤ المنثور في تاريخ الاداب والعلوم السريانية
اغناطيوس فزايم حمص ١٩٤٣ .
١٣٩ — يونس بن حبيب
حسين نصار دار المعارف مصر .

« المخطوطات والمجلات العلمية »

١ — أول من وضع النحو
مجلة كلية الآداب ج ١٠ مطبعة جامعة القاهرة
٢ — البيان العربي
مجلة علمية عدد ٤ / ١٩٦٦ .

٣ — طبقات النحويين واللغويين
مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
٤ — شرح كتاب سيبويه للسيرافي
مخطوط بدار الكتب المصرية — ٦ — أجزاء .
٥ — المصحف الكوفي القديم
مخطوط بدار الكتب المصرية .
٦ — المصحف المكتوب بطريقة أبي الأسود
مخطوط بدار الكتب المصرية .
٧ — النحو العربي وتأثره بالسريانية
مجلة العربي الكويت ١٩٥٧ عدد ١٠٦ ..

* * *

« الفهرست »

	ص
تقديم ملخص الرسالة	٥
تمهيد	١٣
الفصل الأول (العصر) :	٣١
علوم أوجدها الإسلام :	٣٣
أولا : القرآن الكريم	٣٣
ثانيا : علم الحديث	٣٧
ثالثا : نشأة النحو العربي	٣٩
أصل النحو	٥٨
تاريخ النحو	٧٨
الفصل الثاني : الرجل	٩٣
أسمه وكنيته	٩٥
مولده ووفاته	١٠٣
الفترة الاولى من حياة الدؤلي	١٠٥
الفترة الثانية من حياته	١٠٩
هجرته الى البصرة	١٠٩
علاقته بالخلفاء	١١٢
أبو الأسود في عهد بني أمية	١٢٠
حياة أبي الأسود الدؤلي الخاصة	١٣٠
صفات أبي الأسود الدؤلي	١٣٧
ذكاء أبي الأسود	١٤٥
مهن أبو الأسود الدؤلي	١٤٧
الفصل الثالث : (العالم)	١٥٧
تمهيد	١٥٩
آثار أبي الأسود الدؤلي :	١٦٠
— النحو العربي	١٦٠
آراء القدماء وجهود أبي الأسود	١٦٢
القسم الاول	١٦٢
القسم الثاني (من الروايات)	١٦٦
القسم الثالث (من الروايات)	١٧١
تلاميذ أبي الأسود ورجال مدرسته	١٧٩
آراء المحدثين في نشأة النحو	١٨٤
شكل المصحف	١٨٧
جهود أبي الأسود الدؤلي في قراءة القرآن	١٩٣
جهود أبي الأسود في الحديث الشريف	١٩٤
تعقيب	١٩٦

الفصل الرابع : (الأديب) ١٩٩

دراسة شعر أبي الأسو[illegible]ي ٢٠١

تمهيد ٢٠١

ديوان أبي الأسود الدؤلي ٢٠٢

الشاعر أبو الأسود الدؤلي ٢٠٥

مواضيع شعره ٢٠٢

الخصائص الفنية في شعره ٢٣٨

مآخذ فنية ٢٤٧

الدؤلي في الميزان النقدي ٢٥١

الخلاصة ٢٥٦

مراجع البحث ٢٥٧

الفهرست ٢٧٠

* * *